

آية الله جوادى آملى

العقيدة من خلال الفطرة

في القرآن



العقيدة من خلال الفطرة
في القرآن



جميع حقوق الطبع
محفوظة للناسر
١٤٢٩هـ - ٢٠٠٩م

للطباعة والنشر والتوزيع



بئر العبد - خلف محطة دياب

تلفاكس : (+9611) 27 49 42 _ (+9611) 55 29 00

جوال : (+9613) 80 01 49 ص.ب. : 25/91 بيروت - لبنان

E-mail : dar_asafwa@hotmail.com

آيَةُ اللَّهِ جَوَادِيَّ آمَلِيَّ

العقيدة من خلال الفطرة في القرآن

دار الصنعة

مقدمة الترجمة بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب «العقيدة من خلال الفطرة في القرآن الكريم» هو حلقة أخرى من حلقات التفسير الموضوعي لآية الله الشيخ عبدالله الجوادى الأملى وهو ترجمة للجزء الخامس من ذلك التفسير الذي كان يلقيه المؤلف كمحاضرات من خلال التلفزيون الايراني وقد جمعت وطبعت فيما بعد باسم التفسير الموضوعي للقرآن وهي موسوعة فكرية قرآنية غنية تتعرض لمجموعة من المواضيع والمعارف القرآنية المهمة .

وقد وجدنا ان كل جزء من هذا التفسير يبحث حول موضوع أساسي او عدة مواضيع مترابطة لذا قمنا باختيار عنوان مناسب لكل منها رغم انه في الأصل الفارسي لم يطبع تحت هذا العنوان .

وستابع إن شاء الله ترجمة واصدار ما تبقى من الأجزاء تبعاً والذي نريد بيانه اننا راعينا الدقة ما أمكن في عملية الترجمة ولم نتجاوز الحرفية في

النقل رغم تطلب المقام ذلك في موارد كثيرة كون الكتاب لم يؤلف على أساس ان يطبع وانما استنسخت تلك المحاضرات بشكل حرفي ولذا يلاحظ القارئ كثرة التكرار وعدم الترابط فيه أحياناً.

ولكننا مع هذا لم نحاول التصرف فيه مراعاة للأمانة في النقل ولعدم احرازنا رضى المؤلف بذلك ولدقة المطلب وخوف الزلل فيه .

نعم قمنا بالتصرف في بعض الأمور :

الأول : اختيار العنوان للكتاب اذ هو قد صدر في الأصل الفارسي باسم التفسير الموضوعي دون بيان عنوان يتعلق بموضوع كل جزء .

الثاني : تغيير ترقيم الدروس اذ جعلنا لكل جزء ترقيماً خاصاً به مع انه في الأصل قد رقت دروس كافة الأجزاء ضمن تسلسل واحد .

الثالث : اختصار خاتمة بعض المحاضرات وهي دعاء اعتاده المؤلف عقيب كل محاضرة وقد تطول أحياناً وهي لا علاقة لها بمضمون الكتاب أصلاً .

الرابع : حذف بعض الشواهد الشعرية في موارد قليلة جداً حيث لا يكون فيها اضافة معنى جديد سوى الاستشهاد على مطلب قد تم بيانه ولا تكون اكثر من تكرار للمعنى بعبارة أخرى وعلى كل حال هي موارد قليلة جداً نسأل الله ان نكون قد وفقنا للقيام بما يلزم مما نقدر عليه تجاه هذا العمل . كما نعتذر من سهو أو اشتباه قد يقع أمّلين من القارئ التسامح والاعضاء .

والحمد لله أولاً وآخراً

لجنة الترجمة

فصل تلاوة القرآن

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله وصلى الله على جميع الأنبياء والمرسلين والأئمة الهداة المهديين سيما خاتم الأنبياء وخاتم الأوصياء عليهم آلاف التحية والثناء.

كان بحثنا يتعلق بأن القرآن الكريم قد ثبت مجموعة من الصفات العامة والمطلقة للرسول الأكرم ﷺ ورسم له سلسلة من الواجبات والمهام والمسؤوليات أيضاً.

فمن جملة الأوصاف العامة والمطلقة هي ان رسول الله ﷺ سراج منير وداع الى الله والصراط المستقيم وما شاكل . وأما وظائف ومسؤوليات الرسول فهي قوله تعالى ﴿يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾^(١).

(١) سورة الجمعة، الآية (٢).

كنا قد بحثنا حول تلاوة الآيات القرآنية بعض الشيء وقلنا أن الله سبحانه ينسب تلاوة الآيات لنفسه فهو القائل ﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق﴾^(١).

وذكرنا أن حرف «الباء» في الآية إما أن يكون «باء المصاحبة» أو «باء الملابس» أي إما أن تلاوة القرآن مصاحبة ومرافقة للحق أو أنها تتم بلباس الحق ولا يدخلها الباطل أبداً. وثبت لدينا أن الآيات التي بين أيدينا الآن هي نفس الآيات التي تلاها الله تعالى على الرسول الأكرم ﷺ، وسمع الرسول نصها وقرأه على الأمة وسمعتها الأمة الإسلامية. أي أن ما نقرأه نحن اليوم هو عين ما أنزله الله على الرسول الأكرم ﷺ من دون نقيصة.

وقلنا في نهاية بحثنا السابق أنه ينبغي ألا تكون المشاركة في جلسات التفسير لمجرد الكلام والاستماع، وإنما يجب طرح البرامج العملية الى جانب تحليل المعاني فتلاوة القرآن بالدرجة الأولى ويأتي الى جانبها فهم أحكام القرآن والعمل بها.

يجب ان تقام برامج تلاوة القرآن في المنازل، وللمثال نذكر بعض الأحاديث عن أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام حول فضيلة تلاوة القرآن ليتضح أن فهم القرآن من دون تلاوته لا يكفي.

قال رسول الله ﷺ «نوروا بيوتكم بتلاوة القرآن ولا تتخذوها قبوراً»^(٢) فمن لم يكن من أهل القرآن وممن يستأنسون به فهو ميت وبيته قبر من القبور. فلا تجعلوا بيوتكم مظلمة بهجر القرآن بل نوروها بتلاوته.

(١) سورة آل عمران، الآية (١٠٨).

(٢) الكافي، ج ٢، كتاب فضل القرآن، ص ١٦٠.

يقول الامام السادس عليه السلام أن البيت الذي يتلى فيه القرآن بيت نير
«يتراءى أهل السماء كما يتراءى أهل الأرض الكوكب الدرّي في
السماء»^(١).

وقال أيضاً عليه السلام «الحافظ للقرآن العامل به مع السفرة الكرام
البررة»^(٢) لأن القرآن وصلنا على أيدي الملائكة كونهم سفراء الله وهم
يتمتعون بالدرجات القرآنية المتوسطة والرفيعة.

إننا لو تفقهنّا في القرآن وعملنا به واجتزنا صراط القرآن المستقيم.
واعتصمنا بالحبل الإلهي المتين، فسنحشر مع الملائكة. وبهذا تتضح أهمية
فهم المعارف القرآنية والعمل بأحكام القرآن، لأن لذة الأنس مع الملائكة
تعدّ من أفضل الملذّات العقلية الى أن تتمهد أرضية الأنس مع خالق الملائكة
حيث هذا المقام من أرفع درجات المسيرة الانسانية.

كانت هذه الأحاديث جزءاً من الأحاديث الكثيرة التي تحثنا على تلاوة
القرآن. وبقي أن نعرف كيف نقرأ القرآن؟ وما هي شروط تلاوته؟ وكذلك
شروط الاستماع اليه اذا تلاه الآخرون؟ وكل هذه البحوث يشير اليها القرآن
الكريم.

يقول الله في سورة البينة موضحاً مهمة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله :
«رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة * فيها كتب قيمة»^(١) أي أن في محتوى
هذه الصحف القيمومة على الانسانية فهي صحف قائمة ومقومة لأفكار

(١) الكافي، ج ٢، كتاب فضل القرآن، ص ٦١٠.

(٢) الكافي، ج ٢، كتاب فضل القرآن، ص ٦٠٣.

(٣) سورة البينة، الآيتين (٣٢ و٣٣).

البشر. فالمعارف القرآنية في مجالات العقيدة والخلق والعمل هي القيومية على الانسانية.

لا يمكن للشيء أن يكون قيماً على المجتمعات البشرية إلا اذا كان هو قائماً. فما لم يكن قائماً لا يستطيع أن يأخذ بأيدي الساقطين لينهضهم. والانسانية ساقطة بدون الوحي. فالوحي هو القائم وهو الآخذ بأيدي الساقطين والقيّم عليهم.

ومضامينه طاهرة كذلك، فهي طاهرة ومطهرة وبامكانها أن تظهر الآخرين لأنها طاهرة من كل لوث. وأثار طهارة القرآن وقيوميته مشهورة في تلاوته. فالرسول الأكرم ﷺ يتلو كتاباً يستتبع القيومية والطهارة. هذه خصوصيات للقرآن الذي يتلوه الرسول الأكرم ﷺ.

يذكر الله في سورة البقرة نتائج التلاوة الصحيحة مع التدبر على الشكل الآتي: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به﴾^(١) إن حق التلاوة لا يقتصر على رعاية التحركات والأعراب والسكنات والوقفات. بل يجب أن يصحب ذلك التدبر في المعاني والاستعداد لقبولها.

ويقول تعالى في سورة الأنفال حول استعداد القبول عند المؤمنين: ﴿وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً﴾^(٢) فمن علامات التلاوة الصحيحة والحقيقية تأثيرها في القارئ وزيادتها لإيمان السامع. ليس حق التلاوة أن نعلم أين نتوقف فحسب مع ان هذه الأمور ضرورية. وليس حق التلاوة أن نعلم أي الحروف نخرجه من الحلق وأيها نتلفظه من المخارج الأخرى. رغم

(١) سورة البقرة، الآية (١٢١).

(٢) سورة الأنفال، الآية (٢).

إن هذه العلوم لازمة ولكنها لا تكفي لحصول التلاوة الصحيحة .

الذي زادت تلاوة القرآن في درجة ايمانه هو صاحب التلاوة الصحيحة . أو ليس للتلاوة من الحرمة ما يوجب على المستمع الانصات والتدبر؟ ﴿واذا قرء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا﴾^(١) .

أفتى بعض فقهاء الامامية بوجوب الاستماع وأفتى آخرون باستحبابه وقالوا ان وجوب الاستماع والانصات يخص صلاة الجماعة حيث يجب على المأموم الاستماع لقراءة الامام .

وعلى كل حال فتلاوة القرآن محترمة الى درجة أن الاستماع والانصات اليها أما واجب أو مستحب . لأن من أفضل آثارها زيادة ايمان المؤمنين الحقيقيين كما ان لها دوراً مهماً في المحافظة على الايمان . فالانصات الى القرآن يؤدي الى فهم معانيه بصورة جيدة وتكريس حالة الخضوع للمواعظ عند الانسان ليعمل بالنتيجة بأحكام القرآن والعمل بمحتوى القرآن هو ايمان بحد ذاته ويؤدي الى زيادة الايمان .

لهذا يقول الله في سورة الأنفال عندما يصف المؤمنين المتكاملين :
﴿انما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون﴾^(٢) وعليه فان أصل التلاوة وكيفية التلاوة قد تبينت في الكتاب والسنة . أرجو أن يوفقنا الله جميعاً لأن تكون لنا علاقة غير منفصمة بعهد الله . وأن نقرأ القرآن كثيراً وبصورة جيدة وننور بيوتنا بتلاوة كلام الله .

(١) سورة الأعراف، الآية (٢٠٤) .

(٢) سورة الأنفال، الآية (٢) .

يجب أن لا نتوهم أن الانسان يتمتع دائماً بالموهب الطبيعية وسيبقى
أبداً في عالم الطبيعة. ولا نتوهم أن مثل هذه العبادات ليست ذات تأثير في
يوم الخطر، لقد قالوا لنا [نقله الوحي] انه اذا كان لنا مريض في حالة
الاحتضار وكان احتضاره عسيراً فلنحمله الى محل صلاته ليسهل عليه نزع
الروح.

من المناسب للذين يمتلكون غرفاً عديدة في بيوتهم أن يجعلوا إحداها
مصلى يصلون فيه، ولا يقومون بشيء في تلك الغرفة سوى قراءة القرآن
والدعاء والصلاة. لأن للانسان منعطفات كثيرة في حياته ومن الضروري أن
يكون له مكان مبارك ليستجاب فيه دعاؤه أسرع. اذا نقلنا الانسان المحتضر
الذي عسر عليه موته الى محل صلاته فستخرج روحه بيسر.

كما إن بعض الأزمنة وبسبب الحوادث المهمة التي تقع فيها تكون لها
خصائص معينة، فان بعض الأماكن وبسبب العبادات التي تقام فيها تكون لها
بركات خاصة. وليس من الصحيح القول أن إقامة الصلاة أو تلاوة القرآن في
مكان معين ليس لها أثر على ذلك المكان وأن ذلك المكان وذلك المنزل لن
ينور. فليس القرآن كلاماً آدمياً وحديثاً عادياً حتى لا يكون له هذا التأثير.
وسنراعي هذه الخصوصيات جميعاً ان شاء الله.

إذن فأول وظيفة ورسالة لرسول الله ﷺ هي تلاوة الآيات الإلهية
على الناس، وهذا ما مر ذكره.

ولكن أساس رسالة النبي ﷺ هو التعليم. قال الله عز وجل
﴿ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ وكذلك وصف الله النبي بأنه مبين وشارح
القرآن ﴿وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل

اليهم﴾^(١) أي رغم أن القرآن ذاته تبيان وأنه بمنزلة الشمس المنيرة، ولكن العين البصيرة هي التي ترى الشمس دون غيرها. ولأنك أيها النبي خير من يرى القرآن، فعليك أن تصفه للناس. فاننا أرسلنا الكتاب السماوي لك وللآخرين، أرسلناه لك على شكل إنزال دفعي وللآخرين على شكل تنزيل تدريجي. فبين للجميع ما أرسلنا إليهم.

بعد أن فرّق بين الانزال والتنزيل في هذه الآية الكريمة، بعد ذلك يعرف الرسول الأكرم ﷺ بصفته مبين ومفسر ومعلم الكتاب والحكمة ومزكي النفوس.

هناك سلسلة من التعاليم هي التعاليم العقلية، أي أن القرآن الكريم يهدي البشر بالبراهين العقلية، وهناك سلسلة من الأوامر هي أوامر التزكية التي تسعى لهداية الانسان عن طريق الموعدة وايجاد الجذب والرغبة الداخلية لديه.

إن منطق القرآن الكريم هو أنه إذا قلت علاقة الانسان بالدنيا ستنبجس الحقائق الإلهية من قلبه. وظهور الحقائق هذا إما أن يكون بسبب أن هذه الحقائق مذكورة في ذاته ومتى ما ارتفعت الحجب سيتفتح ما عُبيء في قلبه. وإما أن يكون بسبب أن الانسان متى ما فتح ستائر القلب ومسح الغبار عن مرآة فؤاده ستعكس أسرار العالم في هذه المرآة، وليس لأن شيئاً ما كان قد عُبيء في قلبه من قبل.

وعلى كلا الاحتمالين وبكلا المعنيين فان تهذيب النفس من شوائب الارتباط بالدنيا له من الأثر ما يوجب تعرف الانسان على أسرار العالم.

(١) سورة النحل، الآية (٤٤).

ولكن قبل أن تطرح قضايا التعليم عن طريق البراهين العقلية أو قضايا التزكية عن طريق النماذج العملية في القرآن الكريم. هنالك أصل آخر يجب أن يطرح وهو أصل التذكرة.

لقد بين القرآن الكريم هذه الواجبات لرسول الله ﷺ وهي أن يتلو على الناس الآيات الإلهية ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكي نفوسهم ويذكرهم. ان هذه التذكرة تشير الى أن الانسان كان في السابق ذاكرًا لله ولكن بسبب أنسه بامكانات الطبيعة ذهب من باله ذكر الله. لذا كان للوحي والنبوة جانب تذكيري. وعليه يجب أن ندرس التذكرة قبل أن نقوم ببيان صفات وواجبات الرسول الأكرم ﷺ. فكيف يكون الوحي السماوي تذكرة وليس تعليماً ابتدائياً ولا يعلم الانسان شيئاً جديداً لا يوجد في داخله. وان جميع المعارف الكلية للقرآن باطنية وليست خارجية، وانما يحاول الوحي الإلهي أن يوقظ ويحرك الفطرة الانسانية فقط. لكي يزدهر ويثمر ما عجنه الله سبحانه في فطرة الانسان وطينته عدا عن تعليمه الجزئيات الفرعية. وهذا هو ما يسمى بالتذكرة.

تشكل أصول الدين المحاور الأصلية في البحث حول قضية التذكرة أي أن في باطن كل انسان رؤية توحيدية وميل نحو الله الواحد. وكذلك يوجد في قرارة كل البشر نزوع الى الخلود وتطلع الى الحياة الخالدة. والنتيجة المهمة للوحي والنبوة هي أنه أولاً: يطلع الانسان على ذخائره المكنونة وثانياً: يعين طريق الوصول الى تلك الأهداف السامية والكمالات المطلقة.

وبعد شرح التذكرة وتوضيح أن القرآن يقوم مقام المذكر بالنسبة لتلك الأصول الدينية يأتي دور مسألة التعليم والتزكية.

يدّعي القرآن الكريم أن الخطوط الكلية للمعارف كامنة في باطن البشر. فالاعتقاد بالله ممتزج بسريرة الانسان. والشوق الى المعاد والقيامة والعالم الأبدى ممتزج بطبيعته. وهناك في باطن الانسان توق الى العلاقة بين الخلق والخالق وهي ما يسمى بالوحي والنبوة والرسالة. ومن الجائز أن لا يحمل الانسان في داخله جزئيات الدين ولكن الله وضع في قرارته الخطوط العامة للدين «كل مولود يولد على الفطرة»^(١) ويمكن اثبات هذه المسألة أي ان المعارف الأصلية للدين موجودة في ميول البشر بعدة طوائف من آيات القرآن الكريم.

الطائفة الأولى: الآيات التي تطرح قضية التذكرة وتقول أن الرسول مذكر والقرآن تذكرة والدين ذكرى.

تستعمل كلمات الذكرى والتذكرة وما شابهها في المواضع التي تكون للانسان سابقة معرفة بشيء معين، تخللها النسيان وقد وقف هذا النسيان الوسيط بوجه تلك المعرفة السابقة. فتكون التذكرة هي العامل الذي يحيي تلك المعرفة المسبقة ليتذكر الذهن الموضوع المعني مرة أخرى.

يخاطب الله نبيه الكريم في سورة الغاشية ويقول ﴿فذكر انما أنت مذكر﴾^(٢) ذكر أيها النبي لأن مهمتك هي التذكرة فقط ولا مهمة لك سواها. ولسان الحصر هذا لم يرد في خصوص التعليم فلم يقل «إن أنت إلا معلم» ولكن التعبير عن مهمة التذكرة عند النبي يفيد الحصر.

تارة يقول الله للرسول إنك لست وكيلاً ومسيطرأ على الناس. وتارة

(١) البحار، ج ٣، ص ٢٧٩ و٢٨١.

(٢) سورة الغاشية، الآية (٢١).

يقول له أن ليس لك مهمة سوى التذكرة أي انه اذا كان القرآن قد نزل لهداية جميع البشر ﴿نذيراً للبشر﴾^(١) ، وإن كانت حدود رسالة رسول الله ﷺ تشمل كل المجتمعات البشرية ، ورغم ذلك يقول الله عز وجل لرسوله ﷺ أن عمك هو التذكرة فقط . فهذا يدل على أن الفطرة التوحيدية كامنة في داخل الانسان وأن الميل الى العالم الأبدي المسمى بالمعاد مذخور في سريرة الانسانية .

وذلك لأن الله تعالى يعتبر هذا الكتاب كتاباً سماوياً ويقول أنه هدى للبشرية وأهم محتوى في القرآن الكريم هي الأصول العقائدية، ومع هذا يقول لرسوله ﴿فذكر إنما أنت مذكر * لست عليهم بمسيطر﴾^(٢) . إذ أن مرجعهم الينا وحسابهم علينا ودورك هو التذكرة فحسب . مما يدل على أنه بكلام الرسول ﷺ تزول الأستار وعندها سيتذكر الناس أنفسهم تلك المعارف ويعلمون من هو السيد ومن هو العبد . فعمل الوحي هو تنحية ستار الغفلة . وإذا زالت ستارة الغفلة سيرى الانسان الحقائق . وما دام حجاب السهو والنسيان موجوداً فالانسان محروم من مشاهدة المبادئ الاعتقادية والأصول الدينية ولا يراها . فإما أن يشخص الانسان ستار الغفلة بسعيه وجهده وينحيا بيده ليبصر ما خلفها . وإما ان يشمله اللطف الإلهي فيهب نسيم ينحي هذا الستار ليرى الانسان ما وراءه .

والخلاصة هي أنه يجب الوصول الى الغيب وفهمه والايمان به ، إما عن طريق البرهان والفكر والعلم الحصولي ، وإما عن طريق الرياضة وتهذيب النفس والتذكرة والتزكية وتطهير الفؤاد . فمهمة الوحي إذن هي

(١) سورة المدثر، الآية (٣٦) .

(٢) سورة الغاشية، الآيتين (٢١ و٢٢) .

إزالة ستار الغفلة عن القلوب .

قال الله في سورة المدثر ﴿فما لهم عن التذكرة معرضين﴾^(١) وقال أيضاً ﴿كلا انه تذكرة﴾^(٢) لو كان التذكير خاصاً بالمؤمنين ، لأمكن أن نبرره بالشكل الآتي ، بما أن المؤمن كان قد آمن سابقاً فهو اذن قد اطلع على الأصول العقائدية ولكنه نتيجة لأخطائه أسدل ستاراً من الغفلة على علمه وإطلاعه ، ومن ثم جاءت بيانات رسول الله ﷺ تحمل طابعاً تذكيرياً لأن الانسان يمتلك سابق معرفة . وإذا كانت هذه التذكرة خاصة بأهل الكتاب فهي في محلها أيضاً لأن لهم سابقة الوحي السماوي فالتذكرة في حقهم صادقة أيضاً .

ولكن هذا العنوان (التذكرة) يشمل جميع البشر حتى الملحدين والكافرين والمنافقين من الذين لم يتقبلوا الدين الإلهي من الأساس . والقرآن تذكرة أيضاً لأولئك الذين ليس لهم سابق معرفة وإلتزام في عالم الطبيعة ، وهكذا لا يمكن القول ؛ بما انهم قد تعرفوا فيما مضى للأسس العقائدية والتزموا وآمنوا بها وقد جعلهم الانشغال بالذنوب واللهو فيما بعد ينسونها ويغفلون عنها . فجاءت أقوال الرسول الأكرم ﷺ بمنزلة التذكرة لهم .

والخلاصة هي أن القرآن تذكرة لكل البشر سواء كانوا مؤمنين أو من أهل الكتاب أو ملحدين . مما يكشف عن أن كل الناس في كل الأعصار الماضية والحالية والمستقبلية لهم معرفة فطرية بالأسس العامة للإسلام المتكررة في جميع الأديان السماوية . وإلا فلن تصدق صفة التذكرة على

(١) سورة المدثر ، الآية (٤٩) .

(٢) سورة المدثر ، الآية (٥٤) .

القرآن الكريم .

إذن فالتذكرة شاملة، مع ان طائفة خاصة هي المستفيدة منها ﴿وذکر فإن الذکری تنفع المؤمنین﴾^(١) لا أن القرآن ليس ذکری لغير المؤمنین، بل هو تذکرة للجميع، غير أن البعض يتذکر ويستفيد والبعض لا يتذکر ولا يستفيد وهذه التذکرة تتم بأساليب مختلفة، وتارة تكون لفظية وأخرى تكون عملية، مرة بتلاوة الآيات ومرة يذکر الانسان بواسطة القضاء والقدر التکوینی الإلهي .

إن الحوادث الواقعة إنما تقع من أجل أن ينتبه الانسان ويعلم أن هذه العلل والعوامل ليست في يد أحد. يشير الله في سورة الأنعام الى نموذج من هذه التذکرة العملية ويقول ﴿ولقد أرسلنا الى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون﴾^(٢) فالحوادث الصعبة هذه إنما هي تذکرة. ثم يقول ﴿فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا﴾^(٣) لماذا لم يتضرعوا عندما حل بهم العذاب والسخط الإلهي؟ إننا عاقبناهم بعض الشيء ليستيقظوا. فلمَ لم يتضرعوا؟ مما يشير إلى أن الحوادث المرة تذکرة إلهية من أجل يقظة الانسان وان لم يستيقظ فقد استحق التوبيخ. لذلك قال لماذا لم يتضرع هؤلاء عند الشدائد ولم يوحداوا الله ويؤمنوا به؟ .

﴿ولكن قست قلوبهم وزيں لهم الشيطان ما كانوا يعملون﴾^(٤) إنها قساوة القلب واقفال النفس وجمود الروح التي لم تسمح لهم بذكر الله أثناء

(١) سورة الذاريات، الآية (٥٥).

(٢) سورة الأنعام، الآية (٤٢).

(٣) سورة الأنعام، الآية (٤٣).

(٤) سورة الأنعام، الآية (٤٣):

الحوادث المرة. إن قلوبهم قد قست وستائر الغفلة قد تراكمت الى درجة أن أي تذكرة عملية وأي امتحان تربوي إلهي لم ينفذ معهم ولم يكشف حجبهم. بعد هذا يقول ﴿فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء﴾^(١) أي مهّدنا لسقوطهم وهلاكهم عن طريق الرفاه والتكاثر.

والمراد أن القرآن الكريم يعتبر الحادثة المرة تذكرة، مما يدل على أن أي حادثة تقع سواء كانت مرة أو حلوة إنما هي تذكرة. إذا كانت حلوة فيجب على الانسان أن يتذكر النعمة ويشكرها. وإذا كانت مرة يجب أن يتذكر أيضاً ويصبر. فالحوادث تذكرة في الحالتين، ولست الحوادث المؤلمة لوحدها تذكرة وعلامة على ربوبية الله، دون الحوادث المفرحة والسارة.

ثم يقول عن الذين لم تنفعهم الأنواع المختلفة للتذكرة ﴿إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون﴾^(٢) اننا أردنا بالذكري أن نوظفهم ولكنهم لم يستيقظوا لأن أكثر الناس في الدنيا نيام «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا»^(٣) وما يرونه في يقظتهم الظاهرية ليست سوى رؤيا. وسيأتي اليوم الذي يستيقظون فيه ليتضح للانسان تأويل وتفسير كل تلك الأحلام والعناوين التي منحها لنفسه.

إنهم في الدنيا يحلمون أن لهم هذه العناوين الخاصة، يحلمون أن لهم مالا والحقيقة أنهم لا يمتلكون شيئاً. لأن الانسان النائم لا يستطيع أن يمتلك شيئاً ولا تكون حركاته على أساس العقل والادراك الصحيح.

(١) سورة الأنعام، الآية (٤٤).

(٢) سورة الأنعام، الآية (٤٤).

(٣) مائة كلمة للجاحظ.

لكنه عن الموت واجتياز ضيق الطبيعة المظلمة سيستيقظ . فالموت سبب اليقظة سواء غادر عالم المادة بالموت الطبيعي او بالموت الارادي .

ينقل المرحوم المحقق الداماد (رض) هذا الكلام الرفيع في القبسات عن افلاطون، فقد قال ذلك الحكيم الالهي الكبير «مُت بالارادة تحيا» أي مت بارادتك لتحيا حياة طوبى . ان التعلق بعالم الطبيعة يمنع من نيل الحياة . واذا ارتفع هذا المانع سيحيا الانسان . اكثر البشر نيام وموتى لأنهم متعلقون بالدنيا، والانسان المقيد بالأربطة لا يمكنه أن يكون حراً .

هنا يقول الباربي تعالى اننا ذكرناهم بهذه الحوادث العصبية ولكنهم لم يتذكروا . وإن أساس التذكرة بدوره نعمة من النعم الالهية . يقول اننا نذكر البعض عن طريق المشاكل عسى أن ينتبهوا . فان لم يستفيدوا من هذه الفرص ولم ينتبهوا فتحنا عليهم أبواب النعم الجمة من كل جانب، ليغرقوا في النعمة والسرور . وعندها نأخذهم وهم في أوج النعمة والسرور، لأن كل هذه المقدمات هي بدورها عذاب إلهي . وإذا جاء يوم الخطر فلن يجدوا سبيلاً للهروب أبداً . لهذا قال أنهم متى ما سروا وفرحوا لتراكم النعم، أخذناهم بغتة .

إن الموت المفاجيء والمباغت رحمة للمؤمن، ولكنه لغير المؤمن عذاب . وسبب هذا أن المؤمن قد أنجز واجباته لهذا يكون مصوناً من الضغوط أثناء الموت ويسلم روحه لخالقها في لحظة . لكن الموت المفاجيء لغير المؤمن مؤلم جداً لأنه لم يوفق للتوبة ولا للوصية ولا لسائر الخيرات والبركات، لهذا كان الموت المباغت عذاباً لغير المؤمن وراحة للمؤمن لأن المؤمن متجه للتخليق والذهاب ولا تمر به حالة من الانتظار .

يقول الامام أمير المؤمنين عليه السلام عن أهل التقوى «لولا الأجل الذي كتب الله عليهم لم تستقر أرواحهم في أجسادهم طرفة عين»^(١) من الهباء أن يبقى الانسان المستقيم في هذه الدنيا ويحرم من لذة مشاهدة المعبود. ان مطلب الانسان الزاهد هو السفر الى عالم يكون رفاقه فيه الأنبياء والأولياء، لأنه لا يوجد عالم أحط من عالم الدنيا. من جملة الأقوال النيرة للامام أمير المؤمنين عليه السلام قوله «من هوان الدنيا على الله أنه لا يعصى الا فيها ولا ينال ما عنده الا بتركها»^(٢) فالله لا يعصى في العوالم التي سبقت الدنيا والتي ستليها. بل هي الدنيا فقط التي تحصل فيها معصية الله. فلا الموجودات قبل الدنيا قد عصت او تعصي الله. ولا الموجودات بعد الدنيا تعصي الله.

المحل الوحيد الذي ترتكب فيه المعاصي هو عالم الطبيعة والدنيا. إذن فلا يوجد عالم أحط من هذا العالم، رغم إنها مزرعة العالم الأبدى. وما لم يترك الانسان السالك هذا الوجود المنحط فلن يصل الى العالم السامي والخالد.

ذكر الامام علي عليه السلام قوله هذين الى جانب بعضهما فقال ان الدنيا يكفيها وضاعة أن الله لا يعصى في عالم سواها وكفاها انحطاطاً أن الانسان لا يستطيع الرقي الى أي مقام شامخ ولا يستطيع أي انسان كامل أن يأخذ بيده ما دام متمسكا بها، بل عليه أن يغسل يديه من الدنيا فلا يتعلق بها ليأخذ السالكون الواصلون بيديه.

إن الدنيا لا تعني السماء والأرض ولا تعني البحار والصحاري. بل ان

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٨٤.

(٢) نهج البلاغة، الحكمة ٣٧٧.

كل ما يصرف الانسان عن ذكر الله ويشغله بنفسه هو دنيا . والا فالسمااء والكواكب والأرض والطرق والحيوانات كلها من الآيات الإلهية ، ولا يمكن لآيات وعلامات الله سبحانه أن تكون مذمومة . إذن فالمراد بالدنيا المذمومة تلك العناوين الاعتبارية التي تدعو الى التفاخر الفارغ والتكاثف غير المناسب ، كأن يتفاخر الانسان بأن هذا المال الوفير من ملكي وذاك المقام الاعتباري راجع لي .

والخلاصة هي أن حب الذات والارادة لها وجعلها هدفاً ، كل هذا هو الدنيا بينما توظيف النفس من أجل الله والتضحية بارادة الذات في سبيل الأوامر الالهية وما شاكل ، هو الزهد في الدنيا .

وعلى كل حال فمحتوى الآية المذكورة هو أن محبي الدنيا وبسبب عدم لياقتهم لليقظة والتنبيه سنغرقهم ونلهيهم بالنعم الوافرة بعد حلول الشدائد والمحن الصعبة ، وعندها نأخذهم دفعة واحدة ، فيشاهدون بغتة أن نشأتهم الحياتية قد تغيرت ، ولا يوجد عذاب أشد عليهم من الموت المباغت والمفاجيء ، ولأنه لن يبقى لهم أي طريق للتوبة والتعويض عن مفسادهم يتبدأ عذابهم منذ اللحظة الأولى للموت اذ أن تعلقهم بالدنيا وزخارفها لا يزال على حاله بينما لا تتوفر أي من تلك الأشياء التي يتعلقون بها . وان بقاء الحب وزوال المحبوب يكون منشأ للعذاب . فهم كالمدمن الذي ما يزال ادمانه على حاله بينما يأخذون منه المواد التي اعتاد على تناولها .

ان الانسان المحب للدنيا مدمن على هذه المطالب الباطلة . ويبقى ادمانه بعد الموت كملكة راسخة في حين يؤخذ منه ما يستطيع أن يليي حاجة ادمانه ﴿وتقطعت بهم الأسباب﴾^(١) ولهذا تراهم في أوج العذاب والشقاء .

(١) سورة البقرة ، الآية ١٦٦ .

ولأن محبي الدنيا مفتونون بالزخارف الزائلة فان التذكرة الالهية لا توقظهم ولا تنبههم .

في هذه الآية شاهدان على أن الاعتقاد بالله وتوحيده أمران فطريان .
الشاهد الأول هو كلمة التذكرة والثاني هو كلمة النسيان ففي القول
اننا ذكرناهم دليل على أنهم كانوا يمتلكون سابق معرفة . وكذلك
في القول أنهم نسوا دليل آخر على انه كان لديهم معرفة سابقة بهذه
المفاهيم .

ولأن العذاب الالهي قد أخذهم بغتة تراهم مبلسين . ثم يقول ﴿فقطع
دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين﴾^(١) .

ان الآيات المذكورة وبقية الآيات تدل على أن الوحي السماوي فيه
جانب تذكيري والقرآن الكريم بدوره يعتبر طرح قضية التوحيد تذكرة كما
يعتبر طرح قضية المعاد تذكرة أيضاً ويقول أن الفطرة عند الانسان تنطوي
على أن الله خالقه ﴿أولا يذكر الانسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً﴾^(٢)
هل نسي الانسان أننا خلقناه؟ هذا الانسان المنكر لوجود المبدأ (المصدر)
والمنكر لربوبيته والمنكر للمعاد والرجوع اليه . هذا الانسان الذي يقول من
باب الإنكار ﴿إذا ما مت لسوف أخرج حياً﴾^(٣) يقول القرآن لهذا الانسان؛
أفلا تتذكر حين خلقك الله؟ .

أي أن الله يذكر منكر التوحيد والمعاد بالنحو الآتي؛ هل نسيت أن الله
هو الذي خلقك؟ مما يشير الى أن النزوع نحو الله موجود في دخيلة حتى هذا

(١) سورة الأنعام، الآية (٤٥) .

(٢) سورة مريم، الآية (٦٧) .

(٣) سورة مريم، الآية (٦٦) .

الانسان الملحد ﴿أو لا يذكر الانسان أننا خلقناه﴾ لو كانت هذه التذكرة خاصة بالمؤمنين لما استخدمها الله مع الملحدين مع أن الله يقول بالنسبة للانسان الملحد في سورة مريم ﴿ويقول الانسان إذا ما مات لسوف أخرج حياً﴾^(١) يقول منكر القيامة؛ اني اذا مت وصرت تراباً فسوف لن أُحى مرة ثانية. عندها يقول الله عز وجل أفلا يتذكر أننا خلقناه فيما مضى؟.

فهنا لم يأتِ الدليل بصورة مستقلة على ضرورة المعاد لكي يكون اثبات ضرورته عن طريق التعليم. بل جاء الحل بأسلوب وعن طريق التذكرة. أي؛ هل نسي الانسان انه لم يك شيئاً من قبل وأنا حولناه الى شيء ونقلناه الى الوجود. وهذا يدل على أن الانسان الذي لم يك شيئاً ثم صار شيئاً، اكتسب الفطرة التوحيدية مع تحوله الى شيء مع خلقته.

للقرآن الكريم لغة برهان ولغة تذكرة. لغة القرآن البرهانية في مجال التوحيد أنكم لم تخلقوا أنفسكم، والآخرين الذين هم مثلكم لا يمكنهم أن يكونوا قد خلقوكم. وانما الموجود الذي وجوده عين ذاته والغني المحض هو خالقكم مثل الآية ﴿هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً﴾^(٢) وبقية الأدلة التي تثبت أن الله هو الذي خلق الانسان.

أما لغة التذكرة فهي التي تسأل الانسان؛ هل يا ترى نسيت خالقك؟ لماذا لا تتذكر خالقيتنا ومخلوقيتك؟ مما يدل أن خالقية الله معجونة في طبع الانسان وأن الانسان مخلوق على فطرة التوحيد ﴿أو لا يذكر الانسان أننا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً﴾ أي لو تأمل الانسان قليلاً لتذكر أننا خلقناه. وليس مضمون الآية هو أنه لو تأمل الانسان وفكر واستدل لعرف أن الله

(١) سورة مريم، الآية (٦٦).

(٢) سورة الانسان، الآية (١).

خالقه .

إذن فهناك لغتان في القرآن، أحدها هي لغة ﴿أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون﴾^(١) وهذا هو الاستدلال . واللغة الأخرى هي ما استفدناه من الآيات المذكورة من أن الانسان إذا تأمل ودقق سيتذكر أنه مخلوق لنا وليس هذا حدوث للعلم بالتوحيد . بل هو استمرار لتلك المعرفة الفطرية .

والخلاصة هي أن مضمون الآيات المذكورة، التذكير بخالقية الله بالنسبة للانسان المنكر للقيامة والذي يعد الحياة بعد الموت حالة مستبعدة . إذن فالقرآن الكريم يطرح الأصول العامة للدين كتذكرة . ولأن المؤمن لم يقطع صلته بالله فان حجبه النفسية حجب رقيقة وليست سميكة لهذا فبقليل من التذكرة تزول هذه الحجب وتحصل التذكرة . أما غير المؤمن فليس كذلك .

ينقل المرحوم الشيخ الصدوق^(٢) رضوان الله عليه في كتابه التوحيد عن الامام الرضا عليه السلام ان رجلاً سأله عن الله عز وجل انه لم احتجب فقال عليه السلام : ان الاحتجاب عن الخلق لكثرة ذنوبهم فيتضح أن الذنب حجاب يمنع الفطرة من الشهود (المشاهدة) والله منزه عن أن يدرك بالحواس ﴿لا تدركه الأبصار﴾^(٣) ولكن تمكن مشاهدته بعين الفطرة الطاهرة وبالمقدار الميسور ولا يحجب هذه الرؤية غير الذنب .

يمكن أن نستنتج من كل الآيات المذكورة أننا اذا تركنا الغفلة جانباً عرفنا الله . إذن فسابقة المعرفة موجودة في باطن البشر .

(١) سورة الطور، الآية (٣٥) .

(٢) التوحيد للصدوق، ص ٢٥٢ .

(٣) سورة الأنعام، الآية (١٠٣) .

في مواضع أخرى يقول الله سبحانه أن أساس نزول القرآن هو التذكرة ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر﴾^(١) أي كما يعرف الرسول الأكرم ﷺ صفته مذكراً ويعتبر رسالته تذكرة، يعرف القرآن أيضاً بصفته ذكرى.

من مجموع الآيات التي وردت فيها كلمات من قبيل الذكر والذكرى والتذكرة والمذكر، سواء كان ذلك في معرض تعريف رسول الله ﷺ أو تعريف القرآن أو شرح برامج الرسول، يمكن الاستنباط وبسهولة أن الاعتقاد بالمبدأ والمعاد موجود في طبيعة وفطرة كل انسان ولأنه موجود في فطرة كل انسان فان الانتباه اليه يسير. يقول الله عز وجل ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر﴾ بمعنى أن معرفة المفاهيم القرآنية ليست بصعبة، لأن مضمونها يتفق والميول الباطنية للانسان. ولا يفرض عليه شيء، أجنبي من الخارج لذلك كان فهم وقبول هذه المفاهيم سهل ويسير على القلوب.

يبدأ البعض بسلوك هذا الطريق السهل فيكون سلوك ما تبقى من الطريق لهم أسهل اذ ان الله تعالى قد وعده انه ﴿فأما من أعطى واتقى * وصدق بالحسنى * فسنيسره لليسرى﴾^(٢). أما البعض الآخر فيمتنع عن سلوكه ولهذا ييسر الله لهم سلوك الطريق المنحرف بصفتهم كفاراً ﴿وأما من بخل واستغنى * وكذب بالحسنى * فسنيسره للعسرى﴾^(٣) ان الله يسهل سلوك الطريق ويبقى على الانسان اختيار نوع الطريق.

جاء الأصل الأساسي في القرآن الكريم على الشكل التالي ﴿ثم السبيل

(١) سورة القمر، الآية (٣٢).

(٢) سورة الليل، الآيات (٥ - ٧).

(٣) سورة الليل، الآيات (٨ - ١٠).

يسره﴾^(١) فقد أخذ الله على عاتقه التيسير وكان على عاتق السالكين إختيار الطريق . فالأصل الأساسي هو أن الله ييسر الطريق . فإذا سلك سالك طريق الخير سهّل الله له طريقه ووصله الى العاقبة اليسرى والمحمودة واذا سلك سالك طريق الباطل سهّل الله له عاقبة السوء والنهاية المؤلمة .

بهذه البيانات المذكورة يتذكر المؤمن فوراً ويختار طريق الصلاح . وقد يبدو طيّ هذا الطريق صعباً بعض الشيء في بدايته ولكنه يسير في الحقيقة .

﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾^(٢) . أما غير المؤمن الذي فرض على نفسه طريق الباطل لظنه أنه طريق يسير فلن يكون من نصيبه موفقية التذكر والذكرى .

والنتيجة هي أنه بالرغم من أن تلاوة القرآن وتعليم معارفه وتزكية النفوس والتذكرة بمحتوى القرآن من سمات رسول الله ﷺ . لكن الأهم من كل هذا هو أن الله عز وجل يعتبر نفسه مذكراً والقرآن ذكراً وإرشاداته تذكرة، ويعتبر هذا العمل سهلاً بمعونة الفطرة الانسانية . ويدعو الانسان الى هذا الأمر اليسير .

وبغض النظر عن الآيات المذكورة، هنالك شواهد أخرى في القرآن الكريم تدل بوضوح على أن معارف القرآن عامل أنس لقلوب البشر، ولكل إنسان سابق معرفة بها .

أتمنى أن ينير الله قلوب الجميع بالمعارف الدينية ببركة القرآن الكريم .
غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

(١) سورة عبس، الآية (٢٠) .

(٢) سورة القمر، الآية (٣٢) .

الدرس الثاني

النزوع الى المبدأ نزوع فطري

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله وصلى الله على جميع الأنبياء والمرسلين والأئمة الهداة المهديين، سيما خاتم الأنبياء وخاتم الأوصياء عليهما آلاف التحية والثناء.

كان بحثنا حول أن النزوع نحو مصدر العالم والاندفاع الداخلي باتجاه الحقيقة التي يركز عليها العالم، نزوع واندفاع فطريان عند كل انسان. أي أن لكل انسان ميل فطري نحو القدرة المطلقة والعالم المطلق والوجود المحض. ويضع القرآن هذا الطريق أمام المنقبيين في معارف التوحيد والمعاد.

فعلاوة على السبل العقلية التي يقدمها القرآن من أجل إثبات المبدأ (الله) والمعاد، هناك سبل فطرية يطرحها أيضاً، ويقول أن في قرارة كل انسان ميل الى الحقيقة والقدرة المطلقة وكذلك العلم المطلق. إن فطرة الانسان تبحث عن الوجود المطلق والقوي المحض والعليم الصرف، فغاياته

هو الحي الذي لا يموت . وحسب تعبير البعض فان سريرة الانسان تنزع نحو الحقيقة التي ﴿بكل شيء محيط﴾^(١) و﴿على كل شيء شهيد﴾^(٢) و﴿الحي الذي لا يموت﴾^(٣) .

إن تبين هذا الموضوع العميق عن طريق الفطرة بصورة مجملّة هو أن رسالة الرسول الأكرم ﷺ رسالة عالمية بمعنى أنها كلية ودائمة ومفيدة لكل فرد في كل زمان . فقد قال الله عز وجل ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس﴾^(٤) وقال أيضاً: ﴿نذيراً للبشر﴾^(٥) .

وعلى هذا الأساس فمهما امتدت حدود الانسانية، امتد نفوذ رسالة خاتم الأنبياء ﷺ . وأينما كان للانسان فكر ورؤى، سطعت أنوار الهالة هناك . لأن كل موجود مفكر يجب أن يهديه الوحي . وقد أخذت الشمولية العالمية للقرآن كمبدأ قطعي مسلم .

لذلك يوصف القرآن أو الرسول الأكرم ﷺ بعض الأحيان بالكتاب العالمي أو رسول العالمين، كآية ﴿إن هو الا ذكرى للعالمين﴾^(٦) أو الآية: ﴿ليكون للعالمين نذيراً﴾^(٧) . إذن فمجال عمل رسالة الرسول الأكرم ﷺ يشمل كل المساحة البشرية، بحيث لا يستثنى أحد من شمولية هذا الحكم .

(١) سورة فصلت، الآية (٥٤) .

(٢) سورة فصلت، الآية (٥٣) .

(٣) سورة الفرقان، الآية (٥٨) .

(٤) سورة سبأ، الآية (٢٨) .

(٥) سورة المدثر، الآية (٣٦) .

(٦) سورة الأنعام، الآية (٩٠) .

(٧) سورة الفرقان، الآية (١) .

الى جانب هذا الأصل، يبين الله سبحانه أصلاً آخر حول شرح برنامج رسالة الرسول الكريم ﷺ، وهو أن رسول الله ﷺ علاوة على كونه معلماً فهو مذكر أيضاً. ففي الوقت الذي يقول فيه: انك معلم للبشر. يقول: انك مذكر للبشر. أي أن جميع ما تقوله للناس موجود في باطنهم، ولست أكثر من مذكر يذكّر.

إن كانت الكتب العقلية تعتبر أرسطو المعلم الأول والفارابي المعلم الثاني فان عرفاء الامامية وأهل المعنى يعتبرون رسول الله ﷺ المعلم الأول وأمير المؤمنين علي ابن ابي طالب عليه السلام المعلم الثاني. فحين يقولون المعلم الأول يقصدون به خاتم الأنبياء ﷺ وحين يقولون المعلم الثاني يريدون بذلك أمير المؤمنين عليه السلام.

وكما ان رسول الله المعلم الأول فهو المذكر الأول. ومتى ما كان الحديث عن الحياة البشرية، كان الحديث عن رسالة خاتم الأنبياء، ورسالة خاتم الأنبياء تذكرة، اذن فجميع البشر يمتلكون في فطرتهم الاعتقاد بالحق والايمان بالمبدأ والمعاد، والاعتقاد بالوحي. وبهذا لا يفرض الوحي الالهي شيئاً جديداً عليهم.

ان كانت القضية قضية فرض وتحميل يرد على الناس من الخارج، لما عرف الله سبحانه القرآن بعنوان التذكرة، ورسول الله بعنوان المذكر. بل لقال له انك معلم فقط. والحال انه يطرح الرسول بصفته معلماً وبصفته مذكراً أيضاً مع وجود فرق هو أنه حين يصف الرسول بالمعلم لا يقول «انما أنت معلم» ليستفاد من ذلك الحصر، أما عن صفة المذكر فقد جاء ﴿فذكر إنما أنت

مذكر ﴿^(١) أي أن مهمتك التذكرة فقط .

لو كانت مساحة عمل رسالة الرسول الأكرم تخص أهل الكتاب الذين تقبلوا نبوة الأنبياء السابقين، لحملت التذكرة على ان هؤلاء مطلعون على الأصول العامة للدين بفضل تعاليم الأنبياء ولكنهم نسوها بمرور الزمن وطوله، ولهذا يجب تذكيرهم بواسطة خاتم الأنبياء ﷺ . أما حين تشمل رسالة النبي كل البشرية، سواء أهل الكتاب من ذوي السابقة الدينية أو الوثنيون أو الثنويون أو القائلون ﴿ما هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا﴾ ^(٢) أو المرددون ﴿وما يهلكنا الا الدهر﴾ ^(٣) . فالقرآن الكريم قد وضع في حدود رسالته الجميع حتى الدهريين والطبيعيين . وقال للنبي انك رسول لكل الناس وقال له ان مهمتك التذكرة، مما يدل على أن للجميع سابقة قبول هذه المعارف، لكنهم قد نسوها بسبب أنسهم بالذائد المادية .

إن روح تعاليم الأنبياء حول أصول الدين، هو الالفات الى الفطرة . لذلك كانت الرسالة العالمية الشاملة للنبي الأكرم ﷺ تذكرة، فقد قال الله تعالى ﴿إنما أنت مذكر * لست عليهم بمسيطر﴾ انك لا تملك سلطة وسيطرة على هؤلاء، بل مهمتك هي التذكرة فقط .

والمراد من هذا الحصر هو أنه بالرغم من أن السمة الوحيدة للرسول بصفته رسولاً هي البلاغ المبين كما قال الله ﴿ما على الرسول الا البلاغ﴾ ^(٤) وليس مسؤولاً عن اقتناع الناس وايمانهم . ولكن هذا البلاغ يكون تارة

(١) سورة الغاشية، الآية (٢١) .

(٢) سورة الجاثية، الآية (٢٤) .

(٣) سورة الجاثية، الآية (٢٤) .

(٤) سورة المائدة، الآية (٩٩) .

ابتدائياً، فيكون مترافقاً مع التعليم . وتارة يكون تذكيراً مجدداً فيسمى بالتذكرة . من هنا يعرف الله سبحانه الرسول الأكرم كونه «مذكراً» فقط .

بملاحظة هذين الأصلين المذكورين أي شمولية الرسالة وكونها ذكرى يتضح أن الاعتقاد بالأصول والمعارف الأولية للدين موجود في باطن كل انسان . وقد ذكر الله سبحانه هذه النتيجة في القرآن الكريم ضمن عناوين مختلفة وبصورة واسعة . فمثلاً قد يذكر هذه القضية من باب التذكير ويقول ؛ اننا أنزلنا الكوارث والمصائب على هؤلاء عسى أن يتذكروا ويقول تارة أنهم نسوا الله ﴿نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾^(١) .

تدل بعض الآيات على أن الصفة الرسمية للأنبياء هي التذكرة وتدل بعضها على أن المفسدين نسوا الله ، مما يشير على ان الاعتقاد بالله كان سابقاً في بالهم ، لكنهم نسوه الآن . ويقول القرآن للكافر الذي لا يعتقد بوجود شيء سوى الطبيعة ﴿ما هي الآحياتنا الدنيا نموت ونحيا﴾ انك نسيت المعاد .

فيتضح أن النزوع نحو العالم الأبدي ، كامن في قرارة كل إنسان . فالله لا ينسب هذا النسيان للمؤمنين أو أهل الكتاب فقط . بل ينسبه أيضاً لمن لا يعترفون بالمبدأ والمعاد ، ويقول لهم إنكم نسيتم الله واليوم الآخر . بمعنى أن كانت لكم سابقة المعرفة وقد نسيتموها الآن لانشغالكم بالطبيعة . (هذان نوعان من الآيات القرآنية) .

النوع الثالث : الآيات الدالة على العهد والميثاق ، والقائلة أن الله قد أخذ عهداً من البشر . والبشر قد أعطوا ميثاقاً أن تكون موحدة ومطبعة لله .

(١) سورة الحشر، الآية (١٩) .

وهذا يشير الى أن البشرية وفي مرحلة خاصة من مراحلها الوجودية قد أعطت لله ميثاقاً اذ يقول الله ﴿ألم أعهد اليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان﴾^(١) ان هذا الخطاب جامع وشامل، ولا يختص بأهل الايمان أو أهل الكتاب.

النوع الرابع: هي الآيات التي تفيد أن البشر متى ما أحسوا بالخطر دعوا الله ولجؤوا اليه. ومضمون هذه الآيات هو انه متى ما حلت مصيبة أو مشكلة بالانسان، هرب الى الله مستغيثاً به وداعياً له.

ان محتوى النوع الأول يختلف بوضوح عن مفاد النوع الرابع. ففي النوع الأول يكون مجرد ركوب السفينة والسفر البحري الذي يضع الانسان معرض الخطر، سبباً لتذكره الله. أما محتوى النوع الرابع فهو؛ بعد حلول الضرر وظهور الخطر والمصيبة، يتجه الانسان صوب الله. وربما أوردنا نماذج على كلا النوعين.

النوع الخامس: الآيات التي تدل بصورة مباشرة على الفطرة التوحيدية كآية ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً﴾^(٢). وثمة آيات أخرى يستدل بها على أن الأصول الأولية للدين أصول فطرية. وستطرح واحدة بعد الأخرى بمشيئة الله.

ان المسألة المهمة والضرورية حالياً هي أن نحافظ بهذين الأصلين في بالنا ونحل الى جانبهما كل المسائل الأخرى.

الأصل الأول: هو أن الرسول الأكرم ﷺ رسول للانسانية ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس﴾.

(١) سورة يس، الآية (٦٠).

(٢) سورة الروم، الآية (٣٠).

الأصل الثاني: هو أن الله يعتبر رسالة الرسول ﷺ تذكرة، ويصفه بأنه مذكر للبشر ولم يبعث إلا من أجل التذكرة. فيتجلى أن الميل لتلك الحقيقة الأزلية كامن في جبلّة البشرية. ورسالة الرسول الأكرم أحياء هذا الميل وتفعيله. وعندها يمكن تبين تلك الأنواع من الآيات القرآنية التي ذكرناها بشكل جيد.

إذن كانت آية سورة الغاشية ﴿فذكر إنما أنت مذكر * لست عليهم بمسيطر﴾ وقوله تعالى في سورة فاطر ﴿يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأنى تؤفكون﴾^(١) خطاباً لكل البشر.

كما ان رسالة النبي ﷺ موجهة الى كل الناس، كما في الآية ﴿وما أرسلناك الا كافة للناس﴾. فهذا النداء موجه لعامة الناس ولا يخص المؤمنين فقط. فلم يقل ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا﴾ ولم يقل «يا أهل الكتاب اذكروا» بل قال ﴿يا أيها الناس اذكروا﴾ اي اذكروا نعمة الحق. ولم يقل اعلموا أن هذه نعم الله بل يقول تذكروا أن ما لديكم هو من نعم الله. يقول القرآن لمن لا يصدق بالله والقيامة تذكّر أن هذه النعم من الله.

هناك نماذج في سورة الأنعام وسورة الكهف عن التذكرة، أشرنا إليها في البحوث السابقة. وقد قلنا في البحث السابق أن التذكرة على نوعين. التذكرة اللفظية كالموجودة في سورة فاطر. والتذكرة العملية كأن يضع الله الانسان موضع الضيق والمصيبة ليتذكر الحقيقة.

جاء في سورة الأنعام أن الله جعل البعض في ضيق ليتذكروه. ولكن

(١) سورة فاطر، الآية (٣).

لأنهم لم يتذكروا ما كان يجب ان يتذكروه فقد مهّد الله الأرضية لعذابهم عن طريق فتحه لمختلف أبواب الرفاه عليهم ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء ﴾ (١) .

ان الفطرة الداخلية للانسان تكون بسبب الغفلة والذنوب محجوبة الى درجة أنها تدفن تحت كل الميول والأهواء . وحين يدفن الشيء لا يمكنه أن يتفتح ويزهر يقول القرآن أن ميول الروح الآدمية باتجاه الله . وقد خسر من دفن روحه بين الآمال والأهواء ﴿ وقد خاب من دساها ﴾ (٢) أي الذي دفن نفسه الباحثة عن الله . ان الدس عبارة عن أن يزيح الانسان التراب ويدفن فيه شيئاً ثم يهيل التراب عليه . فالمدسوس هو المدفون تحت التراب .

﴿ وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم * يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ﴾ (٣) فالدس هنا هو حفر التراب ودفن الوليدة فيه ثم إهالة التراب عليها .

يقول القرآن أن الذي يدفن نفسه وسط الآمال قد خسر رأس ماله . اذا دفن أحد نفسه الباحثة عن الله وهي رأس ماله الوحيد ما بين الآمال ، فلن تزهر هذه النفس مهما انهالت أمطار الرحمة ، لأنها مدفونة تحت أكوام التراب بحيث لا يمكن للماء أن يصلها أبداً . اذا دفن الانسان قلبه داخل الأماني والأهواء فلا توجد حادثة تستطيع تذكرته .

لهذا يقول القرآن الكريم عن الكافرين ومجبي عالم الطبيعة ﴿ استحوذ

(١) سورة الأنعام، الآية (٤٤) .

(٢) سورة الشمس، الآية (١٠) .

(٣) سورة النحل، الآيتين (٥٨ و ٥٩) .

عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله ﴿^(١) أي أن الشيطان بسوقه العنيف والمؤلم والصعب جعلهم تحت سلطانه كالحيوانات وسرق منهم ذكر الله وهي رصيدهم الوحيد من أجل السعادة. فكل سعي وجهد الشيطان هو أن يسرق من الانسان ميله لله ويحثه عنه .

﴿أولئك حزب الشيطان ألا ان حزب الشيطان هم الخاسرون﴾ ^(٢) تعبير القرآن هو أن الشيطان قد سلب من هؤلاء ذكر الله فنسوه. فكلمة ﴿الذكر﴾ تدل على أنه كانت للناس ميول الى الله فيما سبق. وكلمة «نسيان» تدل على أنهم كانوا ذاكرين لله فيما مضى، فكلا الكلمتين دليل على فطرية الدين ويحاول الشيطان أن ينزع ذكر الله كما يحاول الأنبياء أن يزهو ذكره. السمة الرسمية للنبي هي التذكرة ﴿إنما أنت مذكر﴾ والهدف الأساس للشيطان الانساء ﴿استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله﴾ جاء الأنبياء لتفعيل رؤوس الأموال، لتتاجر البشرية تجارة نافعة في هذا العالم ﴿يرجون تجارة لن تبور﴾ ^(٣) وعمل الشيطان هو أن يخسر الانسان رأس ماله ﴿فما ربحت تجارتهم﴾ ^(٤) مهمة الشيطان سرقة رؤوس الأموال ومهمة الوحي والرسالة استثمارها والانتفاع بها. لذلك قال الله ﴿هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم﴾ ^(٥) والذين خسروا رأس مالهم مصداق لـ ﴿وكنتم قوماً بوراً﴾ ^(٦) .

(١) سورة المجادلة، الآية (١٩).

(٢) سورة المجادلة، الآية (١٩).

(٣) سورة فاطر، الآية (٢٩).

(٤) سورة البقرة، الآية (١٦).

(٥) سورة الصف، الآية (١٠).

(٦) سورة الفتح، الآية (١٢).

«البائر» يعني الهالك . فالأرض الفاقدة لمياهها وبذورها والخاسرة لاخضارها وحياتها والمستحيلة الى صحراء قاحلة تسمى «بائرة» . يقول القرآن للانسان الذي خسر رأس ماله ﴿وكنتم قوماً بوراً﴾ انكم باثرون لأنكم خسرتم رؤوس أموالكم . والآخرون دائرون لأنهم مستفيدون من هذه الأموال .

اذن فسعي الشيطان هو أن يسلب الانسان رأس ماله الباحث عن الله . اذا خسر أحد رأس ماله فلن يتذكر حتى نفسه ، لأن رصيده الوحيد هو روحه الطالبة لله . ورأس ماله ذكر الله . ليس مكان ذكر الله في الأيدي والأرجل والعيون والآذان ، بل ان المحل الأصيل لذكر الله هو قلب الانسان . فاذا دفن الانسان قلبه بين الميول والأهواء فلن يذكر الله . لهذا بين الله ثلاثة أمور الى جانب بعضها في سورة المجادلة وسورة الحشر .

الأمر الأول: يقوم الشيطان بالمكائد والدسائس ليسلب الانسان رأس ماله .

الأمر الثاني : لأن رأس المال موجود في روح الانسان ، لذلك يخسره الكافرون وأصحاب الدنيا نتيجة للوساوس الشيطانية ، وبما أنهم خسروا مركز رصيدهم فقد سلبوا ذكر الله بالاضافة الى نسيانهم حقيقة أنفسهم وهي الروح الالهية ، فلو كان للانسان رصيد من المال دفنه في مكان مجهول فلن يبلغه ثانية من أجل أن ينتفع به يقول القرآن أن أصحاب الدنيا نسوا الله فعاقبهم الله نتيجة لكفرانهم النعمة بأن أنساهم أنفسهم . يقول عز من قائل في سورة المجادلة ﴿استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله﴾ ويقول في سورة الحشر ﴿نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾ عليه فأولاً استيلاء الشيطان وثانياً نسيان

الله وثالثاً نسيان الذات والرضوخ لولاية الشيطان .

ذكرنا في البحوث السابقة أن المؤمن هو حارس حرم الفؤاد ومن لا يسمح للشيطان بارتداء لباس الأحرام والدخول الى حرم القلب بشباب الصديق ، يقول الله سبحانه وتعالى ﴿ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾^(١) إذا أرادت الشيطنة أن تطوف بلباس أحد المحرمين لترصد الوقت الذي يفتح فيه باب كعبة الفؤاد حتى تنفذ الى داخلها، فان صاحب القلب سيطلع على هذه الدسيسة ويتذكر فوراً ويرجم هذه الشيطنة بذكر الله . وكما قال الشاعر: «صرت حارساً لحرم الفؤاد كل ليلة لكي لا أفكر بسواه (الله) في هذا المنزل» .

إن الانسان المتقي هو الذي يحترس ليل نهار ويحذر من أن ينفذ الشيطان الى كعبة قلبه في اليقظة أو النوم . وهو من تكون باب كعبة فؤاده موصدة بوجه الأعداء دائماً . أما الانسان غير المتقي فلا يحرس كعبة قلبه لهذا يستطيع الشيطان النفوذ اليها .

يقول مولى الموحدين الامام أمير المؤمنين عليه السلام أن الشيطان يبيض في صدور المفسدين «فباض في صدورهم»^(٢) وعندها ستحتل فراخ الشيطان أرض قلوبهم وتملؤها الوسوس والخواطر والطموحات والغرائز والدوافع الباطلة . وبهذا يقعون تحت الولاية التامة للشيطان (أعاذنا الله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا) .

اذا دخل الشيطان الى كعبة القلب فأول ما يقوم به هو دفن الرصيد

(١) سورة الأعراف، الآية (٢٠١) .

(٢) نهج البلاغة، الخطبة (٧) .

الالهى ﴿استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله﴾ إذن فقد دفن باطن الانسان الباحث عن الله، ولأن ذكر الله معجون بروح الانسان فإذا دفن ذكر الله دفنت الروح الانسانية . للروح

لذلك قال ﴿نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾ أي أن نسيان النفس متفرع عن نسيان الله، لذلك جاءت العبارة بحرف «الفاء» الدال على التفرع أي أنهم نسوا الله فأنساهم الله أنفسهم، لهذا فهم لا يفكرون بأنفسهم أبداً بل يفكرون فقط في أن يستخرجوا من مصادر الأرض زخارف يعمرون بها الأرض ويغادرونها بأيادي خالية وليس لهم سوى هذا . جون

ليس ذكر الله خاطرة عارضة على باطن الانسان، بحيث اذا زال ذكر الله بقيت الحقيقة الانسانية . فذكر الله يختلف عن ذكر الأشياء الأخرى التي قد نساها بدون أن ننسى أنفسنا . بل لأن ذكر الله نافذ الى داخلنا وهو عين ذاتنا ممتزج بروحنا فاذا نسينا الله فقد نسينا أنفسنا وليس ذكر الله كالمسائل العلمية التي لا تتجاوز حدود الخاطرة المتمركزة في احدى زوايا الذهن . وانما ذكر الله بمنزلة المقوم للروح الانسانية الذي إن نسي نسي القلب أيضاً . اذا دفن ذكر الله وسط الرغبات فقد دفنت نفس الانسان .

اذا دفن الانسان ميله الى الله فقد دفن نفسه الانسانية . من هنا قال الله ﴿وقد خاب من دساها﴾ يا لسوء حال من نسي نفسه . ان كان الله قد قال في سورة المجادلة أن مهمة الشيطان هي انتزاع ذكر الله من النفوس فقد قال في سورة الحشر ان نسيان الله هو نسيان للحقيقة الانسانية ﴿نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾ .

ان عبارة ﴿نسوا الله فأنساهم﴾ الواردة في سورة الحشر توضح عبارة

﴿نسوا الله فنسيهم﴾ الواردة في سورة التوبة . فقد قال الله في هذه السورة عن الكفار والمنافقين ﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون﴾^(١) .

أي أنهم أناس يأمرون بالقبح والاساءة وينهون عن الاحسان ويقبضون أيديهم عن خدمة خلق الله وعن الاحسان الى المجتمع وعن أن يضعوها في يد رسول الله ﷺ ويبايعونه ﴿ويقبضون أيديهم﴾ انهم الآخذون من المجتمع ولا نفع يجتنى منهم أبداً . لا يعطون شيئاً للمجتمع البشري ، بل ما انفكوا يأخذون من المجتمع البشري . عملهم القبض وليس البسط . وديدهم الأخذ وليس العطاء ، الانتفاع وليس النفع ، التطفل على المجتمع لا خدمة المجتمع ، انهم يقبضون أيديهم في العقائد والأخلاق والسلوك . يقول القرآن عن هذه الفئة ﴿نسوا الله﴾ ان هؤلاء لم يكونوا ذوي سابقة ايمانية أو من أهل الكتاب لنقول أنهم كانوا مؤمنين ولأنهم الآن متمردون فقد نسوا ، بل إنهم لم يتقبلوا الاسلام منذ البداية لكنهم خلقوا على الفطرة الموحدة . لذلك قيل عنهم أنهم نسوا الله . ثم يوضح الله عقوبة نسيانه وهي أنه ينساهم بدوره . وبالطبع فقد أقيم البرهان القاطع بواسطة العقل والوحي على أن الله ﴿بكل شيء عليم﴾^(٢) ﴿وما كان ربك نسياً﴾^(٣) و ﴿لا يضل ربي ولا ينسى﴾^(٤) فالنسيان محال على الله .

إذا كان منطق العقل والوحي يقتضي أن النسيان من صفات الله السلبية

(١) سورة التوبة ، الآية (٦٧) .

(٢) سورة الشورى ، الآية (١٢) .

(٣) سورة مريم ، الآية (٦٤) .

(٤) سورة طه ، الآية (٥٢) .

لأن النسيان مستحيل على العلم المحض، فلا يمتنع النسيان على الله وحسب بل ان النسيان بالنسبة له بمنزلة اجتماع النقيضين لأنه عز وجل عين الذكر وعين الشهود وعين الشهود لا يجتمع مع النسيان، اذن كيف يقال أنهم نسوا الله فنساهم الله؟.

والجواب هو أولاً أن الآية ترمي الى مقام الفعل لا مقام الذات وثانياً ان نسيان الله الوارد في سورة الحشر يشرح معنى أن الله ينساهم، فالله ينساهم بمعنى انه أنساهم أنفسهم ولا يفكرون بها.

ان هذا «النسيان» الوارد في سورة التوبة يعود الى «الانساء» الوارد في سورة الحشر. فلأنهم نسوا الله فقد نسوا أنفسهم ولم يعودوا يستحقون حلول اللطف الالهي بهم وبهذا فقد سقطوا من دائرة اللطف والرحمة الالهية. ومن هنا ينادي عليهم يوم القيام ﴿كذلك اليوم تنسى﴾^(١) انك اليوم منسيّ وخارج عن حدود العناية واللطف الالهي.

هذه مسائل تقع في طول بعضها. لأن الله قد أخذ منهم أنفسهم فلن يقوموا بعمل يستحق اللطف الالهي، بل أنهم قد سقطوا من عين اللطف والرحمة الالهية. ان ينسى الانسان تعني ان لا يشملها اللطف الالهي وان يحرم من هذا اللطف، لأنهم قد نسوا أنفسهم، لماذا نسوا أنفسهم؟ لأنهم قد نسوا الله.

مما يدل على ان الذي يفكر بنفسه هو المفكر بالله لأن ذكر الله ممتزج بطبيعة الانسان.

ان معنى فطرية ذكر الله هو ان ذكره مكنون في قوام روح الانسان فذكر

(١) سورة طه، الآية (١٢٦).

الله وذكر النفس شيء واحد . ونسيان الله ونسيان النفس شيء واحد أيضاً .

لو أردنا أن نضرب مثلاً من أجل تقريب المعنى للأذهان لافتراضنا صندوقاً مصنوعاً من الجواهر ندفنه في مكان مجهول . ففي هذه الحالة يعتبر نسيان الجواهر عين نسيان ذلك الصندوق ، ولا يعدّ الجواهر بمنزلة المظروف والصندوق بمنزلة الظرف . ليس ذكر الله في القلوب كالجواهر في الصندوق وإنما هو كالصندوق المصنوع من الجواهر . ليس ذكر الله بمثابة شيء مؤقت في القلب ، بل إن قلب الإنسان مصنوع على ذكر الله ذكر له ليس شيئاً مستعاراً للقلب وذكر الله ليس وصفاً عرضياً يطراً على الفؤاد ليكون من الممكن أن ينسى الإنسان هذا الوصف ويبقى ذاكرةً لقلبه .

ولئن كانت هذه الأمور منفصلة عن بعضها لفظاً ومفهوماً ، لكنها من حيث المصداق واحدة . فالقلب ذكر لله ، لا أن القلب يذكر الله . لأن القلب آية إلهية من المستحيل أن ينسى الشخص ذكر الله ويبقى ذاكرةً لنفسه . لذلك قال عز وجل ﴿نسوا الله أنساهم أنفسهم﴾ .

إذا أضاع امرؤ الجواهر فمعنى ذلك أنه أضاع الصندوق . ولو كان ذكر الله صفة عرضية لما كان الدين أمراً فطرياً . بل لكان كباقي العلوم أمراً مكتسباً وحصولياً يذكر تارة وينسى تارة أخرى . إذ بهذا يصير من العلوم المدرسية . أما إذا كان الصندوق قد صنع من الجواهر فإنه يصير بهذا من الفطرة أي لو نسي الجواهر لنسي الصندوق ذاته .

على هذا الأساس حين نقرأ في سورة التوبة ﴿نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون﴾ فأولاً : صفة النسيان هنا من صفات أفعال الله لا من صفات ذاته وثانياً : النسيان عبارة عن أن الله ينسي الإنسان نفسه .

وإذا نسي انسان انسانيته فانه يكون في مستوى الحياة الحيوانية وربما في مستوى أخط من هذا أي في مستوى الحياة النباتية . لهذا يقول الكافرون الذين نسوا أنفسهم للأنبياء بكل صراحة ﴿سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين﴾^(١) أي اننا - والكلام للكافرين - قد أضعنا القدرة على سماع وفهم وقبول الحق، فلن يكون لمواعظكم أي تأثير علينا .

وقد قال الله سبحانه عنهم ﴿سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾^(٢) فهؤلاء ضائعون وليست أبدانهم هي الضائعة ولا حيوانيتهم أو نباتيتهم هي الضائعة ولا طعامهم أو نومهم . وإنما انسانيتهم هي الضائعة فقط .

إذن حين يقول سبحانه في سورة يس ﴿ألم أعهد اليكم يا بني آدم﴾ مشيراً إلى أخذ الميثاق . أو حين يتحدث عن اللجوء الى الله في حالة إحساس الخطر ﴿فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله﴾^(٣) فإن جميع هذه الآيات خاضعة للأصول الكلية التي أشرنا إليها فيما سبق . والمهم أن نلتفت الى أن طريق الفطرة يختلف عن طريق العلم الحسولي والكسبي .

ان بحث معرفة الله الفطرية ليست كاقامة الأدلة في الذهن التي قد نتذكرها حيناً ونساها حيناً آخر . لأن هذه الحالة ليست من الفطرة في شيء بل هي طريق التعليم . إن الهدف المهم للأنبياء ، فضلاً عن أنهم معلمو الانسانية ، هو تذكرة البشر بأن صندوق الروح خلق من جوهر ذكر الله ، فاحذروا أن تضيعوا هذا الصندوق وأن تفقدوا هذه الجواهر النفيسة . انك

(١) سورة الشعراء، الآية (١٣٦) .

(٢) سورة البقرة، الآية (٦) .

(٣) سورة العنكبوت، الآية (٦٥) .

(ايها الانسان) عين ذلك الجوهر فحافظ عليه لانه صنع على ذكر الله .

إن هذا الاتحاد الخارجي لا يعود الى اتحاد المفهوم أو اتحاد الماهية . بل إن معيار هذا الاتحاد هو وجود النفس الناطقة ويعود الى حقيقة الانسان . ان الانسان خلق بذكر الله . ولهذا ورد في روايات المعصومين عليهم السلام أن قلوب الشيعة خلقت من نفس الطينة التي خلق منها المعصومون . أي أن الحد الأعلى لعرش الشيعة هو بساط المعصومين وبساط المعصومين عرش الشيعة . ففي السلسلة الطولية سيصل السقف التكاملي لكل مقيد الى المستوى المطلق .

إن مستوى صاحب الولاية العامة هو السقف التكاملي لشيئته . وعلى كل حال فالطين الذي خلق منه المعصومون هو الطين الذي خلقت منه قلوبنا . ان هذا الفؤاد مخلوق على الولاية الالهية . لا أنهم علموا الفؤاد شيئاً ما .

ان القول المأثور عن الامام علي عليه السلام والذي يتعجب فيه الامام من الناس لأنهم يبحثون عن كل ما يضيع منهم الا روحهم اذا ضاعت منهم . جاء هذا القول ليبين ان الانسان اذا أضاع نفسه فلن يشعر بذلك ولهذا لن يبحث عن نفسه . اذا ضاع صندوق الذكر الالهي المرصع فلن يبقى للانسان غير الحيوانية والحيوانية لا تسمح للانسان ان يفتش عن رصيده الضائع . من أجل هذا يتعجب الامام علي عليه السلام من الناس اذ يبحثون عما يضيعون لكنهم لا يبحثون عن أنفسهم التي ضيعوها .

لهذا فكل سعي الأنبياء منصب على تذكير الانسان بذكر الله وهو أصل كل ذكر . انهم يذكرون البشر لكي لا ينسوا جوهرهم التوحيدي .

انهم وبسبب نسيانهم المحض لله قد نسوا أنفسهم بشكل كامل ولا يصحون أبداً. لهذا لا تستطيع أي حادثة تقع لهم أن تحركهم. وفي يوم الخطر بدل أن يتذكروا الله يلعنون الدهر. وبدل أن ينتبهوا يزداد ضجيجهم وغوغاؤهم. لكن الذين لم يستحوذ عليهم نسيانهم ولم ينفذ الى أعماق روحهم فما أن يركبوا السفينة ويحسوا بالخطر حتى يتذكروا الله.

يقول الله في سورة العنكبوت ﴿فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين﴾ أي أنهم بمجرد تعرضهم للخطر وقبل أن يفرقوا دعوا الله باخلاص. إن البحث حول الغارقين وكيفية لجوئهم يمكن ان يطرح بصورة مستقلة.

اذن فهم أناس لم تنطفئ شمع فطرتهم تماماً وتذكرهم الله تذكر خال من الشوائب لأن الله يقول ﴿مخلصين له الدين﴾ فالقرآن الكريم يضمن صحة ونزاهة تضرعهم ودعائهم. فعلاوة على قوله أنهم يدعون الله قال أن دعاءهم مقترن بالاخلاص. أي أنهم مخلصون في ذلك الموضع سواء كانوا يعرفون اسم الله المبارك أو كانوا لا يعرفون. لأنهم سيتشبثون عند الاحساس بالخطر بالوجود المحض الذي تكون قدرته عين ذاته اللامتناهية وتكون كل الوجودات منه وفي متناول قدرته. ولو طار الانسان من على الكرة الأرضية وسافر الى القمر أو الكرات السماوية الأخرى لذكر الله أيضاً في حالة الاحساس بالخطر اذ ﴿وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله﴾^(١).

لو سافر مجموعة من البشر في آن واحد الى أماكن مختلفة فصعد بعضهم الى أوج السماء ونزل آخرون الى قعر البحار وذهب جماعة الى

(١) سورة الزخرف، الآية (٨٤).

المرتفعات الجبلية الشاهقة وسافر بعضهم الى المناطق الخطرة الأخرى لاستعان جميعهم بذلك المبدأ اللامتناهي . مع إن طرقهم مختلفة وأفكارهم مشتتة وأديانهم متباينة . إذ أن الاختلافات الظاهرية لا تستطيع أن تؤثر في الفطرة المتحدة والمنسجمة . لأن أصالة الفطرة تحكم كل اللغات والنظريات والعقائد المكتسبة ، ولحظات الخطر تغسل كل أنواع الأصباغ العارضة وتمسح كل أشكال الغبار الفكري لتصبح مرآة الفؤاد شفاة وضمير الروح صافياً فينعكس فيها نور مصدر الوجود .

وبهذا اللحاظ فكل ظواهر الامتحان هي بدورها من عوامل التذكرة والتذكير لكن الانسان الغافل لا يتذكر الله الا في مواقع الخطر . مع ان لجميع الحوادث نصيب في التذكير .

لهذا يقول الله في سورة المؤمنون أننا حين نمد البشر بالخيرات ينسون الله ولكن حين نضعهم موضع الضيق والمعنة يرتفع ضجيجهم تدريجياً ﴿حتى اذا أخذنا مترفيهم بالعذاب﴾^(١) المترفون والمنعمون لا يذكرون ولي نعمتهم في حال النعمة ليكونوا شاكرين بينما تراهم في حال العذاب يضحجون فوراً لهذا يقال لهم ﴿لا تجأروا اليوم انكم منا لا تنصرون﴾^(٢) أي لا تنادوا وتضجوا لأنكم غير جديرين بالغوث . ومثل هذه الانتقامات الالهية لا تخص الآخرة ، لأن الذي لا ينتفع لعدة مرات من التذكرة لم يعد من مستحقي النصرة .

والنتيجة هي ؛ أن الحوادث طيبة كانت أو مرة تعتبر تذكرة والانسان الواعي يأخذ من كل ظاهرة أثرها الجيد والانسان الفاسد لا يتذكر الا في

(١) سورة المؤمنون ، الآية (٦٤) .

(٢) سورة المؤمنون ، الآية (٦٥) .

الحوادث الأليمة وان لم ينتقل من المخالفة الى الموافقة ومن المعصية الى الطاعة رغم تكرار التذكرة عليه عدة مرات فانه في حالة الخطر اللاحقة لن يستحق النصره من الله وميل الروح الأدمية انما هو نحو الوجود المحض الذي لا يستطيع شيء في العالم أن يقف بوجه غوثه ونصرته . وهذا الميل الفطري مشترك بين جميع الناس في جميع العصور والمدن . وأهم سمات الأنبياء الالهيين هي احياء الفطرة وتذكرة الأرواح .

أملني من الله تعالى أن ينور قلوبنا جميعاً بنور القرآن الكريم ببركة محمد وآل محمد عليهم السلام وأن يوفقنا جميعاً لأداء فرائضنا ويرحم معلمي ومؤلفي العلوم الإلهية، ويمنحهم الأجر والرحمة .
غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

الدرس الثالث

الفطرة من وجهة نظر القرآن

اعوذ بالله من الشيطان الرجيم . بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله وصلى الله على جميع الأنبياء والمرسلين والأئمة الهداة المهديين سيما خاتم الأنبياء وخاتم الأوصياء عليهما آلاف التحية والثناء .

كان كلامنا عن أن النزوع الى الله سبحانه أمر فطري . وعن أن الاعتقاد بالله تعالى ينبع من داخل الانسان ، فلإنسان نزوع نحوه عز وجل . وليس من الدارج أن تطرح مثل هذه البحوث في الكتب العقلية لا الفلسفية ولا الكلامية .

من أجل اثبات المبدأ المتعال ينظم المتكلمون قياساً بجعلهم تغير العالم حدأً وسطاً . ويثبتون حدوثه ويقولون أن : العالم متغير وكل متغير حادث ، اذن العالم حادث . وبعد ذلك يصنعون قياساً بجعلهم حدوث العالم حدأً وسطاً ويثبتون حاجته الى مبدأ (مصدر) قديم ثابت فيقولون : العالم حادث وكل حادث بحاجة الى محدث ، اذن العالم بحاجة الى محدث .

واما الحكماء فغالباً ما يثبتون المبدأ الواجب بجعلهم إمكان العالم حدّاً وسطاً ويقولون: العالم ممكن وكل ممكن بحاجة الى واجب، اذن فالعالم بحاجة الى واجب. وكذلك بتناولهم البحوث الطبيعية المعنونة بحركة الظواهر المادية أو معرفة النفس والتي تعتبر من المسائل الطبيعية فيقولون أن في العالم حركة والحركة تحتاج الى محرك ومن أجل عدم الوقوع في محاذير الدور والتسلسل يجب الانتهاء الى محرك منزّه عن الحركة. أو عن طريق معرفة النفس التي برؤية خاصة تعتبر بدورها من قضايا العلم الطبيعي فيعرف الانسان نفسه عن طريق «عرفت الله بفسخ العزائم ونقض الهمم وحل العقود»^(١) وباقي التقريرات والتقرّيات الواردة حول معرفة النفس. هذه هي سبل اثبات واجب الوجود عز وجل في الكتب العقلية سواء كانت كلامية أو فلسفية.

لا يرد في الغالب كلام عن الفطرة عند اثبات الواجب (واجب الوجود) في الكتب العقلية. أما القرآن فلأنه كتاب نور وهداية وليس كتاباً عقلياً محضاً فان أسلوبه يختلف عن أسلوب أهل الكلام وعن أسلوب الحكماء. بل هو يمتلك جميع مزايا هذين النمطين بالاضافة الى مزية تخص القرآن الكريم نفسه.

يستدل القرآن تارة عن طريق الفقر أي أن الفقير بحاجة الى الغني وتارة عن طريق حركة الموجودات المتحركة وأخرى عن طريق الحدوث وحيناً عن طريق التغيّر وحيناً عن طريق النفس وما شاكل. وكل ذلك من أجل اثبات مبدأ عالم الوجود، كما يثبت احياناً وجود تلك الذات الأزلية (الله) عن طريق

(١) نهج البلاغة لصبحي الصالح، الحكمة ٢٥٠.

الفطرة .

وتقريب ذلك ان النزوع الى الله موجود في سريرة كل انسان والانسان يطلب الله ويبحث عنه بفطرته . وقد جاء هذا المعنى على عدة أشكال في القرآن الكريم كلها تعود الى أصل مشترك واحد . ولا بد من كلام جامع من أجل احياء كل هذه التقريبات ، يثبت القرآن الكريم فطرية الأصول العامة للدين احياناً من طريق أن رسول الله ﷺ مذكّر للناس فهو يقوم بتذكيرهم بالمعارف الالهية .

التقريب الذي مر بنا في البحث السابق كانت خلاصته أن رسالة رسول الله ﷺ شاملة وعامة ﴿وما أرسلناك الا كافة للناس﴾^(١) اذن فحيثما ظهرت البشرية سطع شعاع رسالة خاتم الأنبياء . سواء كانت هذه البشرية مؤمنة أو غير مؤمنة وسواء كانت من أهل الكتاب أو من الملحدين الماديين .

اذن فالانسانية واقعة ضمن منطقة نفوذ رسالة الوحي ومن جانب آخر يعرف الله سبحانه الرسول الأكرم ﷺ بصفته مذكراً ﴿إنما أنت مذكر﴾^(٢) لو كانت هذه التذكرة خاصة بالمؤمنين أو بأهل الكتاب لأمكن القول أن ارشادات النبي الكريم ﷺ هي ذكرى لهم لأنهم يمتلكون سابق معرفة بالأسس العقائدية .

ولكن بما ان تذكرة الرسول تقع على حدود رسالته ﷺ وحدود رسالته تشمل كل الانسانية بكافريها وملحديها ومؤمنياها ، فسيتضح أن

(١) سورة سبأ، الآية (٢٨) .

(٢) سورة الغاشية، الآية (٢١) .

للجميع سابق معرفة بالأصول العامة للدين وقد نزل الوحي لاحياء هذه المعارف الكامنة، والرسول الأكرم يحيي هذه الأمور المكنونة بصفته مذكراً.

تنقسم آيات القرآن الكريم في هذا الخصوص الى عدة مجاميع .

المجموعة الأولى: هي الآيات التي جاءت فيها كلمات من قبيل التذكرة والذكرى والمذكر وغير ذلك . فهذه المجموعة تدل على أن الاعتقاد بالله والنزوع اليه موجود في باطن البشر، وليست تعاليم الرسول الأكرم ﷺ تعاليم ابتدائية وغير مدعومة بسابقة . بل ان لها صبغة التذكير .

المجموعة الثانية: هي الآيات التي ورد فيها عنوان النسيان، اي أن الملحدين والمشركين قد نسوا الله . والمستفاد من هذه المجموعة الثانية أيضاً هو أن معرفة الله ذات سابقة فطرية لكن الكفار قد نسوها بسبب تلوثهم بالطبيعة .

المجموعة الثالثة: هي الآيات التي تدل على أن البشرية قد أعطت ميثاقاً على الاعتقاد بالله وعلى ان لا تعبد غيره ولا تعبد الشيطان ﴿ألم أعهد اليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان﴾^(١) فهذا العهد والميثاق قد أخذ من جميع البشر مما يدل على أن لكل انسان سابقة نزوع الى الحق تكمن في داخله والا لم يكن من المناسب أخذ العهد وعقد الميثاق .

المجموعة الرابعة: هي الآيات التي تشير الى أن الانسان اذا ما ركب السفينة دعا الله باخلاص ﴿فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له

(١) سورة يس، الآية (٦٠).

الدين﴾^(١) وفي هذا دليل على أن الاعتقاد بالله مخلوق ضمن فطرتهم
وبعجزهم عن العلل المادية تراح ستارة الغفلة ويرى الانسان معبوده الفطري
ويطلب العون منه .

المجموعة الخامسة : هي تلك الآيات التي تقول ان الانسان لا يتذكر
الله في الرحلات البحرية فحسب، بل انه متى ما تعرض الى الخطر وانقطعت
عنه الأسباب والعلل الظاهرية، فانه في تلك الحالة ينزع الى الله وينسى هذه
العلل والأسباب الظاهرية . وثمة آيات أخرى تدل على هذا الأمر سنتناولها
لاحقاً بمشيئة الله سبحانه .

كل هذا يثبت أن النزوع الى الله مخزون في جبلة الانسان، اذن فالميل
الى الله وفضلاً عن أن كل انسان يشاهده في بعض الحالات، يمكن استنتاجه
من الآيات القرآنية المتعددة .

لكن النقطة الأساسية هي ما الذي يثبت أن كل ما موجود في دخيلة
الانسان لا بد ان يكون موجوداً في الخارج؟ فبعد التسليم بالقضية الأولى
وهي أن الميل نحو الله والايمان بالذات الالهية المقدسة موجود في سريرة
كل انسان، تطرح القضية الثانية وهي ما هو الدليل على ان كل ما هو فطري
بالنسبة للانسان لا بد أن يكون موجوداً خارج روحه؟ .

اذا لم تثبت القضية الثانية كأصل كلي وقضية كلية، لكان الاستدلال
بالفطرة ناقصاً، والقضية الثانية لا تثبت بمجرد استبعاد ان من الممكن وجود
العطش في الشجرة في حين لا يوجد ماء في العالم . لأنه من المحتمل أن
تحصل الحاجة من أحد الأطراف ولا يوجد ما يسدها في الطرف الآخر، ولا

(١) سورة العنكبوت، الآية (٦٥).

يكفي مجرد مشاهدة بعض النماذج التي تكون فيها الحاجة في أحد الأطراف مستجابة بما يسدها في طرف آخر. فمن الممكن أن تكون ثمة نماذج أخرى على غير هذا النظام. الا اذا حللنا هذه القضية بصفتها مقدمة حدسية.

وذلك بتقرير أننا نشاهد في الكثير من حالات عالم الطبيعة ان الحاجات الموجودة في بعض الأطراف لها ما يسدها في أطراف أخرى. فمثلاً كل النباتات تحتاج الماء والماء موجود في العالم. كل الفواكه تحتاج الحرارة لكي تطهى والحرارة موجودة في العالم. كل المعادن تحتاج الى أشعة خاصة لتتكون وثمره في العالم أشعة لتكوين المعادن. اذن فكل حاجة لها ما يليها واذا كان الانسان يحمل في داخله وطينته الميل نحو الله سبحانه ويحمل الحاجة الى الكمال المطلق والوجود المحض، اذن فهناك وجود محض في العالم. وعليه فهذه القضية تحتاج الى مقدمة حدسية قد لا يتقبلها الخصم. واذا أراد شخص أن يحل هذه المعضلة عن طريق الاستقراء فانه لن يصل الى نتيجة يقينية لأن الاستقراء هنا لن يكون كاملاً ولا هو في حدود التجربة.

والخلاصة هي أن اثبات القضية الثانية اما أن يستند على الاستقراء التام أو يعتمد على التجربة. وإما أن يتقبله الجميع أو الخصم على الأقل كمقدمة حدسية.

واذا لم تكن القضية الثانية وهي الركن الأساسي للقياس قابلة للاثبات فان الاستدلال بالفطرة سيكون ناقصاً. لأننا لا نتزع من الآيات القرآنية اكثر من أن النزوع نحو الله والبحث عنه أمر فطري. نعم، اذا تأمل الانسان في داخله وشاهد حالاته المختلفة أثناء الحوادث السارة والمؤلمة لاطمئن بذلك (تيقن بوجود الله) ولكن إثبات هذا المعنى للآخرين بواسطة الفكر يبقى أمراً

صعباً. من أجل هذا لا يطرح دليل الفطرة في العلوم العقلية كسائر الأدلة من قبيل الحدوث والامكان والحركة. نعم، يمكن تناول قضية الفطرة بعد اثبات المبدأ المتعال واثبات حكمته وان الله سبحانه حكيم ولا يعمل الا بالحكمة والعناية. كما ان الحكماء قد استفادوا من هذه الطريقة في العلوم العقلية التي تتناول بحث المعاد. وقالوا انه قد ارتكز وعبىء في داخل الانسان بأنه موجود أبدي لا يموت أبداً. الكل يكره الموت ويطلب الحياة الخالدة. في باطن كل إنسان توجد وتختزن الحاجة الى الحياة الأبدية. والله تعالى بصفته منظم كل هذه الأمور قد وضع هذا المعنى في باطن الانسان. ولو لم يكن ثمّ عالم أبدي وحياة خالدة لكان خلق الفطرة التي تطلب الخلود والعالم الخالد لغوا ولأن الله حكيم وهذه الحالة من صنع الله والله الحكيم منزه عن فعل العيب على هذا الأساس لا بد من عالم خالد لا موت فيه، وهذا هو المعاد.

استدل على اثبات المعاد بهذه الطريقة في الكتب العقلية بشكل مفصل. وكان أسلوب البحث هو أن يضعوا الحكمة الالهية كحد وسط وبذلك يثبتوا أن وجود الميل الى الحياة اللامتناهية في دخيلة كل انسان علامة على وجود الحياة الخالدة المصانة من الموت. ولأن هذه الحياة لا تتيسر في عالم الطبيعة اذن هي في عالم ما بعد الدنيا. واجتياز هذا الطريق ليس صعباً بعد اثبات المبدأ الحكيم، أما قبل هذا الاثبات فان البرهنة على وجود شيء بواسطة الحاجة الفطرية ليس أمراً سهلاً. أي أن مجرد وجود الميل الى الكمال المطلق في باطن الانسان لا يبدو كافياً.

يعد هذا السؤال مشتركاً بين كل هذه الآيات. ان كل تلك المجاميع من الآيات التي تقول ان الوحي تذكرة وان الميل الى الحق المطلق موجود في باطن البشر أو التي تقول أن الكافرين نسوا الميل الى الحق تعالى أو القائلة

أن الانسان تعهد أن لا يعبد غير الله أو القائلة أنه متى ما ركب الانسان السفن وأحس بالخطر دعا الله مخلصاً له الدين وليس ذلك في الرحلات البحرية فقط بل ان الانسان يدعو الله كلما انقطعت به الأسباب والأنساب، كل هذه الآيات يجب أن تتم بالقضية الثانية والا بقي مكان للسؤال القائل مع ان النزوع الى الكمال المطلق موجود في باطن الانسان ولكن ما الدليل على وجود هذا الكمال المطلق؟ .

لو كان مضمون الآيات السالفة أن كل انسان يعتقد بالله في دخيلته لما بقي ثمَّ محذور، لأنه يكون عندها كل انسان معتقداً بالله . ولكن حين يكون مضمون تلك الآيات أن لكل انسان في جبلته نزوع الى الحق تعالى . فكيف نعلم أن الله موجود في العالم؟ ان مجرد وجود الحاجة في هذا الطرف لا يدل على وجود ما يسدها في الخارج؟ .

ولكن اذا درست نفس تلك الآيات جيداً لأعطت بنفسها جواباً مشتركاً على ذلك السؤال المشترك . اذن ما يجب أن نستنبطه حالياً من الآيات هو انه كما أن الميل نحو الكمال المطلق موجود في جبلّة الانسان فان الكمال المطلق موجود خارج نفوس البشر أيضاً . والقضية المهمة في هذا البرهان هي اثبات هذه الكبرى الكلية والمقدمة الثانية للقياس . إذن يجب اثبات هذه القضية المهمة .

كانت المجموعة الأولى هي آيات التذكر، والثانية آيات النسيان، والثالثة آيات العهد كآية ﴿ألم أعهد اليكم يا بني آدم﴾، وكانت المجموعة الرابعة هي الآيات القائلة ان الانسان اذا سافر في البحر وركب السفينة وتعرض للخطر دعا الله باخلاص وهذا يشبه البشر حين يسافرون جواً أو يجتازون المعابر الصعبة أحياناً ويتوسلون بالله تعالى .

جاء في آخرسورة العنكبوت ﴿فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين
اله الدين فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون﴾^(١) فهؤلاء المنكرون للربوبية
عندما يصيرون في السفينة وتنقطع عنهم الأسباب والعلل الظاهرية وكذلك
الوهمية والجعلية يرون القدرة الصورية قد انقطعت عنهم شيئاً فشيئاً عندها
يدعون الله مخلصين لانهم يمتلكون نزوعاً صوريا نحوهُ فحسب دون ان
يمتلكوا في أعماق روحهم الالتجاء والطلب الى الله بل هم يطلبون الله ﴿دعوا
الله مخلصين له الدين﴾ .

وهذا يدل على أن أصل الاعتقاد بالله وكذلك الخضوع ازاء ربوبية رب
العالمين الذي يتجلى على شكل الدين، من الأمور الفطرية عند الانسان .
وليس مجرد الاعتقاد بالله بل ان الأساس العام للدين أمر فطري كما جاء ذلك
في سورة الروم ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس
عليها﴾^(٢) بمعنى أن الخطوط العامة والأصول الأولية للدين مختزنة في
باطن كل انسان واذا شاهد الانسان نفسه في معرض الخطر توسل بالمبدأ
المنزه من كل أنواع العيب والنقص .

سأل شخص الامام السادس عليه السلام عن الدليل على وجود الله . فسأله
الامام هل ركبت السفينة وانكسرت بكم؟ وحين لم يكن هنالك منجٍ وسباح
ينقذك فلا كان باستطاعتك العوم ولا بادر الآخرون لنجدتك، بمن توسلت
في تلك الحال؟ فأجاب الرجل انني توسلت بمن تفوق قدرته القدرات
وبامكانه أن يكون منجياً في حال انقطاع الأسباب والأنساب فقال
الامام عليه السلام «ذلك هو الله» .

(١) سورة العنكبوت، الآية (٦٥) .

(٢) سورة الروم، الآية (٣٠) .

وردت هذه الرواية في الموسوعات الروائية، فجاءت في احتجاج
المرحوم الطبرسي وكذلك في محجة الفيض (رض) وباقي الكتب أيضاً
وأصلها من كتاب معاني الأخبار^(١) للمرحوم الصدوق (رض).

وثمة حادثة أخرى جاءت في تفسير أبي الفتوح الرازي وهي أن
الامام عليه السلام أمر أن يرمى ذلك الرجل السائل عن الدليل على وجود الله في
الماء . وبعد فترة أمر بنجاته وبعد ان أخرجه من الماء واستقر به الحال
للحظات قال للامام انني عرفت الله فسأله الامام عن كيفية ذلك فقال؛ انني
حين رميت في الماء ظننت أنهم سيأخذون بيدي أو انني بالعموم سأنجو أو أن
قطعة من الخشب أو عللاً وعوامل أخرى تستطيع انقاذي . لكن حين قصرت
يدي عن كل القدرات وانقطعت عني كل الأسباب والأنساب، توسلت
بالمبدأ الذي لا تقهر قدرته وهو الله .

وعلى كل حال فقد درست هذه القضية بتعابير مختلفة فتارة يكون ذلك
بعنوان ان الانسان حين تعرضه للخطر أو احساسه به يدعو الله مخلصاً له
الدين كما جاء في سورة العنكبوت وتارة يستشهد بالحالة التي ذكرناها سابقاً
كالتي جاءت في كتاب معاني الأخبار وتارة تقدّم الحالة العملية لها من أجل
أن يتحقق الواقع العملي خارج الذهن .

لأن الانسان يتوصل الى الله أحياناً بمشاهدة آيات الآفاق وأحياناً
يكشف الله بمشاهدة مرآة الفؤاد وآيات الأنفس، أحياناً يحلل الانسان الفطرة
بدراسة القضايا الكلية . وأحياناً تنفطر وتزدهر فطرته وهي التي تنوره
وتطمئنه .

(١) معاني الأخبار .

كان هذا ايضاح مقتضب حول المجموعة الرابعة من الآيات الدالة على فطرية الدين .

أما المجموعة الخامسة من الآيات فهي الدالة على ان الانسان متى ما تعرض للخطر سواء في الرحلات البحرية أو باقي المخاطر وانقطعت به العلل الصورية والظاهرية، توصل الى مبدأ العلل كلها. ان الانسان وفي الحالة العادية يقتنع ويرضى بما يراه في مرآة العلل والأسباب المادية . ولكن حين تنكسر المرآة سيرى أن مصدر كل الأمور يقع خارج المرآة لا داخلها .

الانسان في الحالة العادية أسير مشاهدة المظاهر فهو ناس لله عز وجل ولكن في حالة الخطر سيرتفع الشرك الذي هو الحجاب الداخلي للانسان .

من الضروري التحقيق بدقة في هل أن النظرة التوحيدية هي الأساس وأن الشرك يظهر نتيجة الغفلة ام أن التوحيد هو الذي يظهر نتيجة الخوف والمسكنة وليست له جذور فطرية أبداً .

يعتقد البعض ان الشرك بمعناه الواسع هو الأصل والتوحيد فرع له ، لكن نظر القرآن والعقل والوحي هو أن التوحيد يمثل الأصل والشرك أمر عارض . يقول القرآن أن البشر ينسى الله في الحالة العادية ولكنه أثناء الخطر ينسى الأصنام وكل أنواع العلل والأسباب .

الذين رأوا بأن الشرك هو الأصل توهموا أن الاعتقاد بالله من صنع الخوف عند الناس . فالناس الضعفاء أو البسطاء في حالة الخوف يعتقدون بالله . أي أنهم يخلقون الله بسبب فزعهم من الكوارث . فاذا سافروا في البحر مثلاً أو أحسوا بالخطر صنعوا لأنفسهم وبدافع الخوف مبدأ وهمياً اسمه الله ، فالله صنيعه وهم البشر وليس نتيجة اكتشافاتهم، بل انهم يلجأون الى الله

بسبب الخوف، اذن فليس لله وجود خارجي والعياذ بالله .

من الضروري التحقيق انه أي من المبدئين هو الصحيح؟ .

يبين القرآن الكريم هذا البحث بشكل جيد . فيقول في سورة المؤمنون، انكم (أي البشر) تفزعون الى الله في كل الأخطار ﴿بل قلوبهم في غمرة من هذا ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون * حتى اذا أخذنا مترفيهم بالعذاب اذا هم يجأرون﴾^(١) أي أننا اذا أخذنا المترفين والمنعمين بالعذاب علت صيحاتهم، صيحات الاستغاثة لا الاعتراض، بل هي أصوات الأنين والاستغاثة والتوجع .

يقول في الآية التي تليها ﴿لا تجأروا اليوم انكم منا لا تنصرون﴾^(٢) ماذا يريد الانسان حين يصرخ أيام الخطر؟ وهو ما دام مقتدرأ فإنه يلجأ الى سلسلة من العلل التكوينية التي يمتلكها بشكل مباشر ويعتمد على سلسلة من العلل الاعتبارية كالصدافة والشفاعة وغير ذلك والخلاصة انه يحل مشاكله بواسطة القدرات التكوينية والقوى الاعتبارية ومتى ما انقطعت هاتان القوتان ارتفع الضجيج والأنين في داخله .

من الجدير بالالتفات هو هل أن تضرع واستغاثة الانسان أثناء الخطر تأتي مع اليأس والجزع أم أنها تأتي مع الأمل؟ هل ان الانسان يائس في تلك الحالة أم انه راج وذو أمل؟ هل هو في تلك الحالة مجرد متمن أم أمل؟ .

يجب ان لا نغفل أن هذه الحالة لو كانت حالة امنية فقط لما ضج الانسان أبداً، لأن التمني المحض لا يؤدي الى الأنين . ففي حالة التمني

(١) سورة المؤمنون، الآيتين (٦٣ - ٦٤) .

(٢) سورة المؤمنون، الآية (٦٥) .

يعلم الانسان أن ما يتمناه غير موجود ويكتفي بحدود «يا ليت كان ذلك أو حدث ذلك» ولا يصدر منه صياح وأنين واستغاثة أبداً. أما الانسان الآمل فانه يئن ويستغيث ويصرخ واذال لم يستطع الكلام فان ميله القلبي يعدّ بمثابة صراخه. ان الانسان الذي يتمنى شيئاً ويعلم علم اليقين ان ما يتمناه غير موجود سيقع فريسة اليأس والاحباط والكآبة وانما يعلو الصوت بالأنين والصراخ والاستغاثة من الانسان الغارق في قاع البحر أو المصاب بالحريق أو المعرّض للسقوط من شاهق وما شاكل حيث ينادي بالنجدة من أعماق قلبه. وهذا هو الأنين والجأر التابع من الأمل لا من التمني. اذ تمني الانسان يحبط باليأس وليس فيه استغاثة.

يعبّر القرآن الكريم أن الانسان يجأر ويئن ويستغيث عند الخطر. ويطلب النجدة والمنقذ. ممن؟ من مسبب الأسباب. فجميع الأسباب قد انقطعت ولم يبقَ إلا سبب واحد لا يقبل الانقطاع. كل العلاقات متقطعة. ثمة علاقة واحدة لا تقبل الانفصام لا تزال باقية. وهي السبب الذي لا ينكسر أي الارتباط بالسبب بالذات وهو الله عز وجل، لذلك يقول الله ﴿لا تجأروا اليوم انكم منا لا تنصرون﴾.

ويقول في سورة النحل ﴿وله ما في السماوات والأرض وله الدين واصباً أفغير الله تتقون﴾^(١) اي أن كل نظام الخلقه ملك ومُلك لله فالله مالکها تكوينياً ومَلِكُها تكوينياً. وكل النعم من الله ﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾^(٢) لكن الانسان لا يرى هذه الحقيقة في الحالة الاعتيادية ويتصور أن ما لديه جاء بسبب علمه هو.

(١) سورة النحل، الآية (٥٢).

(٢) سورة النحل، الآية (٥٣).

يقول الانسان في الحالة الاعتيادية أن هذه النعم جاءت بجهودي وعلمي وتفكيره هنا نفس تفكير قارون حيث يقول ﴿إنما أوتيته على علم عندي﴾^(١) أو اذا توفر علم للعالم قال انني تعلمت هذه العلوم بجهودي . أو اذا توفر مال لثري قال انني حصلت على هذا المال بسعيي .

مثل هذه الأفكار لا تناسب الرؤية التوحيدية والتوحيد الربوبي . فمنطق القرآن الكريم أن جميع النعم وكل التوفيقات تأتي من جانب الله سبحانه ﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾ سواء في ذلك النعم الظاهرية، أو النعم الباطنية: ﴿وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة﴾^(٢) .

والخلاصة هي أن خطاب القرآن للمشركين هو أنكم في الحالة العادية ترون العلل والأسباب الظاهرية والصورية ﴿ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون﴾^(٣) وإذا أصابكم ضرر ولم تتمكنوا أن ترفعه بالعلل والأسباب الظاهرية ارتفعت أصواتكم بالأنين الى الله سبحانه الذي هو الكمال المطلق .

اذا مَرِضَ الانسان واستطاع أن يعالج نفسه بواسطة الطبيب فلن يرتفع أنيه نحو الله . واذا تعرض للخطر واستطاع بما لديه من الأسباب والأنساب أن يرفع هذا الخطر فلن يظهر نزوعه نحو الله . لكنه ان أصيب بضرٍ وتقطعت به كل الأسباب الظاهرية والعقود الاجتماعية سيعلم الانسان حينها أن هناك مبدءاً مطلقاً أزلياً خالداً وسيميل الى ذلك السبب بالذات لأنه سبب لا يقبل الانقطاع .

(١) سورة القصص، الآية (٧٨) .

(٢) سورة لقمان، الآية (٢٠) .

(٣) سورة النحل، الآية (٥٣) .

﴿وما بكم من نعمة فمن الله ثم اذا مسكم الضر فإليه تجأرون﴾ أي أن ضجيجكم سيعلو الى الله في هذه الحالة ﴿ثم اذا كشف الضر عنكم اذا فريق منكم بربهم يشركون﴾^(١) وحين يحل الله مشكلاتكم بواسطة إحدى العلل والأسباب الظاهرية، فانكم لن ترون سوى تلك العلة الظاهرية وتنسون مسبب الأسباب مرة أخرى.

أشير الى هذا النسيان في سورة الأنعام بقوله تعالى ﴿قل أرأيتم أن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون﴾^(٢).

هل تراكم تتوسلون بالعلل والأسباب الظاهرية اذا تقطعت؟ ﴿بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون اليه ان شاء وتنسون ما تشركون﴾^(٣).

ان ديدنكم هو أن تنسوا ما تشركون عند حلول الخطر وان تنسوا الله في حالة الأمان وبالنتيجة فانكم ستنسون أنفسكم ﴿نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾^(٤).

ان مصدر كل نسيان هو التعلق بالدنيا والانشغال بها، لذلك يقول القرآن عن أهل الدنيا ﴿ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بوراً﴾^(٥). أي أن الله منحهم وأقرباءهم الملذات الدنيوية لكنهم نسوا ذكر الله فكانوا قوماً بوراً وهالكين كما بحثنا ذلك سابقاً.

يتجلى من هذه الآية الكريمة بالاضافة الى المجموعة الثانية من الآيات

(١) سورة النحل، الآية (٥٤).

(٢) سورة الأنعام، الآية (٤٠).

(٣) سورة الأنعام، الآية (٤١).

(٤) سورة الحشر، الآية (١٩).

(٥) سورة الفرقان، الآية (١٨).

الدالة على أن الانسان العادي ينسى الله في حالة الرفاه وينسى الشرك والوثنية في حالة الخطر، يتجلى أيهما هو الأصل، الشرك أم التوحيد؟ هل التوحيد هو الأصل أم الشرك؟ أم أن الأصالة ليست لأي منهما؟ وهل الاعتقاد بالله من صناعة الوهم البشري بحيث أن الانسان الخائف هو الذي يلجأ الى الله، أم أن الانسان الخائف الذي نجا من شر المخوفات هو الذي يلجأ الى المبدأ الذي هو سبب بالذات؟ .

ان إثبات هذه القضية يحتاج الى تقريب الدليل . ويستطيع هذا التقريب أن ينير السبيل الى ذلك الأصل الكلي . والأصل الكلي الذي يجب اثباته هو؛ بالرغم من أن كل تلك الآيات تدل على أن الميل الى الكمال المطلق مودع في باطن كل انسان، ولكن هل يوجد خارج دخيلة الانسان شيء يقابل هذا الميل الى الكمال المطلق أم لا؟ هذا ما يحتاج الى تحقيق مستقل يجب أن نبينه .

أما القضية التي طرحناها توّاً فهي هل أن الأصالة للتوحيد والشرك حالة طارئة أم أن الأصالة للشرك والتوحيد حالة طارئة؟ لأن النسيان قد ورد في الحالتين فقد نزل بحق المرفهين انهم ينسون الله في حالة الرفاه كما ينسون الشرك في حالة الخطر .

يجب القول؛ أن نسيان التوحيد كان بسبب أن التوحيد هو الأصل والشرك شيء معار . فان طبيعة القضية تقتضي أن يرى المشركون نفس هذه الظواهر في الحالة الاعتيادية ﴿يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا﴾^(١) فهم يرون العلل والأسباب التكوينية الظاهرية وكذلك الأنساب الاعتبارية .

(١) سورة الروم، الآية (٧).

والخلاصة أنهم إما ينظرون الى السبب الصوري ويقولون ﴿انما أوتيته على علم عندي﴾ وإما يعتمدون على العشيرة والقوم والعنصر وهذه العلل والأسباب الصورية الاعتبارية جعلتهم من الغافلين لأنهم يرون السبب الظاهري أو العلة الفاعلية القريبة أو السبب المادي الخاص، ويغفلون عن المسبب بذاته الذي يجب أن لا يفكروا بسواه.

إنهم كالطفل الذي يرى أشكالا معينة في المرآة ويحسبها موجودة بشكل مستقل ويتعلق بها وما لم تنكسر المرآة فلن يفهم أن لا صورة في المرآة بل هي خارج المرآة ولم تكن المرآة سوى عاكسة لها. فما لم ينقطع ارتباط الانسان بالأسباب الظاهرية فلن يعلم أن المسبب الواقعي هو الله سبحانه وأن ربوبيته المطلقة هي التي تظهر بمظاهر مختلفة، لا الأسباب الصورية والأنساب الاعتبارية.

عندما تنقطع هذه الأسباب عند المخاطر وتنكسر المرايا وتصدأ الوسائل الأخرى وعندما يظهر قول الله سبحانه ﴿وتقطعت بهم الأسباب﴾^(١) و﴿فلا أنساب بينهم﴾^(٢) عند ذلك سيرون الله تعالى بعين الفطرة يعتمدون عليه كسبب بذاته فهم يأملونه وترتفع أصواتهم على أساس هذا الأمل وليس لأنهم يتمنون فقط ليرافق اليأس أمانيتهم.

لو كان حالهم حال التمني الممتزج باليأس لكانوا محبطين ساكتين، ولكن لأنهم آملين تراهم يضحجون ويصرخون وهذا ما أشرنا اليه سابقاً.

لا يوفق الانسان الى مشاهدة الحق الا اذا انقطع عن كل العلل

(١) سورة البقرة، الآية (١٦٦).

(٢) سورة المؤمنون، الآية (١٠١).

والأسباب الصورية حتى عن نفسه، ولأنه لا يرى نفسه فلن يقول ﴿إنما أوتيته على علم عندي﴾ كما انه لن يعتمد على قومه وقبيلته وأهله لأنه لا يراهم. بل هو يرى الله (السبب بالذات) فقط ويعتمد عليه.

أما في الحالة الاعتيادية فلأن كل هذه المرايا براقه وتعكس شكل السبب الحقيقي، يتصور الانسان الغافل انه هو أو الآخرين، أصحاب التأثير. ومن هنا فان الخلق حجاب الحق في الحالات الاعتيادية لكن حين ظهور الواقع فان الحق يكون حجاباً للخلق.

إن الانسان الواصل الى مقام الكمال يعتبر الخلق مرآة كما يرى أن الحق هو المسبب بالذات. فلا الخلق بالنسبة اليه حجاب للحق، ولا الحق حجاب للخلق. أما حين يصل هذا الانسان الكامل الى مقام الفناء في الله، فلن يرى الخلق بل سيرى الحق فقط.

وعلى كل حال فالانسان في الحالات الاعتيادية لا يرى الحق ويرى الخلق والانسان الكامل يرى الحق بصفته المتجلي كما يرى الخلق بصفتهم وسيلة التجلي يقول الامام أمير المؤمنين عليه السلام: «الحمد لله المتجلي لخلقه بخلقه»^(١).

في هذا الحديث السامي يظهر الله بعنوانه المتجلي كما يظهر الخلق بصفتهم المرآة التي تعكس المتجلي. فلا الخلق حجاب للحق لكي يرى الخلق ولا يرى الحق، ولا الحق حجاب للخلق لكي يرى الحق دون ان يرى الخلق اطلاقاً.

أما في مقام الفناء فان الحق سيكون حجاباً للخلق ولكن لا كما يكون

(١) نهج البلاغة، الخطبة (١٠٧).

الخلق حجاباً للحق، لأن الحق حجاب نوري . فبمشاهدة ذلك النور الشديد تختفي كل الموجودات الممكنة . أما الخلق فهو حجاب معتم، فبمشاهدته نحرم من مشاهدة نور الحق . وأسمى من مقام الفناء هو مقام الفناء من الفناء، ففي ذلك المقام المنيع لن يعود ثمة أي حجاب من أي جانب . وهذا المقام بدوره هو مقام البقاء بعد الفناء .

يقول الشبستري عن الرسول الأكرم ﷺ شعراً: «إن مقامه البهيج هو جمع الجمع وجماله الفتان هو شمعة الجمع» .

أي أن الرسول الأكرم ﷺ ليس في وضع يرى الخلق فقط ويعجز عن رؤية الحق لأنه ليس محجوباً . وكذلك فانه غير متوقف على مقام الفناء ليرى الحق فقط ويعجز عن رؤية الخلق، لأنه فان من الفناء وواصل الى مرتبة البقاء بعد الفناء . انه يرى الحق بصفته العلة الذاتية ويرى الخلق بصفته مرآة وواسطة وآية للحق . لهذا فان «مقامه البهيج جمع الجمع» ولأن كل مقام رفيع ينير المقام الأدنى فقد قيل في المصراع الثاني «وجماله الفتان شمعة الجمع» .

أي أن الرسول ﷺ واصل الى مقام البقاء بعد الفناء، مقام الفرق بعد الجمع ومقام جمع الجمع ان هذا المقام أسمى من مقام الفناء ومقام الجمع، وكل مقام أرفع يفيض بالنور على المقام الأدنى منه . لهذا قال «وجماله الفتان شمعة الجمع» أي أن جمال مقام جمع الجمع شمعة تنير مقام الجمع . فرسول الله هو الذي ينير محفل الذين وصلوا الى مقام الفناء ومقام الجمع فقط . أما رسول الله ﷺ والامام علي عليه السلام الذي يعتبر بمنزلة نفس رسول الله ﴿أنفسنا وأنفسكم﴾ فان مقامهم البهيج هو جمع الجمع وجمالهم الفتان شمعة الجمع . ولهذا البيت من الشعر معنى لطيف آخر، لأن

مقام الجمع هو مرتبة الواحدية أما مقام جمع الجمع فهو مرتبة الأحدية وهي مراتب لا كلام عن الخلق في أي منها. وانما الكلام فيها بلحاظ الأوصاف الالهية فقط. ونوكل تفصيلها الى محله.

والخلاصة هي أن الانسان اذا وصل مقام الفناء فلن يرى غير الحق فهو لا يرى الخلق أبداً. وفي حال الخطر عندما تنقطع كل العلل والأسباب فلن يرى نفسه أبداً ولن يقول ﴿إنما أوتيته على علم عندي﴾ كما انه لن يشاهد أياً من العشيرة أو القبيلة والنصير.

أما في الحالة الاعتيادية فكل هذه الأشياء حجب. نفس الانسان حجاب تحجب نفسه، والآخرون أيضاً حجب وموانع له، ولهذا فهو ينسى الله. حينما تزول كل هذه الحجب والستائر وتنكسر كل هذه المرايا، عندها سي شاهد الانسان الحق. وان كان الانسان كاملاً فانه بكسره الارادي للمرايا (كموته الارادي) يستطيع أن يتحرر من قيد حجاب نفسه وباقي الحجب. ليس من الضروري أن تنكسر المرايا بشكل طبيعي، بل هو يرى المرايا مجالي ووسائط يرى الحق متجلياً فيها فيكون منطقته مع كل شيء لا بمقاربة وغير كل شيء لا بمزايلة^(١). لأنه قد وصل الى مقام جمع الجمع.

والنتيجة هي أن الانسان محجوب في الحالة العادية وناس للقضية الأصلية وهي التوحيد. عندما تنكسر هذه المرآة ولا تبقى ثمة مرآة يخدع الانسان بالصورة المنعكسة فيها. يصل الى حيث ﴿وتقطعت بهم الأسباب﴾ و﴿فلا أنساب بينهم﴾ وتزول كل الحجب الداخلية والخارجية عندها سي شاهد الله سبحانه وتجلّى فطرته الباحثة عن الله.

(١) نهج البلاغة، الخطبة الأولى.

كالمريض الذي أعرض عن علاج الأطباء ووجدهم جميعاً عاجزين فهو لا يعتمد على أحد بل يقول فقط ﴿وإذا مرضت فهو يشفين﴾^(١) ويتوكل على المبدأ الذي هو العلم المحض والتقدير المحض ويلجأ الى الإله الذي لا يعجزه شيء ﴿وما أنتم بمعجزين﴾^(٢) ولا يسبق قدرته شيء ﴿وما كانوا سابقين﴾^(٣) ﴿وما نحن بمسبوقين﴾^(٤) .

عليه فالعلل والأسباب الظاهرية حجب في الحالات الاعتيادية والمبدأ الأصيل والسبب بالذات محجوب . أما حين تزول تلك العلل والأسباب ويظهر ذلك السبب بالذات فان الانسان لن يفكر بالأسباب والعلل الظاهرية .

لهذا يقول عز وجل في سورة الأنعام ﴿وتنسون ما تشركون﴾ فتوحيدكم سيظهر ولن تنسوا الأصنام والأجرام المادية ومعابد الأوثان فحسب بل ستنسوا الشرك أساساً وتصيرون موحدين .

وأما ما يتعلق بالأصل الكلي فيجب شرحه جيداً . يستفاد من هذه المجاميع الخمس من الآيات القرآنية المتنوعة والمنسجمة في نفس الوقت أن النزوع الى الله موجود في باطن البشر . وأما وجود الله خارج حدود الروح البشرية التي تميل بفطرتها اليه ، فيجب إثباته عن طريق التلازم الناتج عن التضاييف وما شابه ذلك .

خلاصة برهان الأستاذ العلامة الطباطبائي في الميزان هو؛ ان بعض الصفات هي حقيقة ذات اضافة، كالعلم في العقل النظري والارادة والميول

(١) سورة الشعراء، الآية (٨٠) .

(٢) سورة الأنعام، الآية (١٣٤) .

(٣) سورة العنكبوت، الآية (٣٩) .

(٤) سورة الواقعة، الآية (٦٠) .

والمحبة في العقل العملي . ومعنى الحقيقة ذات الاضافة هو أن المتعلق وطرف الاضافة يجب أن يكون موجوداً فيستحيل تحقق الاضافة من دون تحقق متعلقها، فمثلاً يستحيل توفر حقيقة العلم بدون توفر المعلوم، فان كان ثمة علم لا بد من معلوم . لأنه لا حقيقة للعلم سوى الحكاية والإراءة واذا حصل أي خطأ فهو في التصديق لا في التصور وفي التطبيق لا في أصل تحقق المعلوم . فالتصور لا يجري عليه الخطأ، والخطأ والصواب انما يوجدان في منطقة التصديق لا في حدود التصور . ولهذا فان كان ثمة علم، فلأن حقيقته هي الكشف والإراءة، اذن فلا بد من معلوم . والعلم مما يتعلق بالعقل النظري بينما مجمل بحثنا الحالي حول العقل العملي .

الارادة، التولي، الميول، السعي، الاندفاع، كلها وكلها من شؤون العقل العملي . الانسان يريد ويطلب بعقله العملي، فالارادة والطلب والاستغاثة وما شاكل حقائق ذات اضافة وكل حقيقة ذات اضافة تحتاج الى متعلق . اذن اذا تحققت الارادة والميول فلا بد أن يكون متعلقها موجودا ومن غير الممكن أن يميل الانسان فعلاً الى القدرة المطلقة ويكون له استغاثة ورجاء وأمل بدون أن تكون متعلقات هذه الأمور موجودة .

والرجاء غير التمني المحض والفارغ من الميول ليقال أن «ما كل ما يتمنى المرء يدركه»^(١) ليست هذه أمنية بل هي رجاء . أنها طلب حقيقي ومن الممكن أن يحصل الخطأ في التطبيق في حين لا خطأ أبداً في أصل القضية وكل طلب بالفعل يحتاج الى مطلوب بالفعل . وكل ارادة بالفعل تحتاج الى مراد بالفعل .

(١) ديوان المتنبّي .

يقع الانسان في الحالة العادية صريع الخطأ في التطبيق. فهو يتعلق بالكثير من الأسباب والعلل المادية ولكنه لا يقنع. حين قالوا «منهومان لا يشبعان»^(١) فالسر في هذا هو أن الانسان يطلب الحقيقة المطلقة، مرة على شكل العلم وتارة على شكل المال.

ان تعبير «منهومان لا يشبعان» لا يراد به الذم، فمن الممكن أن يكون طالب العلم ومن باب ﴿رب زدني علماً﴾^(٢) يريد علماً لا متناهٍ لأنه لا يشبع من العلم. إن العلم السلبي هو العلم غير النافع سواء كان كثيراً أو قليلاً ويجب على الانسان أن يقنع في الأمور المالية والأغراض والأهداف النفسية وأن يناجي الله بكرامة ويقول «أعوذ بالله من نفس لا تشبع»^(٣).

ان النفس التي لا تشبع في مطالبيها النفسية هي النفس الأمارة. أما عن العلم فبالرغم من أنه ورد «أعوذ بك من علم لا ينفع»^(٤) الا انه لم يأت «أعوذ بك من قلب لا يشبع من العلم» بل وردت الأوامر بطلب زيادته ﴿وقل رب زدني علماً﴾ إن الانسان لا يشبع من العلم اطلاقاً وهذا أمر ايجابي «كل وعاء يضيّق بما جعل فيه الا وعاء العلم»^(٥) اذن فعدم الشبع من العلم أمر محمود.

والخلاصة هي أن ثمة حقيقة الميول وحقيقة الارادة وحقيقة الطلب وهذه الأمور لا يمكن أن توجد بدون متعلقاتها. اذن فمتعلقها موجود لكن

(١) نهج البلاغة، الحكمة ٤٤٩.

(٢) سورة طه، الآية (١١٤).

(٣) مفاتيح الجنان، دعاء التعقيب على صلاة العصر.

(٤) مفاتيح الجنان، دعاء التعقيب على صلاة العصر.

(٥) نهج البلاغة، الحكمة ١٩٦.

الانسان يقع في الأخطاء أثناء التطبيق . يتصور أن المقام الفلاني والمال الفلاني أو الشيء الفلاني هو الكمال المطلق ولكنه حين يبلغه يجد نفسه لم يشبع ويرى انه يوجد قمة أرفع منه فينالها أيضاً ولكنه لا يشبع أيضاً .

أما في حالة الخطر فانه يطلب تلك الحقيقة المطلقة بشكل مباشر فيعتمد مباشرة على المبدأ الذي يمتلك نظام الوجود في قبضته . ويلجأ مباشرة الى القدرة التي لا تقبل العجز . لأن جميع القدرات والعلل والأسباب الصورية والظاهرية قد انقطعت عنه . واذا أراد شخص أن يتحرر من الهوى والأنانية من خلال الموت الارادي والكسر الاختياري ، وان يكسر المرآة العاكسة فانه يستطيع ان يحيي فطرته الكامنة فقد قال الامام السجاد عليه السلام « وإن الراحل إليك قريب المسافة »^(١) .

وجاء في دعاء المبعث الذي كانت ذكراه المباركة قد مرت بنا هذا الأسبوع « . . . وإنك لا تحتجب عن خلقك الا أن تحجبهم الأعمال دونك وقد علمت أن أفضل زاد الراحل اليك عزم إرادة يختارك بها وقد ناجاك بعزم الارادة قلبي »^(٢) .

إن انجذاب المعصومين عليهم السلام في حالاتهم الاعتيادية انما يكون نحو هذا الكمال المطلق أما الآخرين فما لم يقعوا في الخطر لا يحسوا بذلك الكمال المطلق فهم لا ينزعون اليه إلا عند الخطر .

والخلاصة هي أن الارادة واللجوء من حقائق الذات المضافة ولا يمكن أن تنتقل الى الفعلية بدون وجود المتعلق ، ولأن اللجوء الصادق ينتقل

(١) مفاتيح الجنان، دعاء ابي حمزة الثمالي .

(٢) مفاتيح الجنان، دعاء يوم ٢٧ رجب .

الى الفعل بارتفاع الحجب، اذن فمتعلقه موجود حتماً.

إذا كان هذا البحث بحاجة الى شرح فمن الممكن أن نأت به في البحوث اللاحقة . والنقطة التي يجب أن لا نغفل عنها هي أن تقرير برهان الفطرة من العلم الحصولي . لكن الذي يحصل عليه الانسان في حالة ارتفاع الحجب وازاحة ستائر الغفلة هو العلم الشهودي .

غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

البرهان العام للفطرة على التوحيد الربوبي

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله وصلى الله على جميع الأنبياء والمرسلين والأئمة الهداة المهديين سيما خاتم الأنبياء وخاتم الأوصياء عليهما آلاف التحية والثناء.

إن أفضل حكمة أهداها الرسول الأكرم ﷺ للبشر هو تبيينه للتوحيد الفطري. فقد عرّف الله رسوله بصفة المعلم والمزكي ﴿ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾^(١) وكذلك بصفته الكاشف عن فطرة البشر المكنونة وقال له انك تحيي وتنيّر باطن وسريرة الناس.

إذا عرف الانسان نفسه فمن المستحيل أن لا يقرّ بعبوديته وربوبية الله. ولكن بسبب سلسلة من المشاغل تحتجب عنه هذه الميول الفطرية ويحجب هو عن مشاهدتها.

(١) سورة الجمعة، الآية (٢).

مهمة الوحي والرسول الالهي هي رفع هذه الموانع والمشاكل ،
واخراج تلك الميول الباطنية من حالة الكمون وإراءة باطن الانسان لنفسه
لكيلا يغفل عن مشاهدة حقيقة نفسه . وعند ذلك يقر الانسان بعبوديته
وربوبية رب العالمين ، لأن العبودية والحاجة جزء من الذات الوجودية
للانسان ومن غير الممكن أن يتضح وجود الانسان لشخص ما ولا تتضح له
حاجة هذا الانسان لله سبحانه .

أهم عمل لرسول الله ﷺ هو تبيين فطرة البشر . ومن الضروري
الالتفات إلى أن تبيين الفطرة وتنبه البشر الى باطنهم ، ليس استدلالاً
وتعليلاً . ولهذا لا يوجد هناك برهان باسم الاستدلال عن طريق الفطرة في
كتب الكلام والفلسفة . فالمفكرين الالهيين سواء كانوا حكماء أو متكلمين
يثبتون مبدأ الوجود أما عن طريق حدوث العالم أو عن طريق امكان العالم أو
عن طريق الحركة أو عن طريق معرفة النفس والتي لا تخلو بدورها من
الحركة الباطنية ولهذا فهي تقع محلا للبحث في قسم الطبيعيات من
الفلسفة .

كما ذكرنا في البحث السابق ، فانهم بواسطة الفطرة يثبتون قضية
المعاد فقط . ولا يأتي ذلك البحث من حيث النظم الصناعي والطبيعي الآ
بعد اثبات المبدأ الحكيم أي متى ما ثبت أن الله موجود وثبت أنه حكيم وأن
كل الموجودات الحية وغير الحية من مخلوقات الله . عند ذلك يثبت أن الله
الحكيم الذي وضع جميع الأمور على أساس من الحكمة قد وضع الميل نحو
العالم الأبدي في باطن البشر . إذن يتضح أن ثمة عالم خالد تشاق اليه كل
الناس ولا يمكن أن تكون الدنيا هي هذا العالم الخالد ، اذن فما بعد الدنيا هو
المعاد .

من هنا يستدلون في الكتب العقلية على ضرورة المعاد بواسطة الميل الى الخلود والحياة الخالدة والعالم الخالد. فلانسان نزوع نحو العالم الأبدى والحياة التي لا تموت. والحياة التي لا تموت هي حياة القيامة. وهذا النزوع من وضع الله عز وجل لأنه صانع كل ما في عالم الوجود.

وليس من الدارج في الكتب العقلية سواء كانت فلسفية أو كلامية أن يستدل على توحيد الله من خلال الفطرة. لأنها تفتقر الى المقدمات الفكرية والعقلية. فمن الممكن أن لا يتقبل البعض قولنا أن كل ما كان في باطن البشر لا بد أن يوجد خارج حدود أنفسهم اذ هذه القضية مجرد مقدمة حدسية ولكن يمكن حلها عن طريق تبين وإحياء المرتكز لا عن طريق التعليل. ولأنها لا تحتاج الى مقدمات عقلية فيستطيع الكل أن يهضمها سواء كان المطالب بهضمها متعلماً أم أمياً، حكيماً أم غير حكيم.

وذلك لأن كل انسان يتجه أثناء الخطر وانقطاع العلل والأسباب المادية الى مبدأ تكون قدرته غير محدودة كسائر كمالاته الذاتية وهذا طريق باطني يوجد مع خلقة وطبيعة كل انسان لن يأتي يوم يكون فيه الانسان يائساً محضاً، بل ان الأمل موجود في جبلّة الانسان حتى في أشد وأصعب الظروف.

فالانسان المعرض للأخطار في عمق البحر ﴿ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت﴾^(١) أو المعرض للأخطار من كل صوب في الرحلات البحرية أو نتيجة خلل في سفينة فضائية، بحيث لا يجد له ملجأ تراه لا يفقد أمله أبداً بل يأمل دائماً سنداً معلوماً. ولا يصيبه اليأس المحض بل هو يحمل

(١) سورة ابراهيم، الآية (١٧).

الأمل في كل لحظة ولا ينتظر الموت أبداً.

لا يمكن سلب الأمل من نفوس الناس ولأن الرجاء والمحبة وما شابه موجودة في دخيلة كل انسان ومتعلقها هو الوجود اللامتناهي، فبقطع الأمل من الجميع وفصم العلاقة والمحبة مع الجميع وأبعاد كل تعلق بكل وجود محدود، سيزهر ذلك الأمل وتلك الارادة للمطلق فنستنتج اذن أن فوق كل العلل والأسباب الصورية يوجد سبب بالذات ومطلق وذلك لأن الأوصاف المذكورة، حقائق ذات اضافة ويستحيل تحقق ذات الاضافة بدون المتعلق المضاف، إذن فمتعلقها أو موضوعها وهو الذات الالهية لا بد أن يكون موجوداً.

إن هذا النزوع نحو الكمال المحض وطلب القدرة الصرفة لا يختص بحال المسكنة والاحساس بالخطر. بل انه موجود في كل الأحوال، لكنه يظهر في تلك الحال وغالباً ما يخطيء البشر العاديون في تطبيق هذا المتعلق في مجال العلم الحسولي وإلا فان الانسان لا يخطأ في مقام تعلق المحبة والرجاء والإرادة وما شاكل بتلك الحقيقة التي تكون متعلقاً لطلبه وميله. لأن هذا الميل هو وجود خارجي ولا يمكن افتراض الخطأ فيه، بل ان افتراض الخطأ لا يصدق الا على العلم الحسولي وفي مقام تطبيق ما يجده الانسان (ما يحسه بوجدانه) مع ما هو موجود في الخارج.

إن العلاقة بين الارادة والمراد علاقة ضرورية ولا محل للخطأ فيها. ولكن الانسان قد يطبق خطأ المراد الحقيقي على غير المراد وذلك في حيز التصديق والعلم الحسولي. فمثلاً ميل الانسان الظامىء الى الماء ميل ضروري لا يقبل الخطأ. غير انه قد يتوهم أرضاً مفتوحة تكون سراباً بأنها ماء وهو خاطيء في هذا. وليس الخطأ في أن الظامىء يريد الماء.

يتشبث الانسان الغارق في أعماق البحر بمبدأ قاهر يستطيع أن يبطل مفعول البحر القهار . واذا حصل أحياناً أن عقد الغريق بعض أمله على فرق النجدة، فقد وقع في خطأ تطبيق الموجود المنقذ وهو المتعلق الحقيقي لارادته، على فرق الانقاذ. انه يطلب موجوداً مسيطراً على البحر موجوداً يمتلك كل أسباب وعلل عالم الخلقة ولا يستطيع شيء أن يقف بوجهه موجوداً يعلم بحاجته ويعلم في أي منطقة من البحر هو ويدري بمكانه وزمان نجاته ولا يستطيع شيء أن يمانع نجده .

إذا لم تعلم فرق الانقاذ مكان الغريق من البحر لكي تنقذه فانها ستكون معذورة، فهي إما كانت تجهل مكان الغريق أو الزمان الذي يستوجب انقاذه لهذا فان الأمل الحقيقي للغريق لن ينصب على الجاهلين أو العاجزين، بل ان ارادته وميله تتجه نحو الوجود المحض والكمال الصرف كما مر بنا .

ولأن الانسان الملحد غافل عن حقيقة نفسه وناس لها . فانه لا يعلم من هو متعلق (موضوع) ميله ومن هو مطلوبه الحقيقي . ولو أن سريرته فتحت وزالت عنه كل الحجب وكل أنواع الغفلة لاتضح أن محبوبه الحقيقي هو الوجود المحض والعليم الصرف والتقدير الخالص . وهذه صفات الله سبحانه .

وان كان قد اعتمد على غير الله لحد الآن، فان ذلك من باب الخطأ في التطبيق أي أنه أخطأ في مقام العلم الحسولي . والا فان الخطأ لا سبيل له الى الشهود الفطري . ولا يمكن للعلاقة العينية بين الارادة والمراد أن تقبل الخطأ . وكذلك العلاقة بين المحبة والمحبوب . وهكذا العلاقة بين الميل الباطني المسمى بالرجاء وموضوع الرجاء . ولكن حين تترجم هذه الميول

من العلم الحضورى الى العلم الحصىلى؁ فقد تقع بعض الأخطاء فى أسلوب الافصاح .

فمثلاً الانسان الجائع يتجه الى ما يرفع جوعه وتوجهه هذا مصون من الخطأ . لكن اذا ظن أحياناً أن شيئاً ما هو الخبز وجرى خلفه فانه قد أخطأ فى مقام العلم الحصىلى والتطبيق لا فى ذلك الميل الغريزى . فهل من الممكن أن يكون الانسان جائعاً بالفعل ومحبباً لما يرفع عنه جوعه؁ ويكون ميله الباطنى هذا ميلاً كاذباً؟ .

إن المحبة حقيقة ذات اضافة واذا انتقلت الى حيز الفعل فهى بحاجة الى المحبوب بالفعل . والارادة حقيقة ذات اضافة؁ فاذا كانت موجودة بالفعل فهى بحاجة الى مراد بالفعل والرجاء حقيقة ذات اضافة فاذا انتقل الى حيز الفعل؁ فلا بد من توفر المرجو بالفعل . والانسان المنقطع عن العلل الصورية يتجه بمحبته الى القدير المطلق . لا الى القدير المؤقت؁ والى العليم المطلق لا الى العليم المؤقت؁ والى مسبب الأسباب لا الى الأسباب الجزئية .

إن مثل هذه الميول العينية مصونة من الخطأ والاشتباه؁ ولكن من الممكن أن يقع الخطأ فى العلم الحصىلى أحياناً أو فى تطبيق الشهود العينى على الموجود الخارجى .

ومعيار هذا المطلب هو ان الرجاء غير ممكن بدون المرجو والمحبة غير ممكنة بدون المحبوب والارادة غير ممكنة بدون المراد؁ وهذا ينطبق على كل القضايا المشابهة للقضايا المذكورة . والمعيار هو أن الحقيقة ذات الاضافة غير ممكنة الوجود بدون متعلقها (ما تتعلق به) .

بمعنى أنه لو أراد شخص ما شيئاً بالفعل، فلا بد ان يكون هذا المراد الجزئي موجوداً ولا سبيل للخطأ في هذا الحكم غير أن الخطأ يحصل أحياناً في تطبيقه .

إذن فتحقق الارادة مستحيل بغير تحقق المراد سواء كان هذا المراد أمراً جزئياً أو أمراً مطلقاً لا متناهيأً. والمقصود بالمطلق هو الاطلاق الوجودي وليس الاطلاق الذهني . فلا بد أن يكون ذلك المطلق السعي موجوداً ولا خطأ في أساس الارادة مطلقاً. وعليه فاجتياز هذا الطريق سهل على الجميع، المتعلم منهم والأمي، أي لو سقط المتعلم الدارس في قبضة البحر لقال أنني نسيت كل ما قرأته ولم يعد يتذكر علومه الحصولية ومسائله العلمية، بل سيتجه في تلك الحالة بكل وجوده الى القدير المطلق . ان الذي يركب السفينة الفضائية، اذا عطلت سفينته في الفضاء المفتوح وسقط هنالك سينسى كل ما كان قد قرأه ويتساوى عندها مع أي شخص أمني .

وكذلك الانسان العالم الذي يثس من علاج الأطباء لمرضه العضال فانه سينسى كل ما قرأه طوال عمره . والمراد هو أن اجتياز طريق الفطرة سهل على الجميع، لأن الدارسين فيه يتساوون مع غير الدارسين .

ومن الطبيعي أن تكون للعلوم المدرسية والعلوم الحصولية نصيب وافر في ازدهار العلم الفطري، لكن طي طريق الفطرة مفتوح بالنسبة للجميع . ان نافذة الأمل هذه مفتوحة للجميع، لأن الجميع مأمورون بالاعتراف بعبوديتهم وربوبية رب العالمين، وقد خلق الله الجميع بهذه الصورة .

وفقاً لما جاء في البحوث السابقة فان الرسول الأكرم ﷺ رسول

لكل البشر ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس﴾^(١) ولا بد لكل الناس من مذهب مشترك مقبول، وهذا المذهب هو مذهب الفؤاد. فمن الممكن أن لا يكون مذهب الفكر مشتركاً بين الجميع. بمعنى أن من الممكن أن يكون شخص مفكراً وذا قدرة على تحليل البراهين العقلية القيمة، في حين لا يكون شخص آخر على هذه الشاكلة ويكون مستضعفاً من حيث البرهان الفكري. لكن لا يوجد مستضعف بالنسبة لطريق الفؤاد.

من الجائز أن لا يكون بمقدور أحد الأشخاص التحليل العقلي والفلسفي في مجال المسائل العقلية. فلا يستطيع ترتيب الأدلة والأقيسة على ضوء الحدوث والامكان والحركة وما شاكل، لأن طي هذه السبل يحتاج الى سنين متمادية من الدرس والبحث بالاضافة الى الاستعداد والقابلية الفكرية، اما طريق الفطرة وهو طريق القلب فانه ميسور للجميع ﴿سواء العاكف فيه والباد﴾^(٢) فلا فرق في هذا الطريق بين الراكب والراجل وبين المتعلم والامي.

مهمة الوحي هي ازدهار طريق القلب ورفع الأشواك عن طريق الفؤاد وليست مهمته صناعة هذا الطريق بل مجرد إراءة الطريق المصنوع والمعدّ سلفاً. من هنا فلا يوجد مستضعف في اجتياز طريق الفؤاد، سواء ذلك القروي الأمي أو ذلك العالم البارز، كلاهما متساويان في طريق الفؤاد، فهذا ينادي الله في حال الخطر، وذاك ينادي الله في حال الخطر، من الجائز أن يخطيء الأمي في تطبيق الشهود القلبي على الموجود الخارجي، ولكنه لا يخطيء في أصل تعلق الارادة بالقدير المطلق. فلا خطأ في العلم الشهودي.

(١) سورة سبأ، الآية (٢٨).

(٢) سورة الحج، الآية (٢٥).

الخطأ في العلم الحسولي والتطبيق فقط . من الممكن أن يخطئ الانسان حين يريد أن يلهج بما توصل اليه قلبه فيقول انني طلبت فرقة الانقاذ عندما كنت في حالة الغرق أو انني طلبت من يمدني بالوقود في ذلك الفضاء المفتوح . فهذا الخطأ ينحصر في مقام التطبيق كالانسان العاطش الذي يركض وراء السراب فان خطأه ليس في ارادة الماء بل ان خطأه في تطبيق الماء على السراب لا في طلب الظامىء ما يرفع به عطشه .

إذا حسب الجائع أن قطعة من الورق هي قطعة من الخبز وجرى وراءها فقد أخطأ في التطبيق لا في أن له ميل معين اتجاه ما يسد جوعه .

والخلاصة هي أن الحقيقة ذات الاضافة المرتبطة ارتباطاً خارجياً بمتعلق الاضافة لا يمكن أن تحصل بدون هذا المتعلق، وهذا الارتباط مصون من الخطأ والاشتباه . نعم، لو أراد الانسان أن يترجم هذا الأمر الى ألفاظ أو أراد ادراكه على شكل مفاهيم وعلم حصولي فمن الممكن أن يقع في بعض الأخطاء ولهذا فان أفضل طريق هو طريق الفطرة فهو ميسور للجميع ومصون من الخطأ .

من هنا فقد أعطاه الله أهمية وافرة وبعث رسوله الكريم ﷺ كمذكر لكل البشر . واعتبر القرآن تذكرة وقال عنه انه ﴿ذكرى للبشر﴾^(١) وهو مع الانسان في كل الحالات .

إن هذا الطريق موجود في المكتبة حيث تحلّ المسائل العلمية وموجود في المستشفى اذ تغلق كل سبل التفكير العلمي بسبب شدة المرض . وموجود كذلك في الرحلات البحرية والرحلات الفضائية، في السراء وفي

(١) سورة المدثر، الآية (٣١) .

الضراء، فهو الطريق المرتبط ارتباطاً عميقاً بباطن الانسان ولا يتركه أبداً.

لكن اجتياز هذا الطريق في حالة الضراء والاحساس بالخطر يكون أسهل لهذا يطرح القرآن الكريم حالة الخطر بشكل مفصل ويقول انكم تلجأون الى الله في حال الخطر. ففي هذه الحال يعتمد الانسان على المبدأ الذي يستطيع أن يبطل مفعول كل العلل والأسباب ولا يعتمد أبداً على العامل الذي يكون بنفسه عرضة للزوال بل يتعلق فقط بالمبدأ الذي لا تحتل فيه الاصابة بالخطر.

يقول الله عز وجل ﴿له ما في السماوات والأرض﴾^(١) إذن فنظام التكوين ملك لله وملك له واذا كان نظام التكوين لله فلا بد أن يكون نظام التشريع لله أيضاً ﴿وله الدين واصباً﴾^(٢) والسرفي هذا هو أن الله خالق العالم والانسان والعلاقة بينهما، لذلك فان مقنن الانسان هو مقنن العالم فالانسان جزء من عالم الخلق الواسع، وكل ما له نصيب من الوجود سواء كان انساناً أو عالماً أو العلاقة بينهما فانه تابع لارادة الله وقوانينه تابعة لمشيئة الله سبحانه.

يجب أن تقع مهمة تعليم الانسان وتهذيبه وتركيبته وتكامله على عاتق من خلق الانسان والعالم وخلق العلاقة بين الانسان والعالم وله الاطلاع والعلم الكامل، وذلك هو الله. لهذا كان التكوين والتشريع من اختصاصه، فهو القائل: ﴿له ما في السماوات والأرض﴾ وهذا ما يخص التكوين وقال ﴿وله الدين﴾ وهذا ما يخص التشريع.

(١) سورة البقرة، الآية (١١٦).

(٢) سورة النحل، الآية (٥٢).

كما انه لا توجد في التكوين ذرة واحدة ليست لله ولا دور لذرة واحدة عدا الله في نظام التكوين، كذلك فانه لا نصيب لذرة واحدة غير الله في التشريع، لهذا قال: ﴿وله الدين واصباً﴾.

«الواصب» بمعنى التام. فكل الدين لله. لو كان الانسان بحاجة الى آلاف القوانين، فالمفروض أن ينظم الوحي كل هذه القوانين. وإذا كان بمقدور العقل أن يفهم بعض المسائل، فان العقل سراج الهي، وهو الحجة بين الله وخلقه والله منح الانسان هذا السراج أيضاً من أجل الهداية ومن أجل الاحتجاج كذلك.

يستطيع الله يوم القيامة أن يحتج على الانسان بأني منحتك عقلاً تفرق بواسطته بين العدل والظلم والحسن والقبيح وترجح به فضيلة الأمانة على رذيلة الخيانة. اذن فكما أن التكوين بأجمعه لله، ولا يملك غير الله ذرة واحدة منه ﴿لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض﴾^(١)، فان تنظيم التشريع والتقنين بأجمعه بيد الله سبحانه وحده لا يستطيع شخص أن يضع حكماً من الأحكام التكليفية كالواجب أو المستحب، والمكروه أو الحرام، وكذلك الأحكام الوضعية كالصحة والبطلان. أو أن يزيد وينقص في الأحكام لأن ﴿وله الدين واصباً﴾. الواصب يختلف عن الخالص. يريد الله سبحانه الدين خالصاً منا نحن وعليه هو تنظيم الدين بشكل واصب وتام.

لا يحق لأحد أن يكتب من الدين شيئاً. إذن فكل قرارات وقوانين الدين تأتي بأمر الله سبحانه، كما ان كل نظام الخلقة جاء نتيجة لأوامره التكوينية إن أراد الانسان أن يمثل للأوامر الالهية بصورة صحيحة فعليه أن

(١) سورة سبأ، الآية (٢٢).

يكون مخلصاً أي لا يدخل أهواءه في امتثاله ولا يعمل مصالحه الشخصية في تنفيذ الأوامر الالهية ولا يكدر اداء التكليف الالهية بنزعاته المرائية، والا فلن يقبل الله منه أعماله .

فقد قال الله حول قضية الامثال ﴿ألا الله الدين الخالص﴾^(١) وقال حول قضية التشريع ﴿وله الدين واصباً﴾ وقال حول قضية التكوين ﴿له ما في السماوات والأرض﴾ فغير الله لا يملك شيئاً .

وكما ان ظهور كل شيء ينحصر بالارادة الالهية وتشريع كل قانون يقتصر على الارادة الالهية، فان الامثال لأي أمر وقبول أي عمل لا يكون ممكناً الا في ظل الاخلاص من كل شائبة والابتعاد عن كل زيف، فقد قال عز وجل ﴿ألا الله الدين الخالص﴾ .

إن قضية الاخلاص تخص مقام الامثال . والواصب يخص مقام تنظيم وتشريع القوانين والملك والملك التكويني يخص مقام الخلق وإفاضة الوجود .

وبسبب أهمية قضية الاخلاص وضرورة مراعاتها في مقام الامثال للأوامر، قال الله في سورة الزمر ﴿إنا أنزلنا اليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين﴾^(٢) أي جميع آيات هذا الكتاب مصاحبة للحق فاعبد الله باخلاص تام من كل النواحي .

إن أي هدف يتنافى مع التقرب الى الله يمنع من تحقق الاخلاص اذا قام الانسان بعمل من أجل رضا الله وكذلك من أجل أن يشتهر ويكون مذكوراً في

(١) سورة الزمر، الآية (٣) .

(٢) سورة الزمر، الآية (٢) .

التاريخ فانه غير مخلص . فمع ان الله يحفظ أسماء الرجال الالهيين في التاريخ لأنه قد جاء في القرآن ﴿واجعل لي لسان صدق في الآخرين﴾^(١) وقد وعد الله سبحانه أن يدخل محبة الرجال الالهيين في قلوب الآخرين ليكونوا محبوبي المجتمعات البشرية ﴿ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا﴾^(٢) . ولكن الشاعر يقول: «لا تكن عبداً من أجل الأجور، كما هو حال الشحاذين، فالله يعلم كيف يربّي العبيد» ليكون عملك لله والله هو الذي ينشر اسمك، أذ الأعمال خالصة لله وسيجزيك الله أجر الدارين .

أقسمت زينب الكبرى عليها السلام في الشام بالله أن لن تستطيع يا يزيد محو اسمنا لأننا لم نعمل من أجل الشهرة ، لقد كان عملنا من أجل الله والله سيحفظ اسمنا «فوالله لا تمحو ذكرنا»^(٣) .

إن قام شخص بعمل خيري من أجل أن يسجل اسمه في وسائل الاعلام والجرائد واللوحات والتاريخ، فلكونه قد تحرك في محو الخيال واستسلم لإضلال الشيطان، فسوف يمحي اسمه قبل أن يغادر هذا العالم . لأن كل نظام الوجود ملك لله، لا يملك أحد شيئاً ما وهكذا فان كل قوانين الدين ومقررات الشريعة من تنظيم ووضع الله، ولا دخل لأحد في تدوينها وقد أمر الله عباده بالاخلاص عند الامتثال لأوامره ﴿فاعبد الله مخلصاً له الدين﴾ و ﴿ألا لله الدين الخالص﴾ لهذا فلا يقبل من الانسان سوى الاخلاص في مقام الامتثال .

إذا امتثل الانسان للتكاليف الالهية باخلاص، فسيقبلها الله منه، وإذا

(١) سورة الشعراء، الآية (٨٤) .

(٢) سورة مريم، الآية (٩٦) .

(٣) الاحتجاج للطبرسي، ص ٣٠٩ .

قبلها الله فلا يستطيع شخص أن يمحو ما قبله الله . لذلك لهجت زينب الكبرى عليها السلام بذلك المنطق القرآني البليغ وقالت «فوالله لا تمحو ذكرنا» لأننا لم نعمل من أجل الأسماء «ولا تميت وحينا» لأن صاحب الوحي لم يبلغ الرسالة من أجل شهرته .

إذن، فهناك درجة الاخلاص ﴿الا لله الدين الخالص﴾ وهناك درجة الواصب ﴿وله الدين واصباً﴾ وهناك درجة التكوين ﴿له ما في السماوات والأرض﴾ وعندها لا يبقى للبشر شيء سوى العبودية، وإذا كان الانسان عبداً مخلصاً فسيجعل الله له لسان صدق، أي ينطق السنة الآخرين بمدحه الصادق .

ومن الممكن أن يستوجب لطف الله سبحانه من أجل ترغيب العبد للأعمال الصالحة، ان تلهج السنة الناس بذكره الجميل، وهذا ما نقل عن الامام أمير المؤمنين عليه السلام في دعاء كميل «وكم من ثناء جميل لست أهلاً له نشرته»^(١) .

إذا قام شخص بعمل معين من أجل التقرب الى الله سيجعل الله وهو مالك قلوب وألسنة الناس، قلوب المجتمع وعاء لمحبة هذا الشخص وينطق ألسنتهم بمدحه الصادق . لهذا قال الله أن من كان مؤمناً وكان له حسن فاعلي في روحه وكان ممن يهتم بايمانه وله حسن فعلي، فسيقذف الله حبه في قلوب الآخرين .

فقطرة البشر تميل الى الفضيلة والكمال كما ان قافلة القلوب بيد مقلب القلوب . وكذلك فان سنة الله سبحانه وهو مقلب القلوب هي أن يتجه بقافلة

(١) مفاتيح الجنان - دعاء كميل .

القلوب نحو الصالحين ليكونوا محبوبين، وحب الآخرين للعبد الصالح يستطيع أن يحل آلاف المشاكل.

اذ لو وقع الانسان في مشكلة، ودعا له انسان محب له فان دعاؤه مستجاب في حقه فيحب المجتمع شخصاً جديراً وكفوءاً ليس بذاك الرأسمال القليل .

لو كان حب البشر والمجتمعات البشرية شيئاً غير ذي قيمة لما طلبه الخليل عليه السلام من الله سبحانه، مع ان النبي ابراهيم الخليل عليه السلام قد سأل الله ﴿فاجعل أفئدة من الناس تهوي اليهم﴾^(١) أي، يا إلهي لقد أسكنت ذريتي في هذه الصحراء القاحلة من أجل احياء دينك ﴿ربنا ليقموا الصلاة﴾^(٢) فاجعل قلوب بعض الناس تهوي اليهم، واذا مالت قلوب جماعة نحو شخص معين، فان ذلك يعتبر من أهم الأرصدة الاجتماعية.

والله تعالى لا يتجه بالقلوب نحو أي انسان كان ولا ينطق الألسنة بمدح أي كان من البشر. لذا فقد قال؛ انني أوجه القلوب نحو من كانت له عقيدة صحيحة وعمل صالح.

وكما ان ثواب الآخرة مشروط بأمرين؛ أحدهما الاعتقاد بأصول الدين الكلية والثاني العمل بأحكام الدين، فان بعض الثواب الدنيوي مشروط بهذين الشرطين أيضاً. ففي الآية المنظورة جعل الله اندفاع القلوب مشروطاً بأمرين، أي أن القلوب لا تهوي نحو انسان ولا تتقبل حبه الا اذا كان متمتعاً بالايمان وعاملاً وفق أوامر الوحي، واذا لم يكن على هذه الشاكلة فإما ان لا

(١) سورة ابراهيم، الآية (٣٧).

(٢) سورة ابراهيم، الآية (٣٧).

تنفذ محبته الى قلوب الآخرين أساساً، واما أن لا تظهر بشكل ملحوظ، وكذلك لو كان الانسان غير مؤمن أو أنه مؤمن ولكنه غير منتفع من اعتقاده الصحيح فلن يناله نصيب من ثواب الآخرة، أي أما أن يحرم من الفيض الخاص بشكل كامل، أو يكون نصيبه من الفيض الالهي قليلاً بحيث لا يكون ملحوظاً.

لهذا قال عز وجل: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا﴾^(١) أي يوم تظهر بعض آيات الله الغيبية فلن ينفع الايمان الا اذا كان الانسان قد آمن فيما مضى (في الدنيا) وكذلك لن ينفع الايمان اذا لم يكن المؤمن قد استفاد منه في عمل الخير.

اذن، فسنة الله في الجزاء المعنوي الذي يعتبر توجه القلوب نوعاً منه، مشروطة بشرطين، أحدهما توفر الروح الطاهرة وهذا هو الحسن الفاعلي الذي يحصل بواسطة الاعتقاد الصحيح، والثاني هو العمل الصالح أي الحسن الفعلي.

ونتيجة البحث هي انه في نظام التكوين ﴿له ما في السماوات والأرض﴾ وفي نظام التشريع ﴿وله الدين واصباً﴾ وفي مقام الامثال ﴿ألا الله الدين الخالص﴾ و ﴿إنا أنزلنا اليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين﴾ وهذه المراتب الثلاث منسجمة مع بعضها.

وفي قوله عز وجل ﴿وله الدين واصباً﴾ تنبيه للجميع بأن الاسلام دين جامع وكامل. وليس فيه نقص يحتاج الى تكميل أحد الأشخاص، فقد قال الله ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم

(١) سورة الانعام، الآية (١٥٨).

نعمتي ﴿١﴾ بمعنى أن الدين الالهي تام وكامل .

ان الشجرة اذا كبرت وأعطت ثمارها، فهي كاملة من حيث كونها شجرة، وحينما تتم رشدتها وتكتسب ما تحتاج في نموها فهي تامة، أي أن شجرة الدين كاملة ومثمرة ومعطاء ولا نقص فيها أبداً، ولا حاجة لأن يضيف شخص شيئاً إليها أو ينقص منها شيئاً، اذن ﴿وله الدين واصباً أفغير الله تتقون﴾ (٢) .

الله هو الذي ينظم ويضع الدين وهو الذي يوجد ويدير نظام الطبيعة والخلقة، وهو الذي يرتب العلاقة بينكم وبين العالم، فما لكم تتقون غير الله؟ .

بعد عرض طريق الفطرة ينبه الله الجميع أن ﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾ (٣) اذا ادعى شخص انه حصل على العلم بجهوده وسعيه الشخصي فانه ليس بموحد في أقواله، لأن عليه الانتباه الى من أعطاه هذه القدرة؟ ومن أعطاه هذا العلم؟ ومن خلق العلاقة بين الانسان والعالم؟ .

على هذا الأساس، لا يحق لأحد القول أنني بجهودي أصبحت عالماً أو ثرياً. لأن ﴿وما بكم من نعمة فمن الله ثم اذا مسكم الضر فإليه تجأرون﴾ انكم لا تتجهون الى الله في الحالة العادية وتظنون أن جهودكم هي التي قدمت لكم بعض الخدمات، أو أنكم تعتمدون على أنفسكم فتقولون ﴿انما أوتيته على علم عندي﴾ أو تعتقدون بعلل وأسباب أخرى، كالعشيرة والقبيلة والقومية والعنصر وما شاكل من هذه العلل والأسباب الظاهرية .

(١) سورة المائدة، الآية (٣) .

(٢) سورة النحل، الآية (٥٢) .

(٣) سورة النحل، الآية (٥٣) .

﴿ثم اذا مسكم الضر فإليه تجأرون﴾ فحين يصيبكم الضر تضجون وتصرخون وتستغيثون بالله. سواء أخطأتم في التطبيق أم لم تخطئوا. لأنه حين تنقطع بكم العلل والأسباب وتنقطع كذلك العلاقات الاعتبارية، فبمن ستسولون؟.

فالإنسان يستطيع أن يقوم بالأعمال بواسطة إحدى علاقته؛ احدهما العلاقة التكوينية التي تمنحه القدرة وتمكنه من الوسائل التي ينجر بها بعض الأعمال، والثانية هي العلاقة الاجتماعية حيث يكون للإنسان أصدقاء ومعارف يحلون له مشاكله بدافع من الصداقة والقرابة. وإذا انقطعت كلتا العلاقتين النسبية والسببية فإن الإنسان لن يفقد أمله مع ذلك.

كما ان الغارق في البحر المنقطعة عنه كل العلاقات السببية والنسبية لن يستسلم لليأس المحض أبداً، بل انه يعيش بأمل، ولأنه أمل في تلك الحالة فلن يكون أمله موجوداً من الممكن أن تهزم قدراته، بل انه سيعتمد فقط على مبدأ عليم بكل شيء وقدير على كل شيء.

فمثلاً، الذي يقع في قبضة الأمواج البحرية الصاخبة، تراه يعتمد على مبدأ مسيطر لا على البحر والأمواج والعواصف والجزر والمد فحسب، بل له احاطة علمية ونفوذ عملي على كل موجودات البحر الحية وغير الحية، وقد قال الامام أمير المؤمنين عليه السلام في هذا المجال «يعلم عجيج الوحوش في الفلوات واختلاف النينان»^(١) في البحار الغامرات ومعاصي العباد في الخلوات»^(٢).

(١) النينان: جمع نون وهو الحوت المترجم.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ١٩٨.

يحتاج العلم بتحركات الأسماك في البحر الى اطلاق واسع وعميق لأن تحديد حركة المتحرك عندما تترك حركته أثراً خلفها، أمر غير مستصعب، فمن الممكن أن يعلم شخص عن طريق الآثار ومواقع الأقدام من مر من هذا الطريق أو الجادة لأن مروره سيترك أثراً خلفه .

أما تشخيص حركة الطيور في الجو أو الأسماك في قعر البحر المظلم فلأنها لا تترك أثراً، تكون عملية صعبة، لكن الله خالق البحر والأسماك محيط بكل حركات الأسماك كما انه عليم بمعاصي العباد في الخلوات . لأن خلوة البشر بالنسبة لله شهادة وحضور .

والخلاصة هي أن الانسان الأسير في أعماق البحر يتوسل بمبدأ عالم بكل خصوصيات البحر وموجوداته، سواء أخطأ الانسان عند التعبير عن ميوله الفطرية هذه أم لم يخطأ .

لذلك قال عز وجل : «انكم اثناء الخطر لا تلجأون لغير الله سواء انتبهتم الى لجوئكم هذا أم لم تنتبهوا» ﴿ثم اذا مسكم الضر فإليه تجأرون﴾ . وإذا أنجاكم الله ثانية، فانكم تعودون الى شرككم العارض، وبهذا تتضح البحوث السابقة أيضاً . فالتوحيد هو الأصل والشرك أمر طارىء لا أن الشرك أصل والتوحيد طارىء .

حين يبصر الانسان العلل والأسباب الصورية والظاهرية يجد ما يشغله ويأسر قلبه . أما حين تزول كل العلل الظاهرية فسيكون ميله نحو السبب الحقيقي .

يقول الملحدون أحياناً أن الاعتقاد بالله ليس من ميول الفطرة الانسانية بل انه من نسج أوهام البشر، أي أن الانسان العجبان الذي لا يعرف العلل

والأسباب التي تنجيه ولا يفهم طرق مكافحة الأخطار، هو الذي يعتقد بالله والحقيقة أن ليس في العالم شيء اسمه الله (والعياذ بالله). فالله صنيعه جهل الانسان وأوهامه. وليس مما أدركه الفهم الحقيقي للبشر.

ان التوهم الملحد هذا توهم باطل لأن الذين شرحوا ووضحوا فكرة الاعتقاد بالله للمجتمعات البشرية لم يكونوا من الجبناء أو المساكين، وهم الأنبياء والأولياء الالهيون. فالذين نشروا الاعتقاد بالله بين البشر، وكانت رسالتهم ترويج التوحيد وتبيان الفطرة التوحيدية أناس لم يجد الخوف طريقاً اليهم أبداً.

ان التجربة القطعية تدل على مصونيتهم من الخوف والجبن. لأنهم كانوا يتحملون أخطار البحر في بعض الأحيان كموسى الكليم عليه السلام أو يتحملون ألسنة النار أحياناً كما فعل ابراهيم الخليل عليه السلام. ولم يكن تهديد **﴿حرقوه وانصروا آلهتكم﴾**^(١) ليدخل في قلبه شيئاً من الرعب. ولم يحدث لنبي من الأنبياء الالهيين أبداً أن أخذه الرعب والفرع وانسحب من الساحة ازاء ارهاب الأعداء وباقي الحوادث المفزعة.

عليه فالاعتقاد بالله ليس من صنع الخوف، لأن قادة هذا الفكر كانوا من أشجع البشر. ان قادة الأفكار التوحيدية أناس لا سبيل للخوف الى حرمهم **﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾**^(٢).

يقول الامام علي بن أبي طالب عليه السلام «لا أبالي دخلت على الموت أو خرج الموت إليّ»^(٣) فلا أهمية للموت والخوف والحزن وما شاكل بالنسبة

(١) سورة الأنبياء، الآية (٦٨).

(٢) سورة يونس، الآية (٦٢).

(٣) نهج البلاغة، الخطبة ٥٤.

للأولياء الإلهيين .

إذن فهم لم يهتدوا الى هذا الميل الحق بواسطة الخوف . لأن الاعتقاد بالله راسخ في قلوب لا يلقي الخوف بظلاله عليها . وساحة التاريخ شاهد فصيح على هذا . يقول الامام أمير المؤمنين عليه السلام « لو تظاهرت العرب على قتالي لما وليت » ^(١) .

اصطفت كل تلك الأعداء أمام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلم يأخذه الخوف أبداً وكما يحدثنا الامام علي عليه السلام عن الشهامة الفريدة للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم انه « كنا اذا احمرّ البأس اتقينا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم » ^(٢) فقد كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم مأمن لجنود الاسلام .

إذن جاء بفكرة التوحيد والميل نحو الله أناس لم يكن للخوف محل في قلوبهم الموحدة . لهذا فالاعتقاد بالله ليس من صنع الوهم البشري ، بل هو من اكتشافات الفطرة الانسانية . واذا زالت عن الانسان ستائر الوهم الباطل ، اعتمد على الوجود المطلق والعليم المحض والتقدير الصرف .

ومن المستحيل أن يتعلق الرجاء الفعلي بمرجوٍ مطلقٍ ولا يكون هذا المرجو المطلق موجوداً . اذا تعلق الرجاء بمرجو محدد فلا بد ان يكون متعلق الرجاء موجوداً واذا اتجهت المحبة نحو محبوب محدد فلا بد ان يكون هذا المحبوب موجوداً واذا انعطفت الارادة على مراد محدد ، فان هذا المراد موجود يقيناً . وكذلك اذا تعلق الحقائق ذات الاضافة بموجود غير محدد ومطلق ، فلا بد أن يكون متعلقها موجوداً .

(١) نهج البلاغة ، الرسالة ٤٥ .

(٢) نهج البلاغة ، غريب كلامه ، الرقم ٩ .

ان تبين برهان الفطرة والذي هو من أهم منجزات الأنبياء، طريق سهل الاجتياز بالنسبة للجميع، لأن جميع البشر معرضون بشكل أو بآخر للأخطار ويتجهون أثناء الخطر الى سند أزلي خالد، لذا قال عز وجل ﴿ثم اذا مسكم الضر فإليه تجأرون * ثم اذا كشف الضر عنكم اذا فريق منكم بربهم يشركون﴾^(١) ولأنه قال في الآية السابقة أن كل ما بكم من نعمة هي من عند الله، فلا شك اذن أن نعمة الانقاذ من الأخطار هي من عند الله أيضاً.

اذا لم يشاهد شخص المنعم في هذه النعمة ولم يتذكر المنعم بعد ان تزول مشكلته، فسبب ذلك هو أن ميله نحو النعمة لا نحو المنعم. لهذا فحين تزول مشكلاته ستلقي حالة النزوع نحو الراحة والارتخاء بستائر الغفلة على هذا الميل.

من هنا وجب على الانسان ان يراقب نزعاته وحركاته دائماً ليزيح كل ستائر الغفلة، لأن ستار الغفلة لا يسمح للانسان بأن يرى ضعف نفسه. اذا شاهد الانسان عجزه ﴿ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً﴾^(٢) ورأى انه لا جىء، بسبب ضعفه ومسكنته الى ذلك القدير المحض لأنه (أي الانسان) بذاته مرتبط بالله، وليس ارتباطه بالله وصف لازم له، بل انه فقير، بذاته وليس شيئاً ثبت له الفقر، عندها فلن ينسى نفسه أبداً.

البعض أضعاف نفسه وكما يقول الامام أمير المؤمنين عليه السلام «عجبت لمن ينشد ضالته وقد أضل نفسه فلا يطلبها»^(٣).

(١) سورة النحل، الآيتين (٥٣ - ٥٤).

(٢) سورة الفرقان، الآية (٣).

(٣) غرر الحكم، الرقم ٦٢٦٦.

ان من أفضل آثار محاسبة النفس هي أن الانسان لا يضيع نفسه، يجب عليه ان يزيح ستار الغفلة دائماً، وتارة يتمكن الانسان من ازاحة الغفلة بالدرس والبحث والاستدلال وتارة عن طريق صفاء الضمير والتربية الصحيحة وتهذيب النفس وتركية الفؤاد، فهذه العناوين يهب نسيم السعادة ويزيح كل ستائر الغفلة. سواء كان ذلك بالعلم الحسولي والتصديق الفكري والاستدلال أو بالعلم الشهودي وتهذيب النفس والعيان. كما ان الجمع بين هذين الطريقتين ممكن.

الانسان الكامل هو الذي يستفيد من أسلوب التعقل والتفكير وكذلك من أسلوب التهذيب والتزكية، فالانسان الكامل معلّم للمفكرين وأصحاب النظر ومربّ للمتهذبين وذوي الأفتدة. لذلك وجب عليه أن يجمع بين الكمالين ومع ان الكمال الشهودي أهم من الكمال الفكري، الا انه يجب على الانسان الإفادة الكاملة من الكمال الفكري. ولأن الفيض الشهودي لا يكون من نصيب الانسان دائماً لذا يجب انتظاره للفادة منه في الفرصة المناسبة.

روي عن الرسول الأكرم ﷺ انه قال «ان الله في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها ولا تعرضوا عنها» هناك ليال مباركة وأيام مباركة بالنفحات الالهية والذي كان في معرض الشهادة ولم يعرض عنها أو الذي كان في معرض مساعدة الاسلام ولم يعرض فقد وضع نفسه في معرض نسائم السعادة.

ان أسحار شهر رمضان المبارك من أفضل الفرص التي تهب فيها نسائم السعادة، بل ان الأسحار تكون هكذا بالنسبة للمتهجدين أساساً.

أرجو أن يوفق الله الجميع لهذا. نقسم على الله بحق محمد وآل
محمد ﷺ أن يجعل قلوبنا جميعاً أوعية لمعارف القرآن الكريم وأحاديث
الأنبياء ﷺ وأن يحشر شهداء الاسلام مع الأنبياء والأولياء الإلهيين بحق
محمد وآل محمد وان يفيض رحماته على معلمينا ومؤلفي العلوم الالهية
وباقى ذوي الحقوق. وان لا يفرق بيننا وبين القرآن والعترة. ويختتم أمورنا
ياحسان.

غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الدرس الخامس

معارف الرّين معارف فطرية

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله وصلى الله على جميع الأنبياء والمرسلين والأئمة الهداة المهديين سيما خاتم الأنبياء وخاتم الأوصياء عليهما آلاف التحية والثناء.

كانت البحوث السابقة تدور حول فطرية التوحيد الربوبي، فضلاً عن التعليل يمكن بالفطرة توضيح معنى التوحيد الربوبي. ان طريق الفطرة غير طريق البرهان، فطريق الفطرة هو السير في داخل الذات.

القرآن الكريم وكما يقيم البراهين على التوحيد الربوبي، فانه يعرض طريق الفطرة ويحييه ويقول ان الانسان بفطرته يميل الى الله الواحد. أي أنه يميل الى المبدأ الواجب بالذات وكذلك الى المصدر الفريد الأحد لا الأكثر من واحد.

انه يميل الى أصل الواجب تعالى المسمى بالخالق والرب، كما يميل كذلك الى وحدانيته وأحديته. وتنقسم الآيات التي تعرض قضية التوحيد

الربوبي عن طريق الفطرة، الى عدة مجاميع، وقد مرّت بنا خلاصتها في البحوث السابقة.

ان بعض الآيات لا تعتبر التوحيد الربوبي فطريّ في البشر وحسب، بل انها تعتبر أصل الدين الذي هو الاسلام فطري عند البشر أيضاً الدين هو مجموعة العقائد والأحكام. فسلسلة المعارف العلمية والعملية التي تشكل مجموعة ما هو موجود وما ليس بموجود ومجموعة ما يجب وما لا يجب، هي التي تسمى بالدين وهو عند الله الاسلام والانقياد الكلي للانسان الى ساحة الهداية الإلهية. سواء في مجال ما يوجد وما لا يوجد أو في مجال ما يجب وما لا يجب.

ان الخطوط العامة للدين أي الاسلام، فطرية من وجهة نظر القرآن الكريم. وان كانت فروع الدين المسماة بالشريعة والمنهاج قابلة للتغيير والتبديل في كل زمان، إلا شريعة خاتم الأنبياء ﷺ التي لا تقبل التغيير. والقصد هو أن هذه الطائفة من الآيات وعلاوة على تقريرها أن أصل الاعتقاد بالتوحيد الربوبي أمر فطري، فهي تعتبر الاسلام وهو مجموعة هذه المعارف العلمية والعملية أمر فطري كذلك.

ولأن الفطرة غير قابلة للتغيير، فان الأصول الكلية للدين غير قابلة للتغيير. وهي ليست غير قابلة للتغيير في المستقبل فحسب، بل انها طوت ماضٍ طويل وراءها. فما دامت هذه الانسانية، موجودة ومستمرة فان هذا الدين ومجموعة المعارف والأحكام المسماة بالاسلام، وسيكون موجودا ومستمرأ.

ان القرآن الكريم يعلن ويبين هذا الإدعاء بشكل واضح. ويقول ان

الدين بمعنى مجموعة المعارف من متطلبات الفطرة، وفطرة البشر لم ولن تتغير، لهذا فان الدين الالهي لم ولن يتغير، وسيكون الاسلام ما كان الانسان.

ان اديان الأنبياء السابقين هي أيضاً الاسلام وكذلك دين خاتم الأنبياء ﷺ. والاختلاف الموجود بين الأديان السابقة ينحصر في الفروع الجزئية المسماة بالشريعة والمنهاج، فقد قال عز من قائل ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا﴾^(١). والا فان الخطوط العامة للدين واحدة وثابتة ﴿ان الدين عند الله الاسلام﴾^(٢) وكل الأنبياء قد جاؤوا بالاسلام ودعوا الناس اليه.

اذا كان ﴿الدين عند الله الاسلام﴾ واذا كان ﴿من يتبع غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه﴾^(٣) اذن فالدين المقبول لدى الله هو الاسلام، ولأن هذا الدين عند الله وكل ما عند الله مصون من التغيير والزوال ﴿ما عندكم ينفد وما عند الله باق﴾^(٤) اذن فالاسلام أمر ثابت وبقا. وعليه فستكون الخطوط العامة للدين أي تلك المعارف الأولية والقوانين العامة التي تشكل مجموعة ما يوجد وما لا يوجد وما يجب وما لا يجب، ثابتة لا تتغير بشكل تلقائي.

ولذلك فكلما جاء نبي، صدق ما جاء به النبي السابق ﴿مصدقاً لما بين يديه﴾^(٥) الى ان جاء دور القرآن الكريم الذي صدق بما جاء به الأنبياء السابقون وهيمن وسيطر على ما جاؤوا به ﴿مصدقاً لما بين يديه من الكتاب

(١) سورة المائدة، الآية (٤٨).

(٢) سورة آل عمران، الآية (١٩).

(٣) سورة آل عمران، الآية (٨٥).

(٤) سورة النحل، الآية (٩٦).

(٥) سورة المائدة، الآية (٤٨).

ومهيماً عليه ﴿١﴾ .

وهذا المعنى مقتضى مقام خاتمية خاتم الأنبياء ﷺ ، فمن لوازم هذا المقام الهيمنة والسيطرة والسلطة على باقي الأنبياء .

اذن فليس أساس الاعتقاد بالله الواحد هو الفطري فقط بل ان مجموعة المعارف المسماة بالعقائد والأحكام فطرية لدى البشر أيضاً . يقول الله عز وجل في سورة الروم بعد سلسلة من الأدلة التي تثبت مبدأ ومعاد عالم الخلق بالبرهان ، يقول ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾ (٢) ثم يقول ان القضايا التي يثبتها العقل لا تفرض على إرادة الانسان ، بل انها تأتي تلبية لنداء الفطرة .

إذا تقبل الانسان ما يثبته العقل فقد لبي الميول الباطنية لفطرته بشكل ايجابي . ولم يفرض عليها شيئاً أجنبياً ، بل انه غذى الفطرة من المصدر الصحيح . وأمدّها بالغذاء اللازم لها . ان الرجال الالهيين وسالكي درب الحق حين يصلون سن البلوغ ويصبحون مكلفين ، يرون أنفسهم مشرفين بالقوانين الالهية وليسوا مكلفين بها .

جاء في السيرة التربوية للمرحوم السيد ابن طاووس (رض) انه احتفل في يوم بلوغه ودعا اصدقاءه للمشاركة في حفل خاص وقال انني أقمت حفل تشرف لأنني تشرفت بالأحكام الالهية . فلم يكن الله يطلب مني شيئاً قبل سن البلوغ ولم يكن ليطلب مني العمل بأحكامه كدساتير لازمة . أما الآن فانني احتفل بهذا الزمن السعيد لأشكر وصولي الى حد جعلني مشمولاً بالنداءات

(١) سورة المائدة، الآية (٤٨) .

(٢) سورة الروم، الآية (٢٧) .

الالهية كآلية ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام﴾^(١) و ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة...﴾^(٢).

المراد هو أن الأحكام الالهية سواء ثبتت بواسطة العقل أو بواسطة الوحي بشكل تعبدى، فهي ليست اقحاماً على الانسان ولا تكليفاً عليه، بل هي غذاء لفطرته وتشريف لحقيقته بالباسها ثوب عبودية الحق وكساء التقرب الى الله.

وكما ان تدبير النظام التكويني للأشياء قائم على أساس المحبة والانسجام لا على أساس القهر والقسر، فان تدبير النظام التشريعي الخاص بالمجتمعات البشرية يدور أيضاً حول محور المحبة واللطف لا على أساس الفرض والضغط واذا عمل الضغط والقسر على موجود ما في بعض الأحيان فان ذلك أمر مقطعي وزائل. والا فان نظام عالم الخلقه يدار بالمحبة والوداد والتسخير، لا بالقسر والضغط.

التسخير هو أن يهدي الفاعل الأعلى (الله) كل موجود الى مسير كماله ويمده ليجتاز مسيره المناسب من أجل نيل الهدف اللائق به. والقسر والضغط والتحميل هو أن يصدوا موجوداً ما عن هدفه أو يجعلوه يسير ويسعى في طريق آخر.

يقول الله تعالى في القرآن أن نظام السماوات والأرض هو نظام التسخير وليس نظام القسر. أي أن الله يوصل لكل موجود ما يطابق طبيعته وميوله الباطنية وذلك عن طريق تنظيم خاص. وملائكة الله بصفتهم

(١) سورة البقرة، الآية (١٨٣).

(٢) سورة البقرة، الآية (٤٣).

مسؤولين عن تنفيذ الارشادات الالهية يأخذون على عاتقهم مهمة التدبير، ويهدون كل موجود الى السبيل الذي يجب ان يسلكه ويوصلونه الى الغاية الجدير بها.

في نشأة الحركة أي عالم الطبيعة والمادة ولأن الكل في حركة، يحدث أحياناً اصطدام بين المتحركين. أما في النشأة الأعلى من منطقة الحركة، فلا محل للاصطدام والتعارض، ولهذا فلن توجد الأرضية للعصيان والتمرد. ولأن كل موجود مسخر لمن فوقه في طبي سبيله التكاملي، فان الانسان أيضاً مسخر للأسباب العليا، أي أن المبدأ الأعلى الذي خلق الانسان يضع أمامه طريقاً تميل اليه إرادة الانسان الداخلية ويهديه الى غاية تميل اليها ارادته الداخلية.

إذا طلبت فطرة الانسان طريقاً وهدفاً معيناً، فان هذا الطريق وذاك الهدف فطريان. واذا كان الميل نحو الهدف الحقيقي والغاية النهائية جزءاً من الارادة الداخلية للانسان، فان الاعتقاد بالتوحيد أمر فطري. واذا كان طبي سبيل القسط والعدل منسجم مع الفطرة لأنه السبيل الذي يوصل الفطرة الى ذلك الهدف السامي، فالدين إذن فطري.

الدين طريق، والوصول الى لقاء الله هدف. والقرآن الكريم يدعي أن مجموعة المعارف المسماة بالدين والمتشكلة مما يجب وما لا يجب ومما يوجد وما لا يوجد، كلها أمور فطرية عند الانسان. وبعد أن يثبت الله عن طريق البرهان ضرورة المبدأ وضرورة المعاد يخاطب الانسان أن شاهد بقلبك أيضاً هذه الأمور التي فهمتها بعقلك. فهذا هو الطريق الذي يفهمه العقل وتقبله الروح، لأن الروح الانسانية قد خلقت بالشكل الذي تطلب فيه هذا الطريق وتشتاق لهذا الهدف. ﴿فأقم وجهك للدين

حنيفاً^(١) .

ان الدين الالهي المقبول هو الاسلام ﴿ان الدين عند الله الاسلام﴾ وهو الذين الذي لا يقبل سواه من أحد ﴿ومن يتبع غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه﴾ فسوى الاسلام ليس طريقاً صحيحاً ولا يضمن الهدف الصحيح .

ولأجل أن يثبت الله أن الدين الاسلامي غير مفروض على الفطرة بل هو التلبية الايجابية لنداء الفطرة، يقول ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾^(٢) فالقول؛ أقم وجه روحك باتجاه الدين، هو بتعبير آخر، احترم فطرتك وتحرك على أساسها، لهذا قال عز وجل أمسكوا الدين بقوة ﴿خذوا ما آتيناكم بقوة﴾^(٣) وقال ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾ .

كلمة الفطرة في هذه الآية منصوبة على فعل محذوف يفيد الاغراء، أي أمسك بفطرتك الالهية ولا تخسر طبيعتك الانسانية . راقب دخيلتك فالدين ينبع من الداخل، أي أن الهداية الالهية موافقة للميول الباطنية عند الانسان . فلا يحمل عليه ثقل من الخارج بل ان الدين ازدهار الفطرة فقط، وحين تأت الأوامر أن تمسكوا بالدين فمعنى ذلك تمسكوا بمراد فطرتكم .

للانسان كباقي الموجودات هدف وكمال وطريق معين باجتيازه يصل للانسان الى غايته النهائية . وهذا الطريق الذي يؤدي اجتيازه الى النيل اليقيني للغاية المنشودة اسمه الدين، والدين من متطلبات الفطرة .

فطرة الله في الآية تعني «خذ فطرة الله، إلزم فطرة الله» في مواضع

(١) سورة الروم، الآية (٣٠) .

(٢) سورة الروم، الآية (٣٠) .

(٣) سورة البقرة، الآية (٦٣) .

الاعراء حين يراد القول : إلزم حببيك ، يقال «حبيبيك حبيبيك» . اذا ضاع كتاب من الانسان وارادوا أن يقولوا له : هذا كتابك الضائع ، يقولون له : «كتابك» أي «خذ كتابك» فالكتاب هنا منصوب لذلك العامل المحذوف .

إذن فمعنى الآية هو «خذ فطرتك ، إلزم فطرتك» أي أن الدين تفتح وتزهير للفطرة . أو ليست الفطرة لا تطلب أيّ طريق كان؟ أو ليست الفطرة لا تطلب أيّ طريق كان؟ أو ليست الفطرة لا تطلب أي صوب واتجاه؟ أو ليست الفطرة في حركة نحو الكمال الخالد؟ أو ليس بين المتحرك والهدف طريق مشخّص؟ .

أو ليس هناك طريق محدد من أجل الوصول الى الهدف المعين بحيث يمكن الوصول الى ذلك الهدف باجتياز الطريق؟ أو ليس الهدف لا يبرر الطريق ، بل لا بد للوصول الى الهدف المعين من طريق معين لا غيره؟ والطريق المعين يوصل الانسان الى هدف محدد مشخّص لا غيره؟ ان الطريق الذي يصل بالانسان الى الهدف السامي هو الدين وهو ما تطلبه الفطرة وتظماً اليه .

ان الدعوة الى الدين الالهي بمنزلة الترغيب في الانتباه للفطرة ، وأخذ الدين هو أخذ فطرة الانسان الالهية والباحثة عن الله . كما ان أخذ الفطرة وحراستها هو أخذ للدين وحراسته .

طبيعة الانسان تريد الدين الالهي . كنواة التمر التي تريد أن تصبح نخلة باسقة فإن لها هدف ولها طريق معين من أجل نيل ذلك الهدف . فالنواة لا تريد الوصول الى أهداف أخرى ، لأن لكل نواة هدف واضح ولا توجد عدة طرق للوصول الى ذلك الهدف الأعلى بل هناك طريق واحد مستقيم لا

اعوجاج فيه وباجتيازه يمكن الوصول الى ذلك الهدف .

ان الانسان وكباقي موجودات عالم الطبيعة لم يخلق كاملاً بالفعل ، لأن كل موجود اما أن يكون كاملاً بالفعل أو كاملاً بالقوة . فهو اما كامل أو سيكمل ، المجرد هو الكامل بالفعل ، وغير المجرد هو المتكامل أي الذي يريد أن يصبح كاملاً . والتكامل يكمن في أن يكون للمتحرك هدف محدد أولاً ، وأن يكون له طريق معين ثانياً . اذا لم يكن ثمَّ هدف فلن يحصل التكامل وان لم يكن ثمَّ طريق بين القوة والفعل او بين المتكامل والكمال فان التكامل غير ممكن أيضاً .

ان الهدف الأساسي من خلق الانسان ، نيله مقام لقاء الله الشامخ ، أما أنواع السعادة الأخرى التي تذكر أحياناً فهي أهداف ومقاصد وسطى ، والطريق الذي يوصل اجتيازه الى الهدف هو الاسلام الذي تبغيه الفطرة ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾ .

ان الفطرة الانسانية والدين السماوي من الكلمات الالهية التي لا تتبدل ﴿لا تبديل لكلمات، الله﴾^(١) لذلك قال عز وجل أن الفطرة التوحيدية من منح الله للانسان وقد خلق الله الانسان على تلك الفطرة وخلق الله لا يتبدل ﴿لا تبديل لخلق الله﴾^(٢) .

لا يستطيع شخص أن يغيّر هذا الطريق كما ان الله لا يبدله بدوره ، لأن الله قد خلقه حسناً والله لا يبدل أعماله الحسنة لأنه لا موجب لهذا التبديل . فتغيير الخلق لا يكون موجهاً الا اذا أصبح الخالق عالماً بالتدريج كأن لا

(١) سورة يونس، الآية (٦٤) .

(٢) سورة الروم، الآية (٣٠) .

يكون في الخلق الأولى ذا اطلاع كافٍ لكنه اكتسب العلم أكثر ضمن تجاربه اللاحقة، ولهذا يبدل مخلوقه. ولأن هذا التحول مستحيل بالنسبة للمبدأ العليم المحض والقادر الصرف، اذن فالله الذي خلق الانسان قد خلقه في أحسن وضع ﴿لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم﴾^(١).

لا يوجد أي نقص أو عيب في خلقته وطبيعته ليكون ذلك مبرراً في ان يغيّره الله لذلك قال ﴿لا تبديل لخلق الله﴾ وغير الله لا يستطيع أن يبدل أفعال الله. لهذا قال عز وجل في آيات أخرى ﴿لا مبدل لكلماته﴾^(٢)، اللاهنا هي لا النافية للجنس، أي لا يوجد مبدل لكلمات الله في العالم مطلقاً.

ان الله لا يبدل شيئاً لأنه خلقه في أحسن تقويم وغير الله لا يبدل أيضاً لأن غير الله مهما كان ومن كان، هو جزء من الجنود الالهيين ﴿ولله جنود السماوات والأرض﴾^(٣) وليس لأحد في نظام الخلق أية صلاحية ﴿من ذا الذي يشفع عنده الا بإذنه﴾^(٤).

إذن فلا يستطيع أي موجود أن يقوم بعمل بدون اذن الله، سواء كانت هذه الموجودات مدبرات الأمر أو المجريات والمتمثلات للأوامر. اذن ليس ثمّ تبديل، لهذا يقول أحياناً ﴿لا تبديل لخلق الله﴾ ويقول أحياناً ﴿لا مبدل لكلماته﴾.

الفطرة الانسانية والدين الالهي من كلمات الله التامة، اذن فلا تبديل فيها لا من جانب الله ولا من جانب الآخرين.

(١) سورة التين، الآية (٤).

(٢) سورة الأنعام، الآية (١١٥).

(٣) سورة الفتح، الآية (٤).

(٤) سورة البقرة، الآية (٢٥٥).

ومن قوله تعالى ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾ يتضح أن الفطرة موجودة عند كل البشر وهي لا تخص المؤمنين أو أهل الكتاب. فهناك دين اسمه الاسلام الفطري جاء للانسان من حيث هو انسان. والانسان واقع له أصناف وأفراد مختلفون وليس له حقائق متفاوتة.

لو كان للانسان حقائق مختلفة لاستحالت وحدة الدين الاسلامي الشاملة للعالم بأسره، لأنه لا يمكن اخضاع الحقائق التكوينية المختلفة لقانون تشريعي واحد. لا يمكن توحيد وتسوية وجمع الحقائق العينية المتباينة بقانون ذهني واحد وجعلها بتوجه فكري واحد ومسلك عملي واحد وميول قلبية واحدة، ولأن للانسان حقيقة واحدة لا أكثر ولا تتبدل سواء في طولها أو في عرضها، لهذا فالجميع ظمأى لدين واحد وطريق واحد وهدف واحد.

علامة هذه الوحدة النوعية هي أن جميع البشر ينتظرون يوماً تحكم فيه الوحدة الشاملة على العالم كله. وإذا كانت كل البشرية بانتظار انتشار السلام العالمي وإذا كانت بانتظار المصلح العالمي المسمى بالامام المهدي (أرواحنا فداء) فسيوضح أن الانسانية نوع واحد. لو كان للانسان أنواع مختلفة، لكانت نزعاته مختلفة أيضاً ولو كانت النزعات مختلفة لكانت الطرق مختلفة. وإذا كانت الطرق مختلفة فان الأهداف مختلفة كذلك. ومع تعدد الأهداف وتعدد الطرق وتعدد السالكين يستحيل الانسجام والاتحاد.

حين نرى أن البعض يحاول أن يجمع البشر تحت قانون واحد (مع ان البعض يخطيء في التطبيق حين يظن أن بالامكان الحصول على وحدة عالمية من دون الوحي) فان في ذلك دليل على أن الجميع يعتقدون أن

الانسانية نوع واحد. ليست الانسانية جنس من الأجناس، الانسانية نوع واحد، وان كان ثمَّ اختلاف فهو في الصنف أو الشخص أي أن الاختلاف خارج حقيقة الانسان وخارج حرم ذاته.

ومن جهة أخرى وبتعبير سيدنا الأستاذ العلامة الطباطبائي (رض)؛ لو كان للانسانية حقائق متباينة وكانت بمثابة الجنس لا بمثابة النوع لما أمكن تكامل البشر مطلقاً، فالانسان القديم والانسان الحالي والانسان المستقبلي، ليسوا أنواعاً مختلفة، ولو كانوا أنواعاً مختلفة لما كانت تجارب أحد هذه الأنواع أرضية لتطور النوع الآخر ولما كان النوع الحالي ممهداً لتكامل النوع اللاحق، لأن النوع الماضي في هذه الحالة سينقضي بكل تطوراته أو أنه يطوي مسيرته التكاملية الخاصة، وبعد ذلك يبدأ النوع الجديد بنشاطاته.

حين نشاهد ان تجارب الماضين أساس لتطور النوع الحالي وتكامل العصر الحالي أساس لسمو العصر الآتي، فذلك لأن الانسانية في كل الأعصار والأعمار نوع واحد.

اذن فالانسانية بلحاظ الزمن نوع واحد كان وما زال وسيكون حتى ظهور بقية الله (أرواحنا فداء) وبلحاظ المكان فان الناس في أقطار العالم نوع واحد أيضاً. والا لما أمكن التبادل الثقافي والفكري بينهم ولما تيسر الحوار مع بعضهم ولاستحالت المناظرات والبحوث والمناقشة والبراهين.

حين نلاحظ أن جميع الناس سواء المعاصرون لبعضهم أو المختلفون من حيث العصر، لهم تبادل ثقافي وتمهيد لتطور من يلحق بهم ومناقشة لآراء السابقين لهم وتخطئة لهذا وتصويب لذلك فان كل هذا بسبب أن الانسانية نوع واحد.

وإذا كانت نوعاً واحداً فلا بد أن يكون لها طريق وهدف واحد، وهذا الطريق الواحد هو الاسلام لا غيره وذلك الهدف الواحد هو لقاء الله. ولأجل هذا استعرض جميع الأنبياء هذا الطريق الواحد ﴿ان الدين عند الله الاسلام﴾ ولم يأتوا بشيء غير الاسلام. كلما جاء نبي صدق ما جاء به النبي السابق، لأن ذلك النبي السابق لم يأت بغير هذا الاسلام.

عليه فالانسانية نوع واحد وفقاً للدليلين، لهذا قال القرآن الكريم ﴿فطر الناس عليها﴾ فليس للانسان أنواع مختلفة وفطرات متعددة ليكون له بالنتيجة أهداف متعددة وسبل متباينة. بل إن الانسان لا يتجه لغير الله لأنه قد جاء من الله وسيعود اليه ويطلب طريقاً معيناً ﴿ذلك الدين القيم﴾.

اذن فالفطرة النازعة نحو الله. والمقومة الداخلية لكل البشر هي فطرة واحدة والعامل الخارجي المشرف على هذه الفطرة والقيم عليها هو واحد بدوره. وليس معنى القيم هو الأجنبي، بل هو كما نقول عن الماء أنه خارج النبات والنبات بحاجة الى الماء فتجذبه. فمع ان الماء خارج النبات، الا ان هناك علاقة ضرورية بين الداخل والخارج.

ان الدين الاسلامي الذي تطلبه الفطرة الانسانية، بمثابة الماء الذي يطلبه العطشان. فهذا الماء قيم على العطشان، العطش مقوم العطشان والماء هو القيم للعطشان. ان قوام الانسان العطشان على عطشه، فلا يستطيع القول انني مرتو ولا أريد الماء لأنه لا يستطيع القول انني لا أريد الكمال، فهذا مستحيل.

وقد قال خالق الانسان عز وجل ﴿يا أيها الناس أنتم الفقراء الى

الله ﴿^(١)﴾ أي أن الفقر الى الله مقوم الانسان . واذا كان المقوم الداخلي له هو العطش والفقر ، اذن فالماء الخارجي هو القيم عليه . لذلك يطرح الدين بعنوانه عين الحياة وماء الوجود ، والا فان ماء الحياة لا ينزل مع المطر ولا ينبع من الآبار والعيون .

انها أسطورة أن يرتوي الانسان بقدر من الماء الى الأبد لأن القضاء الالهي المحتم هو أن يموت الجميع ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ ﴿^(٢)﴾ من المستحيل أن يبقى شخص حياً في هذا العالم الى الأبد .

ان قضية ماء الحياة وكما مر بنا في الأبحاث الماضية ليست أكثر من مثل ، لأنه ليس ثمّ ماء يشرب منه الانسان قدحاً واحداً فيبقى حياً الى الأبد فهذا خلاف القرآن الكريم القائل ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن متّ فهم الخالدون﴾ ﴿^(٣)﴾ أي أن عالم الدنيا ليس عالماً للخلود ، لأن عالم الحركة لا ينسجم مع الدوام والاستقرار ، بل يجب أن ينتهي عالم الحركة الى دار القرار .

اذن فالمقوم الداخلي للانسان هو الفطرة الانسانية الظامنة الى الكمال المسمى بطلب الله والبحث عن الله . والقيم الخارجي على الانسان هو ماء الحياة المسمى بالدين وهو الصراط المستقيم الذي باجتيازه يصل الانسان الى هدفه حتماً ، لهذا قال عز وجل ﴿ذلك الدين القيم﴾ ان هذا الدين لا يكون قيماً الا اذا كان هو مستقيماً . وإذا كان في الدين نقص أو تناقض فلن يجدر بالقيمومة على الفطرة . لذلك قال الله في تعريفه للقرآن الكريم ﴿غير

(١) سورة فاطر ، الآية (١٥) .

(٢) سورة آل عمران ، الآية (١٨٥) .

(٣) سورة الأنبياء ، الآية (٣٤) .

ذي عوج ﴿أي لا اعوجاج ولا انحراف في هذا الكتاب، وبهذا يستطيع أن يكون قيماً على الآخرين .

لو لم يكن هذا الكتاب مستقيماً لما كان بإمكانه ان يكون قيماً على الآخرين واذا عرف الله تعالى الدين بصفته قيماً على الفطرة فان هذا بسبب كون الدين مستقيماً ولا اعوجاج فيه، كما انه قال في وصف القرآن الكريم ﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً * قيماً﴾^(١) .

لأنه خالٍ من العوج فهو قيم على البشر، ولو كان فيه أدنى عوج لما كان قيماً. لذلك قال ﴿ولم يجعل له عوجاً * قيماً﴾. إذن فما جاء في سورة الكهف وأماكن أخرى من أن القرآن مصون من الانحراف وهو قيم، قد بين في آيات الفطرة على شكل ﴿ذلك الدين القيم﴾. هذا هو الدين الذي يجب على الناس أن يكونوا حنفاء له. أي يكون كل اهتمامهم في التوجه نحو الوسط.

الحنيف مقابل الجنيف. الذي تزلق أقدامه عند الحركة نحو الأطراف والخارج أي المهدد بخطر السقوط في كل لحظة هو الجنيف، يقولون «متجانف لاثم» والحنيف هو الذي لا تخرج اقدمه أثناء المسير عن الوسط، فيقال ﴿أقم وجهك للدين حنيفاً﴾.

والخلاصة هي أن الدين الاسلامي قيم على البشر كما أن الماء قيم على النبات ﴿ولكن اكثر الناس لا يعلمون﴾ أكثر الناس لا يعلمون ما هو الدين العالمي الشامل، فمع علمهم أن الانسان بحاجة الى القوانين، لكنهم ينظمون القوانين وفقاً للرؤى المعرفية المختلفة التي يحملونها. فصاحب

(١) سورة الكهف، الآيتين (١ و٢).

النظرة المادية ينظم قوانينه وفقاً لها. وصاحب النظرة المشتركة، ينظم القوانين بما يرضي آلهته وأربابه المتفرقة.

والذي تقوم نظرتة على أساس الوثنية تكون قوانينه ثنوية لأن نظرتة ثنوية. وصاحب النظرة التوحيدية تتفق قوانينه مع النظرة التوحيدية الأكثرية لا تعلم أن فطرة البشر هي النظرة التوحيدية، وبهذا فالطريق الوحيد الذي يهدي الانسان الى هدفه وفقاً للنظرة التوحيدية هو الدين الاسلامي وحسب ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾.

ان ما قاله الله من أننا لم نفرض على الفطرة شيئاً خارجاً عنها أو خذ فطرتك أو أن فطرتك تنزع نحو ماء الحياة فأروها بالدين الاسلامي، كل هذا عبّر عنه في سورة المائدة بالتعبير الآتي ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم﴾^(١).

كلمة ﴿عليكم﴾ هنا اسم فعلٍ. وكلمة ﴿أنفسكم﴾ منصوبة أي «الزموا أنفسكم» تحركوا في منازل أرواحكم ولا تنفصلوا عنها.

أو ليس من المفروض أن تتكامل روح الانسان؟ أو ليس كل ما يقوم به الانسان لخارج روحه يراه خسراناً؟ أو ليس الانسان ان لم يسع في المعارف والأخلاق والأحوال ومعرفة الاسلام والعمل به، أي اذا ترك نفسه والتزم الشيء الأجنبي، فقد خسر خسراناً مبيناً؟.

ولهذا ومن أجل حراسة الرصيد الفطري والنجاة من عبادة الأجنبي قال الله تعالى في سورة المائدة ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم﴾ أي اهتموا بأرواحكم وانظروا ما الذي تريده أرواحكم إن أرواحكم الطاهرة أيها البشر لا

(١) سورة المائدة، الآية (١٠٥).

تطلب لهو الدنيا أبداً لأن عليكم أن تتركوا كل هذه المشاغل وتذهبوا بأيدي خالية، ومعنى تملك الأموال أو حيازة العناوين ليس أكثر من نقل محل بعض الموجودات الطبيعية أو حيازة وهمية لبعض العناوين الاعتبارية، ولا شيء غير هذا وليست أياً من هذه الأشياء دائمة ولا متفقة مع الفطرة الانسانية النازعة نحو الكمال.

لهذا قال ﴿عليكم أنفسكم﴾ أي سيروا في أنفسكم، ولا تسيروا في مكان آخر وان لروحكم انجذاب ونزوع نحو الكمال اللامتناهي. ومن أجل الظفر باللامتناهي لا بد من طريق معين، وهذا الطريق المعين والصراط المستقيم هو الدين الالهي، الذي يستطيع بواسطة استقامته الذاتية أن يكون قيماً على الآخرين. ولأن المقوم الحقيقي للروح النازعة نحو الحق والظامئة للكمال هو دين الاسلام، لهذا يقول الله أحياناً ﴿فطرة الله﴾ وهي منصوبة للفعل المحذوف، أي «خذ فطرة الله، إلزم فطرة الله» ويقول أحياناً ﴿عليكم أنفسكم﴾ أي «الزموا أنفسكم خذوا أنفسكم» لا تغفلوا عن أنفسكم ولا تشغلوا بالأجنبي ولا تخدعنكم الأوهام والخرافات الاعتبارية. ليكن جل سعيكم أن تحفظوا روحكم المجردة والملكوئية من أضرار التعلق بالدنيا.

﴿لا يضركم من ضل إذا اهتديتم الى الله مرجعكم جميعاً﴾^(١) إذا قتمت بواجباتكم الفردية والجماعية فلن يستطيع الآخرون أن يضرركم بضلالهم. عليكم أن تأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر وتكون سيرتكم نموذجاً يحتذى يجب ان تكون أفعالكم وأقوالكم أن تكون أسوة. فان كانت لكم هذه الخصوصيات ولم تنحرفوا عن واجباتكم فلن يضرركم ضلال الآخرين.

(١) سورة المائدة، الآية (١٠٥).

ليس معنى الآية أن تهتموا بأنفسكم فقط ولا علاقة لكم بالآخرين، لأنه إن لم تكن لكم علاقة بالآخرين فلن تكونوا مهتدين. إذا لم يقم الانسان بمهامه الفردية والاجتماعية فلن تكون ثمة هداية. يقول عز وجل انكم اذا اهتديتم وأديتم واجباتكم الالهية حتى بالنسبة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وكنتم مصداقاً لـ ﴿والحافظون لحدود الله﴾^(١) فأنتم مهتدون في هذه الحالة وعندئذ لا يضركم من ضل اذا اهتديتم.

وعليه، فاذا قال في سورة المائدة ﴿عليكم انفسكم﴾ فانه يقول في سورة الروم ﴿فطرة الله﴾ وكتاهما منصوبة للفعل بمعنى «الزموا أنفسكم، الزموا فطرة الله» وقال ثقوا أن ماضي ومستقبل البشر كان كما هو الآن وسيكون، ولن يتبدل أبداً ﴿لا تبديل لخلق الله﴾ فلا تظنوا أن الفطرة الانسانية ستبدل في المستقبل القريب أو البعيد.

ومن أجل أن لا يصاب الانسان بالغفلة كرر الله هذا الأمر ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً﴾ أي كن محترساً وأنت تمشي وسطاً لكيلا تنزل نحو الحواشي، لأن الذي لا يمشي على صراط الدين ويسير على أطرافه معرض لخطر السقوط في أي لحظة.

كان هنالك بعض المسلمين الظاهريين في المدينة وكانوا يشتركون في محافل الرسول الأكرم ﷺ. وكلما صدرت أوامر ورسائل لا تخلو من الصعوبة التفتوا الى الحاضرين في المجلس ليروا هل أنهم يراقبونهم أم لا؟ فان كان هناك من يراقبهم لم يتركوا المجلس وظلوا جالسين، اما ان شاهدوا أن الحاضرين مشغولين بالرسول الأكرم وغير متبتهين لهم خرجوا من

(١) سورة التوبة، الآية (١١٢).

المجلس وانصرفوا عن الاستماع لكلام الله والامثال لأحكامه .

وخلاصة معنى آية الفطرة هي أنكم أقيموا طريقكم هذا بشكل حنيف .
أولاً، وثانياً اعلّموا ان اجتياز هذا الطريق مطابق لفطرتكم التي خلق جميع
الناس عليها وثالثاً اعلّموا ان الفطرة التوحيدية جوهرية لا تقبل التغيّر والتبدّل
ورابعاً اعلّموا أن حاجتكم للعقيدة حاجة ضرورية، والاسلام وحده يستطيع
أن يرفع احتياجاتكم الدينية ويكون قيماً عليكم وخامساً انبؤا الله أثناء سيركم
في الصراط المستقيم ﴿مبين إليه﴾^(١) .

«الأنابة» إما بمعنى العودة المتكررة أو بمعنى الانقطاع الكامل الى الله
سبحانه وهذا لا يتيسر الا بفصم كل العلاقات مع كل الجوارح والجوانح .

جاء في المناجاة الشعبانية «إلهي هب لي كمال الانقطاع اليك»^(٢) لو
كان للانسان كمال الانقطاع الى الله لما أحس بالميل والنزوع نحو الأرض
ولما اتجه بثقله نحو عالم الطبيعة ولما شمله توبيخ ﴿ثاقلتم الى
الأرض﴾^(٣) ولا كان مصداقاً لقوله ﴿أخلد الى الأرض﴾^(٤) .

إذا تحرر الانسان من سلاسل الهوى وأسر عبودية النفس حيث ان
ضمن برنامج الرسول الكريم ﷺ هو ان ﴿يضع عنهم اصرهم والاغلال
التي كانت عليهم﴾^(٥) لاستطاع الحركة والطيران بكل خفة، والانقطاع عن
الطبيعة والانبابة الى ما وراء الطبيعة «تخففوا تلحقوا»^(٦) «نجى

(١) سورة الروم، الآية (٣١) .

(٢) مفاتيح الجنان، المناجاة الشعبانية .

(٣) سورة التوبة، الآية (٣٨) .

(٤) سورة الأعراف، الآية (١٧٦) .

(٥) سورة الأعراف، الآية (١٥٧) .

(٦) نهج البلاغة، الخطبة ٢١ .

المخففون»^(١) والانابة أعلى من التوبة. اذا انقطع الانسان عن سوى الله، لا يستطيع الأجنبي أن يجتذبه أبداً.

عندما شب حريق في بيت علي بن الحسين عليه السلام وحاول الجميع أن يطفئوا الحريق سألوا الامام بعد أن فرغ من صلاته ألم تنتبه الى الحريق؟ فقال انني كنت مشغولاً بإطفاء نار أخرى هي جهنم وغضب الله سبحانه «شغلتنى نار الآخرة عن نار الدنيا» وهذا الانقطاع من سوى الله والعودة التامة اليه تسمى بالانابة.

كان يحاول بعض أطفال الأئمة المعصومين أن يلعبوا ويمرحوا اثناء صلاة آبائهم لعلمهم أن الأئمة لن ينتبهوا اليهم في تلك الحالة.

ان الأثر المهم للانابة والتي تعني الرجوع بنوبات متعددة الى الله أو الانقطاع الكامل اليه سبحانه، هو أن الشيطان لا يطرق باب الانسان المنيب الى الله.

ومن أجل ظهور حالة الانابة وردت أوامر متعددة يمكن أن نعتبر الصلوات الخمس احداها فقد قال الله تعالى ﴿أقم الصلاة لدلوك الشمس الى غسق الليل وقرآن الفجر﴾^(٢) أي أقم الصلاة وقت الظهر والعصر والمغرب وزوال الظلام وغسق الليل وعند الفجر، وليكن انقطاعك الى الله في مختلف الحالات.

﴿وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل﴾^(٣) وكذلك الآيات

(١) كشف الأسرار، المجلد ١، ص ٢٨١.

(٢) سورة الاسراء، الآية (٧٨).

(٣) سورة هود، الآية (١١٤).

الأخرى التي نزلت في الصلاة أو العبادات الأخرى، تدل جميعاً على أن الانابة ضرورية من أجل حراسة الايمان من أخطار النسيان والغفلة.

﴿مبنيين اليه واتقوه﴾ أي خافوا من الله، إذن فالتقوى لا تختص بالاحتراز من نار جهنم، بل أرفع منها هي التقوى من الله سبحانه، لأن مصدر التقوى من النار هو الخوف على النفس، لكن تقوى الله مصدرها الخوف العقلي.

على هذا الأساس، هنالك فرق عميق بين الآية ﴿فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة﴾^(١) وبين الآية ﴿اتقوا الله حق تقاته﴾^(٢). إذ ان العبادة تكون أحياناً بقصد النجاة من جهنم وأحياناً بقصد الوصول الى المحبوب الحقيقي، ان تقوى الانسان المنقطع الى الله هي تقوى من الله. ومن لم يصل الى هذا المقام الشامخ فتقواه من النار.

ولأن الصلاة من أهم عوامل الاتجاه نحو الفطرة التوحيدية والانقطاع الى الله لذلك قال الله في نفس هذه الآية ﴿وأقيموا الصلاة﴾ ولهذا قال رسول الله ﷺ «قرة عيني في الصلاة»^(٣) فتلك الدموع الباردة قرة عين تسيل أثناء الانبعاث الروحي.

﴿ولا تكونوا من المشركين﴾^(٤) ولا تشركوا بالله، سواء الشرك الجليّ أو الشرك الخفي، لأن الشرك يصدىء وجه الفؤاد عن الدين الالهي، الشرك هو أن تكون جنيفاً مقابل أن تكون حنيفاً، الشرك هو القعود مقابل القيام.

(١) سورة البقرة، الآية (٢٤).

(٢) سورة آل عمران، الآية (١٠٢).

(٣) الخصال، الحديث رقم ٢١٧.

(٤) سورة الروم، الآية (٣١).

الشرك هو ترك الفطرة مقابل الأخذ بها. الشرك هو السعي والجهد لدفن الفطرة، والمشرك معني بالآية ﴿وقد خاب من دسآها﴾^(١). الشرك هو الخروج من تحت غطاء دين الفطرة القيم.

إذا خرج شخص من تحت الولاية الحقيقية القيمة فإنه يقع أسير الضياع، كما جاء هذا في حق قوم موسى عليه السلام ﴿أربعين سنة يتيهون في الأرض﴾^(٢) من الممكن أن يعيش البعض قرناً كاملاً على الأرض، ولكن في حالة ضياع وتيه. وقد جاء ذكر الأربعين سنة كجانب من تاريخ قوم موسى عليه السلام.

ورد في القرآن الكريم أن هنالك من يتمنى لو يعيش ألف سنة ﴿لو يعمر ألف سنة﴾^(٣) وهذا هو الدعاء الذي يقوله الناس لبعضهم في عيد النوروز أن «عش ألف سنة» وربما كان هذا الدعاء قد دخل أرض الحجاز آتياً من ايران فكانوا يقولون لبعضهم «عش الف نيروز».

يقول القرآن الكريم أنهم حتى لو عاشوا ألف سنة فلن يستطيعون النجاة من العذاب الالهي ﴿وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر﴾^(٤) لأنه لا بد من الموت حتى لو جاء بعد ألف عام من الحياة المرفهة والفاسدة ولا بد كذلك من الجزاء المرّ، فمثل هذه الحياة التي تمتد ألف سنة كمثّل الأربعين سنة التي قضاها بنو اسرائيل في التيه، لأن الشرك هو الضياع في الحياة والحيرة في عالم الطبيعة، لذا قال عز وجل ﴿ولا تكونوا من

(١) سورة الشمس، الآية (١٠).

(٢) سورة المائدة، الآية (٢٦).

(٣) سورة البقرة، الآية (٩٦).

(٤) سورة البقرة، الآية (٩٦).

المشركين ﴿﴾ .

ولأن كلمة التوحيد سبب في توحيد الكلمة وكلمة الشرك والتفرقة سبب في كل اختلاف وتفرقة، فقد قال الله في تعريف أهل الشرك ﴿من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون﴾^(١) .

إن أحكام الدين الالهي لا تتفق أبداً مع النزعات النفسية، فلا هي تتحد معها ولا هي تقبلها في ضمنها، من أهم برامج الدين الالهي محاربة الهوى، فكيف يمكن أن ينسجم هو (الدين) مع الهوى؟ «جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم» لا تسمحوا للأهواء بأن تفرق دينكم .

وخلصا البحث هي أن الدين مطابق لمطالب الانسانية والفترة البشرية ولا يفرض عليهم شيئاً أبداً . والسالكون الذين اجتازوا مقداراً من صراط الدين المستقيم ورفعوا الموانع من أمامهم، سيواصلون هذا الطريق بمحبة ونشاط أكثر ﴿والذين آمنوا أشد حبا لله﴾^(٢) لأنهم قد عثروا على محبوبهم . فكما يحب النبات العاطش الماء الزلال، يحب الانسان العارف الدين الالهي .

يقول الامام السادس عليه السلام اننا نعبد الله على أساس المحبة وهذا المقام المنيع لا يتأتى للجميع «وهذا مقام مكنون لا يمسه الا المطهرون»^(٣) . اذ طهر شخص نفسه وغسل فطرته من غبار التعلق بالدنيا، فستدخل محبة العبادة الالهية الى قلبه وعندها ستكون تمتات مناجاته هي «إلهي من ذا الذي ذاق حلاوة محبتك فرام منك

(١) سورة الروم، الآية (٣٢) .

(٢) سورة البقرة، الآية (١٦٥) .

(٣) تفسير الميزان، ج ١، ص ٣٥ .

بدلاً»^(١) وستكون أنعام تضرعه «اللهم أذقني حلاوة محبتك» .

إن مثل هذا الأئين يستتبع لذة العبادة، لأن السالك الالهي يلتذ بدينه كما يلتذ الظامىء بالماء الزلال . وإذا كنا لا نلتذ بعبادتنا فلأننا كدّرنا فطرتنا، ولو غسلنا الفطرة من كل الشوائب لأحسننا بلذة الدين .

أرجو أن توفّق كلّ فطرة وكل السرائر والنفوس الى تقبل المعارف الالهية وسلوك الطريق المستقيم بحق محمد وآل محمد عليهم السلام . ورحم الله معلمينا ومؤلفي العلوم الالهية برحمته الواسعة .

غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

(١) مفاتيح الجنان ، مناجاة المحبين .

فطرة الإنسان تطلب الدين الإلهي

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله وصلى الله على جميع الأنبياء والمرسلين والأئمة الهداة المهديين سيما خاتم الأنبياء وخاتم الأوصياء عليهما آلاف التحية والثناء.

ذكرنا آية سورة الروم في سياق البحث حول فطرة الدين، وكان مفاد الآية، أن ليس الاعتقاد بمبدأ العالم والميل نحو الله سبحانه هو الفطري فحسب، بل إن الدين أي الإسلام ومجموعة المعارف والأحكام والقوانين الإلهية فطرية عند البشر أيضاً.

إذا كانت بعض الآيات القرآنية تعتبر الاعتقاد بالله أمر فطري، فإن هذه الآية لا ترى الاعتقاد بالله هو الأمر الفطري الوحيد بل إن مجموعة المعارف والذاتية الإلهية أمور فطرية كذلك. تقول الآية ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾^(١) فبعد أن أثبت الله سبحانه بالأدلة العقلية

(١) سورة الروم، الآية (٣٠).

أن ثمة مبدأ ومعاد، قال؛ الآن وقد ثبت أن هناك مبدءاً ومعاداً وكل انسان صادر عن ذلك المبدأ وعائد اليه، اذن ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً﴾.

الحنيف هو الماشي على الوسط أو المتوسط. وقد ذكرنا معاني كلمات هذه الآية في البحث السابق. بعدها ومن أجل أن يوضح القرآن الكريم أن هذا الدين وقبوله ليس أمراً مفروضاً على الانسان بل هو مطابق لميوله الباطنية، يقول ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾ أي أن هذا الدين الذي أمرت أن توجه اليه روحك ليس تكليفاً مفروضاً من خارج روحك، وانما جاء تشريع هذا الدين تلبية ايجابية لندائك الداخلي.

فطرة الله بمعنى «إلزم فطرة الله» أو «خذ فطرة الله التي فطر الناس عليها» يقول الله سبحانه تارة ﴿خذوا ما آتيناكم بقوة﴾^(١) أي خذوا الدين الالهي بالقوة فكرية وبدنية ويقول تارة أخرى ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾ أي خذوا دين الله الذي هو نفس الفطرة.

ومعنى أخذ دين الله هو أن لا تتركوا فطرتكم. اذن، فاذا قال القرآن إلزموا دين الله فمعنى ذلك أن لا تتركوا فطرتكم، وذكرنا في البحوث السابقة أن ما ورد في سورة المائدة ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم﴾^(٢) يشابه ما ورد في سورة الروم حيث يقول عز وجل ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾.

إن كلمة ﴿أنفُسكم﴾ في هذه الآية منصوبة لاسم الفعل ﴿عليكم﴾ أي «الزموا أنفسكم» فلا تنفصلوا عن أرواحكم وسيروا في مسيرها، وهذا يشير الى أن للروح الانسانية الناطقة صراط اذا اجتازه السالك وصل الى غاية

(١) سورة البقرة، الآية (٦٣).

(٢) سورة المائدة، الآية (١٠٥).

الخلقة، وبالانفصال عن هذا الصراط يبتعد الانسان عن غاية الوجود.

حين يقول الله عز وجل في سورة المائدة ﴿عليكم أنفسكم﴾ فليس معنى هذا أن عليكم الاهتمام بأنفسكم فقط ولا شأن لكم بالآخرين، لأن الانسان اذا كان ذا محور واحد ولم يتحرك الا في مدار نفسه ولم يفكر الا بذاته، فانه لن يهتدي والحال أن القرآن الكريم يقول ﴿لا يضركم من ضل اذا اهتديتم﴾^(١).

انكم لن تهتدوا الا في حالة عملكم بواجباتكم الفردية وكذلك الاجتماعية اذا لم يفكر الشخص الا بنفسه ولم يعنه اصلاح الآخرين ولم يسع الى حل مشاكلهم فانه لم يقم بواجباته الاجتماعية، واذا لم يقم بواجباته الاجتماعية فانه غير مهتد.

ان قوله تعالى ﴿اذا اهتديتم﴾ يعني اذا قمتم بواجباتكم تجاه انفسكم ومجتمعكم، واهتديتم بالاضطلاع بكل هذه الواجبات، فلن يضركم الضالون الذين لم يرافقوكم في سفركم الالهي. اذن فليس مفاد الآية الاهتمام بالذات فقط واهمال الآخرين.

ان الله تعالى اشترى من الانسان المؤمن نفسه وماله، ومع ان الانسان ليس المالك الحقيقي لنفسه وماله، لكن اللطف الالهي يعتبر الانسان بمثابة المالك ﴿ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم﴾^(٢) ان الانسان في الحقيقة وبصفته أمين لله يرّد الوديعة الالهية الى الله سبحانه. ومن أجل ترغيب البشر قال القرآن لهم؛ بيعوا أنفسكم وأموالكم.

(١) سورة المائدة، الآية (١٠٥).

(٢) سورة التوبة، الآية (١١١).

إن بذل الروح والمال في سبيل الله لا يمكنه أن يكون بيعاً حقيقياً،
فحين يردّ انسان أمين الأمانة الى صاحبها، لا يقال انه باع شيئاً لشخص ما،
بل يقال أنه رد الأمانة اليه . ان أرواحنا وأموالنا أمانة الهية وعلينا إرجاع هذه
الأمانة الى الله، غير أن اللطف الالهي يعبر عن إرجاع الأمانة بالبيع، ولهذا
يحدد ثمناً وقيمة يعطيها للانسان ويقول ﴿ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم
وأموالهم﴾ .

كما ان اللطف الالهي يعبر عن فضل الله بالأجر والثمن، فانه يقول
إنكم إذا قمتم بواجباتكم كان أجركم على الله . في حين أن الانسان يعمل من
أجل تكامله، ومع ذلك فانه يتقاضى الأجر من الله . تأتي كلمة الأجر والثمن
في حالة أن الانسان يعمل لغيره ويقبض منه الأجر . لكن اذا عمل الانسان من
أجل كمال نفسه وحصل على ثواب آخر (غير الكمال) من فضل الله سبحانه
وتعالى ونال من فيوضاته، فان حقيقة هذا الفيض هو الجود وليس الأجر .
لكن الله ومن أجل ترغيب السالكين يصف ذلك الفيض الجديد بأنه أجر .

والخلاصة هي أن الله قال في سورة التوبة أنه يهب الجنة للمؤمنين في
شراثة لأرواحهم وأموالهم ﴿بأن لهم الجنة﴾^(١) ثم يقول لأنهم باعوا أنفسهم
وأموالهم لله، فعليهم أن يجاهدوا في سبيل الله، فإما ان يعودوا منتصرين وقد
حطموا العدو الكافر وإما أن يشربوا كأس الشهادة، وهذا الوعد مذكور في
كل الكتب السماوية كالتوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله
فاستبشروا بهذه التجارة أيها المؤمنون ﴿يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون
وعداً عليه حقاً في التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله

(١) سورة التوبة، الآية (١١١).

فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ﴿^(١)﴾ انكم حين تبايعون الله فمعنى ذلك أنكم بعتم أنفسكم وأموالكم لله واعلموا أن الله سيثيبكم ثواباً جزيلاً ازاء بيعتكم هذه .

إذن، يجب أن تصرف البضاعة المبيعة لله حسب أوامره، وأهم مجال لصرفها هو مجاهدة المنحرفين والملحدين، كما أشرنا الى ذلك . يشرح الله جانباً من تكاليف المبايعين لله في الآية اللاحقة على النحو الآتي ﴿التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون﴾ ^(٢) أي أنهم أناس يؤدون واجباتهم الشخصية فهم من أهل العبادة والركوع والسجود والتوبة والانابة . أنهم يطهرون ذنوبهم وزلاتهم بالتوبة وبعد أن يصلحوا أنفسهم يبدؤون باصلاح المجتمع .

﴿الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر﴾ ^(٣) فهم من أجل اصلاح المجتمع ونهيه عن الفساد والقبح لا يكتفون بالخطابة والكتابة وما شاكل من أساليب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . بل يحاولون بقصد تحقيق المعروف في الواقع الخارجي والحفاظ على طهارة الأجواء الحياتية من شوائب المعاصي، أن يمنعوا دخول الشر إلى هذه الأجواء .

﴿والحافظون لحدود الله﴾ ^(٤) أي أنهم الحافظون لحدود الدين والأحكام الالهية، بمعنى أنهم يساهمون في شرح هذه الحدود والأحكام وتفهمها للمجتمع كما يسعون كذلك في تنفيذ واداء هذه الأحكام . واذا كان

(١) سورة التوبة، الآية (١١٢) .

(٢) سورة التوبة، الآية (١١٢) .

(٣) سورة التوبة، الآية (١١٢) .

(٤) سورة التوبة، الآية (١١٢) .

الشخص ممن يعرفون واجباتهم في هذه المجالات المذكورة فانه من المهتمين .

ان الفرق بين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبين الحفاظ على حدود الله هو أن الانسان في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يحاول أن يؤدي الآخرون واجباتهم الالهية . الأمر بالمعروف هو أن يدعو الانسان الآخريين الى القيام بواجباتهم ، والنهي عن المنكر هو أن يصد الآخريين عن القيام بالمحرمات ، ولكل من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مراتب معينة ، أولى المراتب هو الانزجار والامتناع القلبي وآخر المراتب هو الضرب والجرح وما شاكل ، ويجب أن تنفذ مراتبه العملية بإذن ولي أمر المسلمين . ان التأثير المرجو من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو أن لا تقع المعاصي . ولكن حين لا يؤثر ذلك في أحد الأشخاص واستمر في ارتكاب المحرمات ، عندئذ يأتي دور الحفاظ على الحدود الالهية بأعمال القصاص وباقي الحدود والتعزيرات الالهية التي يتولى تنفيذها المسؤولون القضائيون .

الفرق بين تنفيذ الحدود والتعزيرات وبين المرحلة القاسية من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو أن الأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر يأتيان من أجل الحيلولة دون المعصية . لكن اعمال الحدود والتعزيرات يأتي لتأديب ومعاقبة العاصي . يقال عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : لا تفعل بينما يقال عند إجراء الحدود والتعزيرات : لماذا فعلت كذا؟ ولأن المرتبة الأخيرة من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وحسب فتاوى بعض كبار الفقهاء هي الضرب وربما القتل ، لذا يجب أن تكون بإذن ولي أمر المسلمين ، أي لو أراد انسان أن يرتكب معصية ويستطيع آخر أن يمنعه عن

ذلك بضربه أو جرحه ، فيجب عليه تطبيق هذه المراحل من النهي عن المنكر بإذن من ولي أمر المسلمين ، لا بصورة ارتجالية ، فقد يؤدي هذا الى الفوضى والفوضى بدورها من أقبح مظاهر الفساد والمعصية .

والخلاصة هي أن الانسان المهتدي هو من يقوم باصلاح المجتمع بعد أن يصلح نفسه من جوانبها المختلفة . أي هو من يسعى في مجال دفع الذنوب وكذلك في مجال رفع الذنوب ، ولا يسمح للمخالفات أن تحصل ، واذا حصلت المعاصي فيحاول أن يعاقب ويؤدب العاصي عن طريق الحدود والتعزيرات . والعمل بمجموعة هذه التكاليف يسمى «الاهتداء» أي لو كان الشخص مجدداً في تكاليفه الشخصية وساعياً في ارشاد وهداية الآخرين . وعاملاً في الحفاظ على الحدود الالهية فانه بذلك من المهتمين .

يقول الله عن هذه الفئة الجامعة للواجبات المذكورة ﴿ لا يضركم من ضل اذا اهتديتم ﴾ إذن فعبارة ﴿إذا اهتديتم﴾ ليست بمعنى أنكم صونوا أنفسكم ولا شأن لكم بالآخرين ، بل ان اهتداءكم يكمن في ادائكم جميع المهام الشخصية والاجتماعية ، واداء المهام الاجتماعية هو اهتمام بالنفس كالامثال للأوامر الفردية .

إن الذي يسعى للقيام بوظائفه الاجتماعية كما يقوم بوظائفه الشخصية هو في الحقيقة يسعى لتنفيذ مطالبه الباطنية وهذا ما قاله عز وجل ﴿عليكم أنفسكم﴾ أي لا تتركوا أنفسكم ، تحركوا في أنفسكم ، سافروا في منازل أرواحكم واكتسبوا الصفات الكمالية لأرواحكم واحدة تلو الأخرى ، حتى تصلوا الى مرتبة لقاء الله .

إذن فعليكم أنفسكم تعني الزموا أنفسكم ، وانفسكم هنا منصوبة لاسم

الفعل . وفي سورة الروم حيث قال ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾ يعني «خذ فطرة الله» «الزم فطرة الله» أي أن الدين الالهي هو مرادكم الباطني ولم يفرض عليكم من خارج ذواتكم، بل لقد منحتم ما أرادته فطرتكم .

فمثلاً حين يؤمر النبات العطشان بامتصاص الماء الزلال فليس هذا الأمر الطبيعي قسريّ بالنسبة له، وإذا قيل للانسان الظامىء اشرب الماء العذب فليس في هذا قهر له، لأن الماء العذب هو المراد الباطني للانسان الظامىء وبشربه ترتفع كل الآلام التي يسببها له الظمأ .

من قول الله في سورة الشمس ﴿ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها﴾^(١) يتضح أن للنفس سلسلة من الشرور وسلسلة من الحسنات المعينة لأنه لم يقل «الفجور والتقوى» بل قال ﴿فجورها وتقواها﴾ مما يدل على انه ليست جميع الأعمال جديرة بالانسان وليست جميع الأعمال قيحة بالنسبة للانسان . بل ان هنالك سلسلة من الأعمال جديرة ومناسبة للانسان، وهنالك سلسلة من الأعمال غير مناسبة له على هذا الأساس فثمة فجور وتقوى في انسانية الانسان . وهذا الفجور وهذه التقوى هما ما يجب وما لا يجب المودعة في الفطرة، أي أن جذور ما يجب وما لا يجب هي فجور وتقوى النفس التي علم الله أصولها الأولية للانسان عن طريق الالهام الغيبي . وبيّن خطوطها الرئيسية والفرعية بواسطة الوحي النازل على الأنبياء ﷺ . أي أن الوحي التشريعي أحياء وأوضح فجور وتقوى الانسان بصورة كاملة وذكر الانسان بهذا، لذا قال إزم فطرتك أي إغتنم فجورك وتقواك اللذان فسرناهما لك على أفضل صورة لأنهما منسجمان مع ميولك الذاتية، وهذا كالأمر الموجّه الى النبات العطشان بأن ينتفع من ماء العين الموجودة الى

(١) سورة الشمس ، الآيتين (٨٧) .

جانبه . أو أن يحترس من السم الموجود الى جانبه . إن هذه الارشادات ليست أبداً فرائض قسرية زائدة بالنسبة للنبات ، بل هي هداية له نحو الهدف الذي يطلبه ونحو الطريق الذي يجب أن يطويه . لهذا يقول عز وجل أننا ألهمنا النفس فجورها وتقواها .

يقول في سورة المائدة إلزموا أنفسكم ويقول في سورة الروم خذوا بفطرتكم الالهية . ويقول في آية أخرى ﴿صبغة الله﴾^(١) فيعتبر الاسلام صبغة الهية أي أن الاسلام صبغة الله وهي أفضل صبغة ، وليس هناك أفضل من الذات الالهية المقدسة تستطيع أن تصبغ الروح الانسانية ﴿ومن أحسن من الله صبغة﴾^(٢) لأن الله قد خلق البشر بصبغة التوحيد وبلون عبادة الواحد . إن هذه الصبغة هي نفس انسانية الانسان وليست منفصلة عن ذاته ، فمثلاً قد يصبغ الانسان ورقة معينة ، وقد يبصر وردة بلون معين . فالوردة لم يصبغها أحد ، بل لقد خلق الله الوردة وخلق باطنها وأساسها بحيث تكون ملونة وزاهية . يعتبر القرآن الكريم الاسلام الصبغة الالهية للنفوس البشرية ، بحيث أن الله عندما خلق الانسان خلقه بلون النزوع نحو الدين . وكل لون غير اللون الالهي ، فهو زائف وكاذب .

كما ان للورود ألوان معينة فان لإنسانية الانسان لون خاص منحه الله سبحانه للانسان وليس هناك من هو أفضل وأحسن من الله صبغة ولوناً ﴿ومن أحسن من الله صبغة﴾ وإن أفضل لون تلون به البشر هو لون إلهام القبح والجمال والملهم هو الله سبحانه ولا أفضل ولا أصح من الله قولاً وكلاماً

(١) سورة البقرة ، الآية (١٣٨) .

(٢) سورة البقرة ، الآية (١٣٨) .

﴿ومن أصدق من الله قيلاً﴾^(١) .

والخلاصة هي أن مجموعة الآيات المذكورة تنبّه الانسان بمقتضى فطرته بأنك أيها الانسان مسافر نحو الغاية الأبدية . وليست جميع الطرق متساوية بالنسبة لك ، لأن للمسافر هدف معين لا أهداف متفرقة . وبين الانسان وذلك الهدف يوجد طريق واحد معين لا طرقاً متفرقة ، لهذا يقول عز من قائل ﴿ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾^(٢) . وإن ذلك الهدف المقدس وهذا الطريق القويم والمستقيم هو ما تقتضيه فطرة الانسان ولا يفرض عليه قسراً أبداً .

هل يمكن للنفس الانسانية أن تكون لها ميول متساوية بالنسبة لجميع الأهداف؟ هل يمكن أن يكون ميل الانسان متساوياً ازاء جميع الأهداف ولا يوجد في دخليته نزوع نحو هدف معين؟ كلاً أبداً، بل ان لباطن الانسان حاجة فطرية نحو كمال معين . وليست جميع الأهداف وجميع السبل متساوية بالنسبة له أبداً، إذن فالانسان يطلب بفطرته طريقاً يهديه الى هدفه النهائي وهذا الطريق هو الدين .

يقول القرآن أن الاسلام هو مراد فطرتكم والدين فطريّ لديكم ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾ لقد وضحنا سابقاً البحوث الأخرى المتعلقة بثبات الفطرة واستحالة تغييرها وان انسانية كل البشر من نوع واحد وستبقى ثابتة في المستقبل كما كانت في الماضي وكما هي عليه الآن، وبالنتيجة فان الدين سيبقى على حاله . وقد منّا أيضاً بحثاً حول قيمومة الدين الالهي ﴿ذلك الدين

(١) سورة النساء، الآية (١٢٢) .

(٢) سورة الأنعام، الآية (١٥٣) .

القيم ﴿^(١) في التعقيب على آية الفطرة.

ضمن نفس هذا الموضوع، جاء في أول سورة الكهف ﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً * قيماً﴾ ^(٢) أي ليس هنالك أي انحراف واعوجاج في هذا الكتاب، لهذا كان قيماً على الآخرين، مر بنا في المقالات السابقة كيف أن الدين الالهي قيم على البشر واتضح بجلاء كيف أن المجتمع بلا دين كالطفل بلا ولي ومشرف، ولا قيام ولا قوام للانسان بغير الدين فان دين الانسان هو الأساس الذي يجعل الانسان مستقيماً ويحافظ على استقامته وأن القيم على الانسان يجب أن يكون مصوناً من أي اعوجاج، لهذا قال ﴿ولم يجعل له عوجاً﴾ ولأنه خالٍ من أي اعوجاج ولأنه مستقيم وقائم فهو قيم على البشر.

إن الفرق بين الاستقامة والقيام كالفرق بين الوضع بمعنى جزء المقولة والوضع بمعنى تمام المقولة. المستقيم غير القائم. المستقيم هو الشيء الذي تخلو أجزاؤه الداخلية من الاعوجاج. فمثلاً حين ينام الانسان على ظهره أو على بطنه أو على جنبه أو يأخذ وضع الانتكاس فانه مستقيم في كل هذه الحالات ولكنه غير قائم في أي منها لأن القيام هو الوضع بمعنى تمام المقولة فتقاس فيه أوضاع الأجزاء بالنسبة لبعضها ومجموعها بالنسبة للخارج. أما الإستقامة فهي الوضع بمعنى جزء المقولة. أي لا يلاحظ سوى وضع الأجزاء بالنسبة لبعضها. أن يكون الشيء مستقيماً هو أن لا يكون لأجزائه الداخلية أي اعوجاج. وان يكون الشيء قائماً هو أن تكون أجزاؤه الداخلية بلا اعوجاج وأن يكون له وضع خاص بالنسبة للعالم الخارجي

(١) سورة الروم، الآية (٣٠).

(٢) سورة الكهف، الآيتين (١و٢).

كذلك. كأن يكون الرأس الى الأعلى والأقدام الى الأسفل، فإذا لم تكن للأجزاء الداخلية للانسان أي اعوجاج لكنه كان نائماً على ظهره، فإن هذا الانسان مستقيم ولكنه ليس قائماً. اذا كان شخص ما منكوس الرأس فهو مستقيم ولكنه غير قائم. في القيام يلاحظ وضع الأجزاء بالنسبة لبعضها ووضع مجموعها بالنسبة للأمر الخارجية.

إن ما يلزم قيمومة القرآن على البشر هو أن يكون القرآن ذاته مصنوعاً من الاعوجاج من كل النواحي. فيكون مستقيماً من الناحية الداخلية وقائماً من الناحية الخارجية ويجب أن يكون مصنوعاً من الضرر تماماً. ولأن القائم مصنوع من كل اضطراب وعوج سواء في داخله أو من خارجه، فهو مقتدر وصلب ازاء كل ألوان الشبهة والاشكال. ان اكثر حالات الانسان قدرة وقوة من بين جميع حالاته هي حالة القيام. ومع ان للانسان القدرة على الدفاع عن نفسه في جميع الحالات، سواء حين يكون نائماً على جنبه أو جالساً أو ما شابه، ولكن أقوى وأقدر الحالات الدفاعية للانسان هي حالة القيام.

ولأن القيام أهم حالة من الحالات الانسانية. لذا عبّر القرآن الكريم عن الموعدة الالهية بصفتها قيام لأجل طاعة الله سبحانه ﴿إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله﴾^(١) وليس المراد من هذا القول هو القيام الصوري من أجل الصلاة فقط أو من أجل مجالس الدرس وما شاكل، بل المراد هو أن يكون لكم قيام وصمود القيام والصمود والمقاومة هي الأمور المهمة، وليس القيام الصوري. إن المقاومة تشمل الاستقامة التي لا ينفذ اليها الاعوجاج الداخلي وتضمن كذلك السلامة الخارجية بحيث لا تمسها الأضرار والاصابات الخارجية.

(١) سورة سبأ، الآية (٤٦).

والخلاصة هي؛ لأن هذا الكتاب قائم فهو قيم على البشر ويستطيع بكفاءة أن يحفظكم ويعزّكم، إن منكوسي الرؤوس ينظرون الى الطبيعة ويميلون الى التراب، وتنصب كل جهودهم في أن يستحصلوا من التراب ذخائر يزينون بها الأرض ويذهبون من هذه الدنيا بأيدي فارغة. يعتبر القرآن الكريم هذه الفئة فئة ذليلة منكسة الرؤوس. ولأن رؤوسهم منحنية، فان مهمهم الوحيد هو استخراج شيء من الأرض يزينوها به، وللأسف فانهم يعودون بأيدي خالية.

ان من يصب كل مساعيه في الاثراء عن طريق التدجين أو الزراعة أو الصناعة ومن أجل أن تكون له زينة وزخرف وان يحيي الأرض لا في سبيل خدمة عباد الله، بل في سبيل التكاثر والتفاخر، وبعد كل هذا يعود بأيدي خالية، إنّ مثل هذا الشخص يشبه الحيوان المنكس الرأس الذي لا يرفع رأسه الى الأعلى أبداً.

يقول الشاعر: فليكن سيرك كما الصنوبر والسنابل الى الأعلى، فلا تنكس رأسك الى الأسفل كالبنفسج.

ولأن الانسان يحشر حسب همته وهدفه الباطني، فان هذا الانسان الترابي المادي الناظر الى التراب دوماً سيحشر يوم القيامة منكس الرأس أيضاً ﴿إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم﴾^(١).

أما الذي لا يخضع لسلطان التراب ولا يتعامل معه الا كوسيلة مفيدة لتخليص نفسه والآخريين من المشكلات الطبيعية، فذلك هو الانسان وهو المتحرر من النشأة والطبيعة الحيوانية، انه قائم وبامكانه أن يكون قيماً على

(١) سورة السجدة، الآية (١٢).

الآخرين .

جاء في السيرة التبروية للامام السادس عليه السلام انه كان يمشي فوجد في طريقه رجل يعمل في احدى الابنية ويحاول أن يحدث ثقباً في أحد الجدران، فسأله الامام عما يفعل، وأجابه اني أثقب هذا الجدار وهو جدار المطبخ ليخرج منه دخان الطبخ، فقال الامام بل قل انني أريد أن أحدث هذا الثقب لأبصر نجوم السماء في الليل وأعلم متى يحين موقع صلاة الليل . أي لا يقتصر تفكيرك على اخراج دخان المطبخ من البيت، بل فكّر أيضاً في أن تدخل أنوار السماء الى البيت ويكون من نصيبك التهجد واحياء الليل .

هذه هي الهمة العالية والرفعة وهذا هو القيام والقيمومة والنظر الى السماوات والقول ﴿ربنا ما خلقت هذا باطلاً﴾^(١) . واذا انضوى الشخص تحت ولاية القرآن الكريم فانه سيسلم من كل الوسوس الداخلية والدعايات الخارجية، لأن نتيجة اتباع الكتاب المصان من الاعوجاج هي الصيانة من الاعوجاج والانحراف وبهذا يستطيع الانسان ترويض عدوه الداخلي وطرده عدوه الخارجي فقد ورد «جاهدوا أهوائكم كما تجاهدون أعدائكم» إذا أزال الانسان كل اعوجاجاته الداخلية وكل انحرافاته الخارجية فسيكون عندها قائماً، وإذا كان قائماً فسيصل الى هدفه .

على هذا الأساس فالدين الالهي هو سبب قيام البشر والمجتمع المتدين هو الذي يتمكن من القيام لله سبحانه، لقد جعل الأنبياء الناس قائمين أولاً وأرشدوهم الى القيمين عليهم . بعد ذلك وابتاع الناس للأنبياء قام هؤلاء الناس ضد طغاة عصرهم . واذا خلت أمة من الدين فستقع أسيرة

(١) سورة آل عمران، الآية (١٩١).

الاعوجاج، لأن أهواءها الداخلية ستنتصر عليها كما سيهاجمها الأعداء الخارجيون كذلك .

يذكر الله سبحانه سبب قيمومة القرآن بأنه ﴿لم يجعل له عوجاً﴾ قيماً لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً^(١) أي لأن القرآن مصون من كل ألوان الانحراف والاعوجاج فله الولاية والحراسة على البشر . واتباع هذا الولي الالهي يعتبر من الحاجات الذاتية للناس . وكما مر بنا في البحث الماضي فان الذين يهتمون بفطرتهم اهتماماً كاملاً ولا يغفلون عنها سيدخل حب الدين الى قلوبهم ويذوقون لذته ، وسيكون الله تعالى وطريقه محبوباً بالنسبة اليهم ﴿قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾^(٢) لو كان الدين وهو مجموعة القوانين، شيئاً مفروضاً على البشر بشكل قسري ، لما حصل أبداً الميل اليه والشوق والانجذاب الى الهدف، فليس من الصحيح افتراض الميل الذاتي نحو شيء أجنبي على الذات، وحب الانسان للدين الالهي نابع من أن أحكامه ليست مفروضة قسراً على الانسان وانما هي بمنزلة التلبية الايجابية لنزعاته الباطنية .

لهذا يحاول القرآن الكريم أن يعلم البشر بأن الدين الالهي محبوبهم والله محبوبهم، والهادي الالهي أي رسول الله ﷺ هو حبيب الله . فالانسان بقبوله للدين يطوي سبيل المحبة، اذن فلا تكليف ولا قسر بالنسبة له كما ان النبات الظامء يتحركه نحو الماء يطوي السبيل الى محبوه وهذا السبيل بالنسبة له محبوب أيضاً ولكن بالعرض ، أما الماء فهو محبوبه

(١) سورة الكهف، الآيتين (٢٠١) .

(٢) سورة آل عمران، الآية (٣١) .

بالأصل، فإن الانسان حين يعمل بدينه انما يجتاز طريق المحبة ليصل الى المحبوب الحقيقي، لذا قال عز وجل ﴿والذين آمنوا أشد حبا لله﴾^(١) ومن هنا فكلما سار الانسان أكثر ازدادت محبته لطريقه وهدفه. وكلما طوى هذا الطريق اكثر من الآخرين قال «أذقنا حلاوة ذكرك» وكلما تقدم نحو الأمام قال «من ذا الذي ذاق حلاوة محبتك فرام منك بدلا»^(٢).

يروى بعض أهل المعنى أن الامام الصادق عليه السلام حين كان يطلب حاجة من الله ويقول يا الله، فبمجرد أن يسمع نداء التلبية الالهية يقول ان سماع الجواب الالهي ولذته تنسيني حاجتي وتذهلني عما كنت أروم. ذلك أن كل هذه المطالب وسائل لنيل لقاء الحق، ولذة لقاء الحق شديدة الى درجة أنها تمحو كل اللذائذ الأخرى.

والخلاصة هي أن أسلوب التعليم والتربية القرآنية هو أن يجتاز الانسان هذا الطريق بالمحبة، الى ان يصل الى حيث يكون هو محبوباً من قبل الله سبحانه نتيجة لقرب النوافل.

يجب أن نبحت لتوضيح مسألة أن الدين الالهي محبوب البشر وهو لذلك أمر فطري، في احتجاج نبي الله ابراهيم الخليل عليه السلام، لأنه لا يقدم برهاناً فلسفياً وسبيلاً فكرياً محضاً على معرفة الله. بل هو يقول اني ﴿لا أحب الآفلين﴾ مما يدل على أن قضية الدين قضية انجذاب ومحبة قلبية. ان الاعتقاد بالله عن طريق البرهان لا يفرض شيئاً على الانسان، لأنه ليس العقل فقط هو الذي يثبت وجود الله بواسطة الامكان والوجوب أو الحركة أو الحدوث أو الطرق الأخرى، بل ان القلب أيضاً يريد الله ويطلبه وذلك عن

(١) سورة البقرة، الآية (١٦٥).

(٢) مفاتيح الجنان، مناجاة المحبين.

طريق الفطرة. لهذا يبين القرآن الكريم قصة احتجاج ابراهيم الخليل عليه السلام عن طريق المحبة .

ان الآيات التي تذكر أسلوب استدلال النبي ابراهيم عليه السلام تعتبر بدورها مجموعة أخرى من الآيات القرآنية التي تشرح مسألة فطرية الدين . يستدل ابراهيم الخليل عليه السلام تارة عن طريق حاجة الحركة الى المحرك النزيه عن التحول . ويستدل تارة على وجود المنظم الحكيم بواسطة نظام وانسجام عالم الخلقه ، ويقول تارة ﴿ربي الذي يحيي ويميت﴾^(١) أي أنه يثبت توحيد خالق العالم عن طريق احياء وإماتة النفوس . وتارة يقول ﴿فان الله يأتي بالشمس من المشرق فات بها من المغرب﴾^(٢) أي أنه يستدل بواسطة الحركة المنتظمة والمنسجمة للشمس وكذلك طلوعها وغروبها على التوحيد الربوبي .

ان مثل هذه البرهنة هي استعانة بالعلم الحسولي وطريقة التفكير العقلية والتي استخدمها الحكماء والمتكلمون الالهيون تبعاً لقادتهم السماويين وأقاموا البراهين والأدلة عن طريق امكان عالم الخلقه أو حدوث الموجودات الطبيعية أو النظام والانسجام في جميع أجزاء الوجود . لكن ابراهيم الخليل علاوة على تلك الطرق الفكرية والعلوم الحسولية والاستدلالات العقلية، قد مزج طريق القلب بطريق الفكر وأقام بذلك برهاناً تشكل المحبة والاندفاع والانجذاب، حده الأوسط .

وخلاصة هذا البرهان هو أن الله قال قبل أن يروي الاحتجاج الابراهيمي السابق ﴿وكذلك نري ابراهيم ملكوت السماوات والأرض

(١) سورة البقرة، الآية (٢٥٨) .

(٢) سورة البقرة، الآية (٢٥٨) .

وليكون من الموقنين ﴿١﴾ ان هذه المقولة من الفيض الالهي تشهد على أن الكلام المبرهن لابراهيم الخليل عليه السلام وليد مشاهدته الملكوتية للعالم، ثم يقول ﴿فلما جنّ عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي﴾ ﴿٢﴾ .

وسنؤجل البحث في هل أن عبارة الخليل هذه كانت من باب الفحص والتحقيق أم أنها جاءت من باب الجدل بالأحسن مع عبدة الكواكب، سنؤجل البحث في هذا الى محل آخر .

﴿فلما أفل قال لا أحب الأفلين﴾ أي أنني لا أحب ما يقبل التحول والفناء .

﴿فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدهي ربي لأكونن من القوم الضالين﴾ ﴿٣﴾ .

يتضح من هذا أن الانجذاب نحو خالق العالم كان مختزناً في سريرة النبي ابراهيم قبل التحقيق والفحص العلمي وأنه كان يرى أن كل خير وهداية انما تأتي من ذلك المبدأ وأن كل شر وضلالة بعيدة عن تلك الذات المقدسة . بل إن الشرور والنواقص ليست أساساً من مصدر ذاتي . بل إنها تحصل نتيجة عدم وصول الفيض وعدم استلام الكمال، لهذا قال النبي ابراهيم عليه السلام ﴿لئن لم يهدهي ربي لأكونن من القوم الضالين﴾ .

وانطلاقاً من أن الله منزّه عن كل عيب ونقص، يقول ابراهيم الخليل عليه السلام ﴿وإذا مرضت فهو يشفين﴾ ﴿٤﴾ ولا يقول الخليل أن الله اذا

(١) سورة الأنعام، الآية (٧٥) .

(٢) سورة الأنعام، الآية (٧٦) .

(٣) سورة الأنعام، الآية (٧٧) .

(٤) سورة الشعراء، الآية (٨٠) .

أمرضني هو الذي سيشفين .

إذن فليس أساس برهان ابراهيم الخليل عليه السلام في هذه الآيات هو حركة أو حدوث الكواكب، أي ليس أساس برهانه هو؛ بما أن الكواكب أو القمر تتحرك، وكل حركة بحاجة الى محرك، إذن فالكواكب بحاجة الى محرك، أو أن الاجرام السماوية ظاهرة خارجية وكل ظاهرة بحاجة الى مظهر، إذن فهذه الاجرام بحاجة الى مظهر .

وهكذا فان عماد برهان الخليل في هذه الفقرات ليس امكان الموجودات المتحركة والحادثة بحيث يتوصل من خلال امكانها الذاتي الى وجود مبدأ واجب بالذات، مع انه يمكن من أقول الكواكب البرهنة على أنها حادثة ومتحركة وممكنة ومن الحركة والحدوث والامكان الذاتي يمكن الاستدلال على وجود الخالق . وهذا هو الطريق الذي سلكه الحكماء والمتكلمون الالهيون بل بتعبير سيدنا الأستاذ العلامة الطباطبائي (رض)؛ ان سبيل المحبة أساس هذا البرهان .

ليست المحبة في اسلوب التفكير الفلسفي هي الحد الأوسط للبرهان لا يمكن في أي قضية عقلية محضة، القول أنني لا أحب هذه النتيجة . وهل يمكن حل القضايا بحب أو كراهية المستدل؟! في حين قال الخليل عليه السلام اني ﴿ لا أحب الآفلين ﴾، مما يشير الى أن أساس استدلال الخليل لم يكن من المبادئ الفكرية والعلوم الحصولية ليتمكن ترتيبه ضمن البحوث الرسمية لعلماء المعقول، فالمحبة من شؤون العقل العملي وليست من شؤون العقل النظري . وطرق العقل النظري هي ما جاءت في سائر احتجاجات الخليل عليه السلام أمام طاغوت عصره، كقوله ﴿ربي الذي يحيي ويميت﴾ و ﴿فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب﴾ ففي

هذه البراهين يكون تدبير وتنظيم عالم الوجود هو الحد الوسط . بينما لا يمكن تقديم قضية المحبة كاحتجاج على الآخرين، لأن لكل جماعة محبوبهم الخاص الذي يعطفون عليه ﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾ .

إذن فضلاً عن أن المحبة من شؤون العقل العملي ولا يمكن تصنيفها ضمن الأسلوب المنطقي الذي يعتبر من نشاطات العقل النظري . ومن جهة أخرى لا يمكن الاحتجاج بها على الخصوم، فمن الممكن أن يكون محبوب المستدل ليس محبوباً بالنسبة للخصم، وبإمكان القول أنني أحب الآفل الذي يبزغ حيناً ويختفي حيناً .

والنتيجة هي أن أساس برهان النبي ابراهيم عليه السلام شأن من شؤون العقل العملي والسبيل القلبي، وليس طريق الفكر والعلم الحسولي . والطريق القلبي عبارة عن أن الله هو ذلك الموجود الذي يميل وينجذب اليه الفؤاد، والشيء الفاني والزائل لا يمكن ان يكون محبوباً، ثمة ما يشابه هذه الطريقة في الاستمداد من شؤون العقل العملي، وذلك في الكلمات الحكيمة للقمان على صعيد الاستدلال على التوحيد، يقول ﴿يا بني لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم﴾^(١) والملاحظ أن الشرك من القضايا النظرية ومن شؤون العقل النظري، بينما الظلم من أعمال العقل العملي . ان هذا الامتزاج بين القلب والعقل محسوس بشكل كامل في القرآن الكريم لأن القرآن كتاب هداية وليس مجرد كتاب فكري ليتكلم بلسان البرهان المحض بل هو يمزج بين طريق القلب وطريق الفكر، انه يعجن المحبة بالفكرة والفطرة بالفكرة .

يقول النبي ابراهيم عليه السلام انني ﴿لا أحب الآفلين﴾ ، لأن محبة مبدأ

(١) سورة لقمان، الآية (١٣) .

الكمال وقاضي الحاجات محبة فطرية . اذا كان المحبوب موجوداً تارة وغائباً تارة أخرى فيجب أن تكون المحبة موجودة تارة وغائبة تارة أخرى . بينما لا يمكن للفطرة أن تخلو من المحبة واذا كانت الفطرة لا تخلو من المحبة لأنها ظمأى دائماً الى الكمال المطلق، اذن فالمحبة دائمية، والمحبة الدائمة تريد محبوباً حاضراً ودائماً ولا ترضى بالمحبوب الغائب . اذا انفصمت الأواصر بين المحب والمحبوب نتيجة زوال أو غياب المحبوب، فلن تعود ثمة محبة . مع العلم أن حب الكمال اللامتناهي حب فطري وذاتي عند الانسان، ويستفاد من الآيات المذكورة أنه يجب أن يكون الرب محبوباً والعبد محباً للرب، والدين هو رباط المحبة ان محبة الكمال المطلق ذاتية لدى البشر ويجب أن يكون محبوبها ذاتياً أي يكون ﴿بكل شيء شهيد﴾ و ﴿على كل شيء شهيد﴾ وهذا هو طيِّ طريق الفؤاد .

بعد ذلك شاهد ابراهيم عليه السلام حادثة طلوع وغروب الشمس، ثم قال ﴿اني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض﴾^(١) وفي هذا اشارة الى أن الله هو الفاطر أي هو خالق الطباع . ان طريق معرفة الله ليس فطرياً بالنسبة للانسان فقط، بل هو فطري بالنسبة لكل العالم ﴿وله أسلم من في السماوات والأرض﴾^(٢) إن عالم الخلق مسلم بأجمعه وخاضع بأجمعه ومنقاد ومطيع لله بكل ما فيه . وكذلك الانسان . كل قافلة الوجود منقادة للأمر الالهي والانسان عنده انجذاب اليه أيضاً . ومتى كان الانسان مستقلاً ومختلفاً عن هذه الظواهر .

عندئذ يقول البازي عز وجل بعد ذكره لعدة نقاط : ﴿وتلك حجتنا

(١) سورة الأنعام، الآية (٧٩) .
(٢) سورة آل عمران، الآية (٨٣) .

أتيناها ابراهيم على قومه ﴿^(١)﴾ وقال أيضاً في بداية هذا البرهان ﴿وكذلك نري ابراهيم ملكوت السماوات﴾ وقد عبّر عن رؤية ابراهيم بالفعل المضارع ﴿نري﴾ مما يدل على الاستمرارية أي أننا دائماً نري ابراهيم ملكوت السماوات والأرض . فهذا التعبير دليل على استمرار إراءة باطن الأشياء، لا مرة واحدة، بل انه (ابراهيم) دوماً تحت ظل العناية الالهية . كما إن أبواب الرحمة مفتحة دائماً بوجه أصحاب القلوب لخزائن عالم الخلقه مفاتيح، وبحركة واحدة لهذا المفتاح تفتح أبواب الخزائن وبحركة واحدة معاكسة أيضاً تقفل هذه الأبواب .

إذن، فمفتاح الخزائن مفتاح ومغلاق في نفس الوقت، فهو مغلاق من حيث أنه يغلق ومفتاح من حيث انه يفتح، ولكن القرآن يصرح ﴿وعنده مفاتيح الغيب﴾^(٢) أي أن الخزائن الالهية مفتوحة دوماً بوجه مريدي اللطف الالهي ولا تغلق أبداً . وحين يقول عز وجل ﴿لا تفتح لهم أبواب السماء﴾^(٣) فالحقيقة أن النقص هنا من جانب القابل لا من جانب الفاعل، فالفيض الالهي فيض متواصل لا ينقطع ألبتة ﴿وما كان عطاء ربك محظوراً﴾^(٤) .

يقول الشاعر: «ليس على جمال الحبيب نقاب أو ستار، ولكن عليك أن تزيل غبار الطريق لتستطيع رؤيته» .

إن المفتاح الذي عند الله لا يستخدم في غلق باب الفيض، بل يستخدم

(١) سورة الأنعام، الآية (٨٣) .

(٢) سورة الأنعام، الآية (٥٩) .

(٣) سورة الأعراف، الآية (٤٠) .

(٤) سورة الاسراء، الآية (٢٠) .

لفتحها، وأبواب الخزائن الالهية مفتوحة دوماً بالرغم من أن ذوي القلوب
السوداء لا يتمتعون بها، فالله دائم الفضل على البرية.

أطلب من الله تعالى أن يفتح ابواب خزائنه الغيبية بوجه كل مؤمني
العالم وأن يحشر معلمي ومؤلفي العلوم الالهية مع الأنبياء الالهيين.
غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الدرس السابع

برهان الفطرة في احتجاج النبي إبراهيم عليه السلام

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله وصلى الله على جميع الأنبياء والمرسلين والأئمة الهداة المهديين سيما خاتم الأنبياء وخاتم الأوصياء عليهما آلاف التحية والثناء .

كان بحثنا يدور حول التوحيد الفطري ان ما يذكره القرآن الكريم كأهم برنامج لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو تعليم مجموعة القوانين الالهية والمعارف المتقنة وكذلك تهذيب النفوس وتطهير قلوب البشر من شوائب التعلق بغير الله **﴿ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم﴾**^(١) وقد سبق أن ذكرنا أن التعليم قد يأتي بمعنى أن المعلم يعلم الانسان شيئاً لم يكن يعلمه، وقد يأتي بمعنى شرح القضايا الفطرية واحياء الذكريات الكامنة للبشر التي كانوا يحملونها منذ خلقتهم .

ظهور وتحصيل العلوم الحصولية يدرج ضمن النوع الأول . أي أن

(١) سورة البقرة، الآية (١٢٩) .

الانسان يحصل مقدمات الشيء والذي لم يكن يعرفه عن طريق الحواس الظاهرية كالسمع والبصر وغيرها أو بواسطة الحواس الباطنية كالوهم والخيال . ثم يقوم بتحليل ودرس هذه الأشياء التي تعلّمها ليصل الى المعارف العقلية والعلوم الكلية . يذكر القرآن الكريم هذا الأسلوب من التعلّم بالتعبير الآتي ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾^(١) فإنكم تحصلون العلوم عن طريق الاحساس والاستقراء والتحليل والتفكير . ومن أجل هذا منّ الله عليكم بوسائل مساعدة لتمكنوا بواسطتها أن تمدوا جسور العلم بالعالم الخارجي وتطلعوا على أسراره فتصلون الى مرحلة التعقل من خلال هذا . وهذا هو التعلّم الحسولي .

لكن ظهور العلوم الحضورية وتفتح وتزهير العلوم الشهودية يصنّف ضمن النوع الثاني أي أن الأمور التي يعلمها الانسان . لكنه لا يعلم تفاصيلها ، سينبه اليها بواسطة تعاليم الأنبياء ، لتخرج هذه الأمور تدريجياً من باطن الانسان الى ساحة قلبه ، وما كان سابقاً محتجباً ومستوراً سيكون بفضل تذكرة القادة السماويين متفتحاً ومشهوداً . ان الأنبياء الالهيين وكما يتسمون بتعليم النوع الأول ، يتسمون بتعليم والتذكير بالنوع الثاني أيضاً ، ولهذا فهم من كل الجوانب معلّمون حقيقيون للبشر .

اتضح في البحوث السابقة أن القرآن الكريم يبرهن بعض الأحيان على المسائل العلمية والنظرية بواسطة العلم الحسولي والاستدلال كتناوله لآيات الآفاق والأنفس وكذلك تحليله لحقيقة الوجود . وتارة ينبّه الانسان الى ما في داخله بواسطة إحياء الفطرة والمعارف الكامنة في الطبيعة البشرية .

(١) سورة النحل ، الآية (٧٨) .

انه يحذر الانسان بأن لا يطلب من الآخرين ما يملكه من عند ذاته . فاذا نظر المرء جيداً الى ذاته سيرى أنها تميل الى الحقيقة المطلقة التي لا تزول . وهذه الفطرة الباحثة عن الله والطالبة له والنازعة نحو الحق ، والموجودة في باطن كل انسان ، هي التي يحاول الوحي الالهي أن يحييها ، وأن يزيل الغبار عن مرآة الفؤاد ليرى الانسان نفسه شفافة فيزداد انجذابه نحو الله سبحانه وتعالى . فزيادة الميل والاندفاع الباطني نحو المعبود المطلق ، من بركات الوحي السماوي . وليس في تعاليم الأنبياء أي قسر على المجتمع أو الفرد ، لأنه من المستحيل أن يوجد انسان لا يطلب الحقيقة المحضة الا وهي الله . مع ان البشر قد يخطئ أحياناً في تطبيقها ، ولكن ما يطلبه الانسان بذاته هو الحق الخالد . ان خصوصية تعليم الأنبياء ﷺ في هذا المجال من التوعية هي ازاحة الغبار والتراب عن ساحة الفؤاد لكيلا يخطئ الانسان في تطبيق نزعاته الفطرية ، فلا يعبد الا ما يريد باطنه .

قسّمنا الآيات التي تتناول النظرة الفطرية والتي تبين توحيد الله بواسطة الفطرة الى عدة مجاميع ، وقد ذكر القسم المهم من تلك الآيات في البحوث الماضية ، فمجموعة منها هي الآيات التي تثبت الله عن طريق المحبة وقد أوردنا نماذج منها من خلال أسلوب استدلال النبي ابراهيم الخليل ﷺ .

أما ما نريد أن نبهته الآن ، فهو أن للنبي ابراهيم ﷺ أدلة متنوعة على التوحيد الربوبي فبعضها أقيم من خلال التعليم الفكري والبرهان الحسولي ، كبرهان الحركة وبرهان النظام وما شابه . وبعضها أقيم من خلال احياء الفطرة والعلم الشهودي ، فالآية التي يقول فيها الخليل ﷺ ﴿ربي

الذي يحيي ويميت ﴿١﴾ وكذلك قوله ﴿فان الله يأتي بالشمس من المشرق فات بها من المغرب﴾ ﴿٢﴾ كلها تعدّ من الاستدلال الفكري على التوحيد الربوبي سواء عن طريق النظام أو الحركة أو الحدوث أو ما شاكل . أما حين يقول ﴿لا أحب الآفلين﴾ ﴿٣﴾ فانه يطرح التوحيد الربوبي عن طريق احياء الفطرة والاستمداد من الميل الباطني، بدون أن يستمد شيئاً من القضايا الفكرية أو العلوم الحصولية .

لقد طبّق المرحوم صدر المتألهين مقولات النبي ابراهيم عليه السلام هذه على برهان الحركة في كتبه الفلسفية وكذلك في تفسيره . وقد قال سيدنا الأستاذ العلامة المرحوم الطباطبائي (رض)؛ مع ان برهان الحركة في طلوع وغروب الكواكب السماوية، وكذلك برهان النظام وبرهان الامكان، براهين تامة لاثبات التوحيد الربوبي، ولكن لا يمكن استفادة أي من هذه البراهين الثلاثة من كلام النبي ابراهيم عليه السلام لأنه طرح التوحيد الربوبي عن طريق المحبة والاندفاع الداخلي، لا عن طريق الحركة أو النظام أو الامكان . بل قال لأن النجم غرب وأفل فأنا لا أحب الآفلين ﴿فلما أفل قال لا أحب الآفلين﴾ .

ان البرهان الذي تكون فيه المحبة حداً وسطاً لا يمكن أن يجد له مكاناً في قضايا العقل النظري . لأن المحبة من متطلبات وسنن العقل العملي، شأنها في ذلك شأن الارادة والعزم والتصميم والتولي وكذلك الكره والانزجار والتبري، فكل هذه الأمور وما شابهها تعتبر من شؤون العقل

(١) سورة البقرة، الآية (٢٥٨) .

(٢) سورة البقرة، الآية (٢٥٨) .

(٣) سورة الأنعام، الآية (٧٦) .

العملي . ولا يمكن أبداً برهنة أو اثبات أو نفي قضية النظرة الى العالم ذات الارتباط المباشر بأفكار العقل النظري، بواسطة جعل احدى شؤون العقل العملي كحد أوسط .

يمكن اثبات وحدة الله الخالق عن طريق انسجام النظام الكوني ووحدة هدف الموجودات المتحركة . ولكن لا يمكن عن طريق الحب والبغض اثبات أو نفي قضية عقلية كاحتجاج حصولي وتفكير ذهني . فالمحاور الأصلية في القضايا النظرية هي ما يوجد وما لا يوجد، لا الحب وعدم الحب . وهل يتبدل نظام العالم على أساس حب الأشخاص وبغضهم للمسائل؟ ليقول أحدهم أنني أحب مبدأ العالم ويقول آخر أنني لا أحبه . أو يقول أحدهم انني أحب المبدأ الواحد ويقول الآخر أنني أحب المبدأ الثنائي . ولأن القرآن الكريم كله حكمة وقد طرح قضية المحبة على لسان ابراهيم الخليل عليه السلام في شرحه للتوحيد الربوبي، يتضح أن الطريقة الخاصة للنبي ابراهيم عليه السلام هي تبيان الفطرة التوحيدية للبشر وليس التعليل الفلسفي .

وخلاصة هذه الطريقة وكما مر بنا في البحوث الماضية هي أن الانسان ينزع الى الموجود المصنوع من كل أنواع الزوال والتغير والغياب والاحتجاب، ولا سبيل للموت والتحول الى حرمة الآمن . ان الانسان وبفطرته يطلب مبدأ منزهاً من الفناء والغياب . فان كان الشيء مما يقبل الغروب والأفول والتحول فانه ليس بمحبوب فطري للبشر .

لهذا يقول النبي ابراهيم عليه السلام؛ لأن القمر والنجوم تغيب والشمس تغيب وارتباط الانسان بالموجود الغائب ينقطع أثناء غيبته، ولأن الخالق هو المحبوب الذي يجب أن يكون الارتباط به دائماً، لأن الانسان وكباقي

الموجودات بحاجة الى الدائمي ونزوعه الى الله الغني نزوع دائم، ولا يمكن للانجذاب الدائم والاندفاع المستمر أن يتفقا وزوال المتعلق وتحول المحبوب، لأنه بغياب من تتعلق به المحبة والميل سينقطع كل ارتباط به، اذن فليست أياً من الموجودات القابلة للزوال هي خالقة العالم.

فالله هو الموجود الذي يقبل به الفؤاد ويميل نحوه، واذا كان ثم قلب وثم ميل فلا يمكن أن يكون متعلق هذا الميل غائباً وغارباً ومتحولاً، عليه فلا بد أن يكون متعلق هذه المحبة موجوداً منزهاً عن كل غروب واحتجاب وزوال وتحول، لذا قال الخليل إني ﴿لا أحب الآفلين﴾.

والخلاصة هي أن الهدف الأصيل للدين هو تبين فطرة البشر والقسم المهم من التعليمات الدينية يدور حول محور المحبة ليحيي المرتكز الفطري ويجعله مشهوداً للبشر، وليس ذلك بعنوان العلم الحسولي الذي يفرض على النفس من خارجها فيقال لأن الله موجود طبقاً للدليل الذهني الفلاني إذن فعليك أن تحب الله . على سبيل المثال؛ لأن الله موجود حسب دليل النظام أو دليل الحركة أو دليل الحدوث أو دليل الامكان، ولأنه المنظم والمحرك لكل ما في الوجود وهو القديم أو واجب الوجود، يجب عليك أن تحبه، مع ان كل هذه الطرق صحيحة، لكن أهم طرق القرآن هو تمهيد طريق الفؤاد الموجود في كل الحالات وعند كل البشر وفي كل الشؤون. فطريق الفؤاد مفتوح عند السلامة وعند المرض، وهو مفتوح بالنسبة للمتعلم وبالنسبة للأمي، وبالنسبة للطفل والشيخ.

عليه فالطريق الممهّد للجميع في كل الحالات والشؤون هو طريق الفؤاد، من هنا كثيراً ما يعتمد الكتاب والسنة على المحبة الفطرية عند البشر ليكونوا دقيقين في اختيار المحبوب.

أو ليس الانسان كسائر الموجودات الممكنة بحاجة الى المحبوب الخالد؟ أو ليس ما عدا الله معرض للزوال؟ اذن فغير الله لا يجدر بالمحبة، والمحبة الحقيقية هي لله فقط .

ذكر القرآن الكريم احتجاج النبي ابراهيم عليه السلام بالتفصيل وذلك من أجل تعظيم سلوك طريق الفطرة . ويذكر أهمية هذا الطريق قبل وبعد ذكر الاحتجاج أي أنه يقول قبل الشروع بمقدمات الاستدلال ﴿وكذلك نري ابراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين﴾^(١) ثم يورد حوادث الاحتجاج بشكل مفصل .

معنى الآية هو؛ اننا نري باستمرار باطن وملكوت العالم لأبراهيم . ومن استخدام الفعل المضارع ﴿نري﴾ يتضح أن فيض إراءة الملكوت لإبراهيم فيض دائم . لم يقل أننا أرينا ملكوت وباطن العالم لابراهيم، بل قال ﴿وكذلك نري﴾ ففي كل لحظة نري ملكوت السماوات والأرض لإبراهيم . وليس الأمر هو أن الخليل عليه السلام قد رأى باطن العالم مرة واحدة فقط . بل انه في كل لحظة على ارتباط بباطن العالم ورؤية الملكوت . وأنا ما برحنا نري ابراهيم ملكوت العالم .

ويمكن من التعبير الدال على استمرار إراءة الملكوت، التوصل الى أن البراهين التي قدمها الخليل عليه السلام بين يدي نمرود كانت بدورها وليدة رؤية الملكوت . فالذي يقول ﴿ربي الذي يحيي ويميت﴾ يكون قد شاهد باطن الإحياء والاماتة وعلم كيف وبواسطة من تحصل هذه الظواهر . والذي يقول ﴿فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فات بها من المغرب﴾ ويشاهد بيد مَنْ

(١) سورة الأنعام، الآية (٧٥) .

يقع زمام طلوع وغروب الشمس .

كما إن زمام كل الحيوانات بيد الله عز وجل ﴿ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها﴾^(١) فان زمام كل الجمادات بيد الله أيضاً . فليس زمام الدواب بيد الله بينما زمام الكواكب السماوية ليست في يده . بل ان لكل كوكب زمام وجانب ملكوتي ولا يملك هذا الزمام والجانب الملكوتي الا الله .

والخلاصة هي أنه بالرغم من أن كل احتجاجات النبي ابراهيم قائمة على أساس رؤية الملكوت ، ولكن أفضل طريق لنيل الهدف النهائي (التوحيد الربوبي) هو طريق الفؤاد الذي يتبين عن طريق المحبة . من هنا ورد اهتمام كافٍ بطريق المحبة وهو طريق الفؤاد ، وقد نسبت أساس حجة الخليل ﷺ الى الله سبحانه قبل ذكر هذا الاحتجاج وبعده .

ان الله إذ يرغب الناس في سورة الأعراف للنظر الى ملكوت السماوات والأرض ، إنما يرمي الى ايصالهم لمقام الرؤية . كما أوضحنا هذا في البحوث السالفة فان ثمة فرق بين النظر والرؤية . النبي ابراهيم ﷺ رأى ملكوت العالم أما الآخرون فيرغبون في النظر اليه عسى أن يرونه ﴿أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض﴾^(٢) .

أرى الله سبحانه ملكوت الكون لإبراهيم ، لكنه أمر المسلمين وهم الأبناء المعنويون له ﷺ بالنظر الى باطن العالم عسى أن يكون نظرهم ممهداً لرؤيتهم ، لهذا قال ﴿ان أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا﴾^(٣) ومن ضروريات الانتساب للنبي ابراهيم ﷺ السعي

(١) سورة هود ، الآية (٥٦) .

(٢) سورة الأعراف ، الآية (١٨٥) .

(٣) سورة آل عمران ، الآية (٦٨) .

الكامل في طريق شهود ملكوت العالم . وأهم طريق لمشاهدة باطن العالم تقوية التوحيد الفطري أي طريق الفؤاد وهو الطريق الذي يجد فيه الانسان محبوه الى جانب قلبه .

يحظى سالكو هذا الطريق بتعظيم خاص في التعابير القرآنية ، أما المحرومون من سلوك هذا الطريق ، فلن يحظوا بالمقدار المناسب من أفكاره الذهنية المحضة . ومن الممكن في بعض الأحيان أن لا يكون للانسان أي نصيب وفائدة من الصور الذهنية ولأن معيار التكامل هو الاندفاع الداخلي والابتعاد عن كل محبوب مجازي ، والميل التام نحو المحبوب الحقيقي ، فقد ذكر الله نموذجاً لذلك بكرّم فيه محبة الحق (الله) ويقبّح محبة غيره ، على النحو التالي :

﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ﴾^(١) .

فالمؤمن بالله واليوم الآخر لا يمكنه أبداً أن يحب غير المسلمين ، لأن الذي يتعرف قلبه على المحبوب الحقيقي وهو الله سبحانه ويميل اليه ويتعلق برسوله طبقاً لأوامره ، سوف لن يحب الأجانب والغرباء^(٢) .

هؤلاء هم الذين يثبت الله في قلوبهم الايمان ﴿اولئك كتب في قلوبهم الإيمان﴾^(٣) .

إن المحور الوحيد للإيمان بالله ، هو العلاقة والحب الصادق له عز

(١) سورة المجادلة ، الآية (٢٢) .

(٢) المراد بهم الأجانب والغرباء على صاحب القلب هم كل من سوى الله او من يرتضيه الله ويأمر بمحبته «المرجم» .

(٣) سورة المجادلة ، الآية (٢٢) .

وجل، وليس للانسان أكثر من قلب واحد ﴿ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه﴾^(١) ولا يمكن لمحبوبين أن يجتمعا في قلب واحد، أحدهما الله والآخر الولد أو الأخ أو ما شاكل.

من هنا قال تعالى ﴿ألا الله الدين الخالص﴾^(٢) فالله لا يقبل أبداً العلاقة المشوبة والمحبة المتخلطة والعشق الممتزج والاندفاع غير الخالص.

على هذا فالرجال المؤمنون لا يحبون غير الله والأولياء الالهيين الذين هم مظاهر هداية الله، وهذه الفئة من ذوي الدين الفطري وحفظة الطبيعة الأصيلة وورثة الأنبياء والأولياء، يتمتعون بتسديد خاص من الوحي ﴿وأيدهم بروح منه﴾^(٣).

أما الذين اختاروا المحبوب المجازي ولم ينموا غرسة الفطرة فلن يحرموا من الدعم الغيبي فحسب وانما هم في معرض التهديد دائماً فقد قال سبحانه ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾^(٤).

وكما ان القرآن قد قال عن الكفر والظلم أنهما لا يؤديان الى الهدف والهداية ﴿والله لا يهدي القوم الكافرين﴾^(٥) و ﴿والله لا يهدي القوم

(١) سورة الأحزاب، الآية (٤).

(٢) سورة الزمر، الآية (٣).

(٣) سورة المجادلة، الآية (٢٢).

(٤) سورة التوبة، الآية (٢٤).

(٥) سورة البقرة، الآية (٢٦٤).

الظالمين ﴿^(١) فقد قال عن الفسق ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ ^(٢) الكفر هو تغطية الحق، الحق هو النور، وبتغطيته وحجبه لا يمكن الوصول أبداً الى الهدف. الظلم ظلمات وعمة، ومن كان في العمّة لا يستطيع أبداً أن يبصر الطريق وبهذا فلن يجتازه بصورة صحيحة ولن يصل الى هدفه. والفسق أيضاً هو الانحراف.

لا ظلم الظالم يوصله الى غايته ولا كفر الكافر ينيله هدفه ولا فسق الفاسق يعرفه على غايته، لأن كل هذه الأمور انحراف عن المسير، والله تعالى ضمن تحذيره لهذه الجماعات المنحرفة من أنها لا تصل الى الهدف، يقول انكم وفضلاً عن قصوركم عن الهدف ستبتلون بأشد وأمرّ الجزاء فانظروا هذا العذاب.

وقد بشر القرآن سالكي درب محبة الحق كما أنذر سالكي وادي محبة الباطل وأوضح أن المحبوب الحقيقي هو الله. واذا سلك المرء سبيل النبي ابراهيم عليه السلام سينال جائزة شهود الملكوت، واذا انحرف عن هذا السبيل ستصطاده ظلمات عالم الطبيعة.

من هذا المنطلق يقول عز وجل وكما أسلفنا في سورة آل عمران ﴿إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾ ^(٣) إذا كنتم محبين لله وكان ميلكم نحوه فارعوا ميلكم هذا واتبعوا حبيب الله. إن رسول الله ﷺ أسوة المحبة والفتوة، انه نموذج المحبة وتولي الحق، فان كنتم تحبون الله اتبعوا حبيب الله لتكونوا محببين من قبل الله.

(١) سورة البقرة، الآية (٢٥٨).

(٢) سورة المائدة، الآية (١٠٨).

(٣) سورة آل عمران، الآية (٣١).

إن اتباع حبيب الله هو طيّ لطريق المحبة، وطيّ طريق المحبة يجعل محبّ الله محبوباً لله، لأنه يقترب من المحبوب الحقيقي بفضل سلوك طريق المحبة. عندها يكون محبوباً من قبله ولأنه قريب من الغاية ستظهر آثار هذه الغاية عليه، ولأنه اقترب من ﴿نور السماوات والأرض﴾^(١) فسيكون مصداقاً لـ ﴿نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم﴾^(٢).

يكون الانسان يوم القيامة بحيث يسير نوره أمامه بسرعة، وفضلاً عن أنه ينير طريقه فهو ينير للآخرين أيضاً. لن يكون للانسان القويم يداً يسرى يوم القيامة، بل ستكون كلتا يديه يمنى، لأن المؤمن من أصحاب اليمين أو هو أرفع من أصحاب اليمين. وكل الشؤون العملية والروحية لأصحاب اليمين تكون مصحوبة باليمين وتكون «كلتا يديه يمنى» لذا قال سبحانه ﴿نورهم يسعى بين ايديهم وايمانهم﴾ ولم يورد ذكراً لليد اليسرى.

إذن فالقرآن الكريم يعتبر أفضل طريق للوصول الى الهدف هو طريق محبة الله وهو نفس طريق الفطرة. مع أن من الممكن أن يخطيء الانسان أثناء تطبيق المحبوب الحقيقي. لكن المبدأ الوحيد الذي يطلبه الانسان هو المبدأ الغني المحض والعليم المحض والحكيم المحض والقدير المحض «وهو الحي الذي لا يموت»^(٣).

فضلاً عن الآيات المذكورة هناك شواهد وآيات أخرى في القرآن تطرح قضية المحبة، سنشير إليها في البحوث اللاحقة اذا وفقنا الله لذلك. وكما إن القرآن الكريم وضع طريق المحبة أمام السالكين الالهيين وقال ﴿والذين آمنوا

(١) سورة النور، الآية (٣٥).

(٢) سورة التحريم، الآية (٨).

(٣) سورة الفرقان، الآية (٥٨) ﴿وتوكل على الحي الذي لا يموت﴾.

أشد حباً لله ﴿^(١)﴾ فإن روايات أهل بيت العصمة والطهارة اعتبرته المحور الأصيل للدين فقد ورد «هل الدين إلا الحب» ^(٢) .

تناول المرحوم ابن بابويه القمي (رض) قضية المحبة بشكل جيد في كتابه الشريف «علل الشرائع» وذكر الطرق الصحيحة لاختيار المحبوب، انه يروي حديثاً ^(٣) عن رسول الله ﷺ في باب المحبة، يقول فيه «أحبوا الله لما يغدوكم به من نعمة» إن أفضل نعمة وهي نعمة الوجود والكمالات الوجودية هي من عند الله ﴿وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة﴾ فأحبوا من وهبكم الوجود والكمالات الوجودية ثم يواصل الرسول ﷺ : «وأحبوني لحب الله» لأن سبيلي تقربكم الى المحبة الكاملة للحق «وأحبوا أهل بيتي لحبي» .

أي أن مسلسل محبة أهل بيت العصمة والطهارة ﷺ هو مسلسل المحبة الحقيقية. فانكم بمحبة المظاهر الالهية تناولوا محبة الله سبحانه، واذا كنتم سابقاً محبين لله فأنتم الآن محبوبو الله سبحانه .

لقد ذكر الرسول الأكرم ﷺ أمراً سامياً يتضمن بشارة للناس ذوي المراقبة والمحاسبة لأنفسهم ويتضمن أيضاً تحذيراً وتخويفاً. كما إن القرآن الكريم بشر سالكي درب المحبة الالهية وحذر المنحرفين عنه من خطر السقوط وهددهم بذلك، فان روايات الأئمة الطاهرين تنقسم الى نوعين أيضاً. فبعض الروايات تبشر سالكي درب المحبة الالهية وبعضها ينذر

(١) سورة البقرة، الآية (١٦٥).

(٢) سفينة البحار، مادة (حب).

(٣) علل الشرائع، باب العلة التي من أجلها وجبت محبة الله تبارك وتعالى و... الحديث ١.

المنحرفين عن طريق محبة الله .

أما ما ورد تحت عنوان بشارة سالكي درب المحبة فهو؛ جاء رجل من
ية الى الرسول الأكرم ﷺ يقول أنس بن مالك (١) أنه متى ما جاء
رجل من البادية الى الرسول الأكرم ﷺ ليسأله عن شيء كنا نفرح به لأن
أسئلته تنبع من فطرته ، فكانت تثار من فطرته السليمة البريئة مسائل يطرحها
على النبي الكريم ﷺ ، «وكان يعجبنا أن يأتي الرجل من أهل البادية يسأل
النبي ﷺ . سأل الرجل البدوي النبي الأكرم ﷺ «متى قيام الساعة؟»
وتزامن سؤاله مع وقت الصلاة ، فقام النبي للصلاة .

من الجدير بالانسان أن لا يترك صلاة اول الوقت (وقت الفضيلة) لأنه
حين يدخل وقت الصلاة تنادي الملائكة الموكلة من قبل الله «قوموا الى
نيرانكم التي أوقدتموها على ظهوركم فأطفئوها بصلاتكم» (٢) ، لهذا فمن
المؤسف أن يحرم الانسان من فيض الصلاة في أول الوقت .

«فلما قضى صلاته قال أين السائل عن الساعة؟ قال أنا يا رسول الله ،
قال : فما أعددت لها؟» .

وبتعبير المرحوم الفيض الكاشاني (رض) فان الكثير من الناس
يحاولون معرفة كيفية عذاب القبر وماهية أفاعي وعقارب القبر ، بدون أن
يحاولوا تخليص أنفسهم من هذا العذاب . يجهدون فقط لمعرفة نوعية
العذاب . يجب أن نعلم أن العذاب حتمي ، والأفاعي والعقارب حتمية ، ولا
أهمية لمعرفة كيف تلدغ وتسمم . بل المهم هو العثور على سبيل النجاة

(١) علل الشرائع ، باب العلة التي من أجلها وجبت محبة الله تبارك وتعالى و...
الحديث ٢ .

(٢) من لا يحضره الفقيه ، ج ١ ، الرقم ٦٢٤ .

منها، فضلاً عن أن كل الناس لا تستطيع إدراك كيفية العذاب وطريقة تجسّم العمل وارتباط العمل بالعمل وحشر العامل على صورة العمل، وتنوع الانسان حسب صفاته النفسية، وما شاكل هذه القضايا.

لهذا يقول صدر المتألهين (رض) أن الكثير من قضايا القبر والبرزخ يجب أن تؤخذ من مشكاة النبوة والامامة ومن سراج ولاية الأنبياء والأئمة. الكثير من هذه القضايا، قضايا تفصيلية لا سبيل للعقل اليها. والمهم هو أن ينجي الانسان نفسه من عذاب القبر، مع ان القدرة على تحليل المعارف العقلية تعين الانسان على فهم هذه القضايا بصورة أفضل وبالنتيجة ستساعده على التخلص من عذاب وضغوط البرزخ وآلامه الجسيمة. لكن ما يجب على الجميع وما يحظى بالأهمية البالغة هو السعي للامتناع عن الحرام الذي يسبب في عذاب القبر.

بعد أن سأل النبي ﷺ ذلك الاعرابي «فما أعددت لها؟ قال: والله ما أعددت لها من كثير عمل لا صلاة ولا صوم» أي أنني اكتفيت بالأعمال الواجبة ولم أوفق لعمل المستحبات. ثم استرسل الرجل «إلا إني أحب الله ورسوله».

قال هذا المعنى اللطيف اعرابيٌّ بدوي عن ضميرٍ خالصٍ أمام الرسول الأكرم ﷺ ولم يكذبه الرسول ولم يقل له أنك كاذب، لأن البعض كانوا يقولون أننا نحب الرسول وكان الرسول يجيبهم أنكم لستم من أحبائنا.

وكان البعض يقولون للامام علي عليه السلام أننا من أحبائك وكان يجيبهم أنكم لستم من أحبائي، فكررها القائل على الامام ثلاث مرات وفي كل مرة كان يكذبه الامام ويقول له إنك تكذب لأنني لم أشاهد في عالم الأرواح

روحك بين أرواح محبيننا وأوليائنا، لكن في الحادثة المعنية لم يكذب النبي ذلك الرجل .

«فقال له النبي ﷺ : المرء مع مَنْ أحب» أي أن الانسان يحشر مع محبوبه، لأن كل انسان يحشر مع كل ما تكتمه سريرته، وإذا امتزجت محبة شخص أو شيء بروح الانسان، فانه لن يترك هذه المحبة أبداً بل يقيم معها علاقة لا تنفصم كالعلاقة الموجودة بين العالم والمعلوم . واذا كانت للمحجوب حقيقة مستقلة عن المحب فسيقوم المحب اتحاداً وجودياً مع الوجود الرباطي له أو بالتعبير المناسب للمقام مع فيضه الخاص ويقدر مايكون متمتعاً بهذا الفيض ومتعلقاً به قلبياً، سوف تكون متحداً مع ذلك الوجود الرباطي .

والخلاصة هي أن كل شخص يحشر مع حبيبه، والسبب في أن البعض يحشرون يوم القيامة على هيئة الحيوانات هو أن محبوبه لم يكن سوى الاعتلاف والافتراس، وهذه الصفات من خواص الروح الحيوانية .

كما إن «قيمة كل امرء ما يحسنه» فان حشر كل امرء بمقدار محبته، وقيمة المحبة تنبع من قيمة المحجوب، كما إن قيمة كل فضيلة بمقدار متعلق تلك الفضيلة . والمراد بالفضيلة هي القابلية النفسية التي توجب ظهور الأفعال العظيمة وليس المقصود بها العلوم والفنون الحسولية، فمن الممكن أن يكون المرء عالماً لكنه يفتقر الى فضيلة العلم، لأن فضيلة العلم هي التي تقوم الانسان وتنزهه عن التلوث بالدنيا والطبيعة الزائلة، واذا كان العالم محباً للدنيا فهو فاقد لفضيلة العلم .

من هنا لم يقل الامام أمير المؤمنين عليه السلام «قيمة كل امرء ما يعلمه» بل

قال « ما يحسنه » وإن كان هذا الكلام السامي موضع اعجاب الأدباء الحاذقين فهذا يعود الى حرمة معناه العميق .

والخلاصة هي أن معيار القيم يتحدد بالصورة النوعية والصفات الباطنية الراسخة . وقد يعبر بعض الأحيان عن هذه الحقيقة بالقول « الناس معادن كمعادن الذهب والفضة »^(١) وقد يكون التعبير « قيمة كل امرء ما يحسنه »^(٢) وقد يقال « المرء مع من أحب » وقد تأتي تعبيرات أخرى تشير جميعها الى أن قيمة كل إنسان تكمن في عقيدته وأخلاقه وأعماله .

إذا لم ترسخ الصفة في نفس الانسان فلا يمكن الاعتماد عليها، لأنها من الممكن أن تزول تحت وطأة حوادث الدنيا أو حادثة الموت، لهذا لا يمكن الاعتماد على مثل هذه الصفات، لا في تقييم الأشخاص في الدنيا ولا في الحشر ويوم القيامة .

وعلى كل حال، يقول الرسول الأكرم ﷺ « المرء مع من أحب » بعد هذا يقول راوي الحديث وهو أنس بن مالك « فما رأيت المسلمين فرحوا بعد الاسلام بشيء أشد من فرحهم هذا » فلقد كان المسلمون يحبون رسول الله وبهذا علموا أنهم سيحشرون مع النبي ﷺ .

وقد حصل ما يشبه هذه الحادثة للامام أمير المؤمنين عليه السلام حيث أمسك رجل بطرف ردايه في ظهر يوم شديد الحرارة وسأله أن يعظه فقال له الامام إنك رافقتنا سنين متمادية وتكفيك تلك المواعظ، لكن الرجل أصر عليه، فقال الامام عليه السلام : « أنت مع من أحببت ولك ما اكتسبت » قال هاتين

(١) من لا يحضره الفقيه، ج ٤ ، الرقم ٥٨٢١ .

(٢) نهج البلاغة، الحكمة ٧٨ .

العبارتين وخلص رداءه من يد الرجل ودخل الى محل عمله . ومعنى الحديث أنك تحشر مع محبوبك وسيبقى لك ما اكتسبت فقط . سيبقى لك ما تأخذه معك لا ما تركه وتذهب .

مثل هذه الأحاديث تشرح بوضوح مقام المحبة المتين وتأثيرها الكبير في ضمان سعادة البشر .

ينقل المرحوم الصدوق^(١) (رض) أيضاً أن رسول الله ﷺ قال : «لا يؤمن عبد حتى أكون أحب إليه من نفسه» .

ومنشأ هذا الكلام السامي في القرآن الكريم وذلك قوله عز وجل ﴿ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه﴾^(٢) .

ويواصل النبي ﷺ حديثه بعد أن ينبه الى أهمية محبته «وتكون عترتي اليه أعز من عترته ويكون أهلي أحب اليه من أهله ويكون ذاتي أحب اليه من ذاته» ويلاحظ أن النبي كرر أهمية حبه مرتين .

كان هذا نموذجاً للأحاديث التي تحمل طابع البشارة، وأما الروايات التي تتبنى التهديد والتحذير وتنذر الناس من العقاب الأليم الذي تسببه محبة الباطل فهي التي جمعها المرحوم الشيخ الصدوق (رض) في كتابه الشريف «علل الشرائع» تحت عنوان «علة عشق الباطل» والتي تبين كيف يقع الانسان في أسر حب الباطل والمحبة الكاذبة، ينقل الصدوق أن المفضل بن عمر

(١) علل الشرائع، باب العلة التي من أجلها وجبت محبة الله تبارك وتعالى و... الحديث ٣.

(٢) سورة التوبة، الآية (١٢٠).

سأل الامام الصادق عليه السلام ما هو الحب، فقال عليه السلام «قلوب خلت من ذكر الله فأذاقها الله حب غيره»^(١) أي أن القلوب اذا غفلت وخلت من ذكر الله، عاقبها الله عقاباً أليماً بأن يجعلها تحب الباطل وتعشق الدنيا واللذائذ الزائلة.

عليه، فاذا لم يراقب الانسان قلبه باستمرار، سيغفل قلبه عن ذكر الله وبالتالي فعليه أن يتحمل سياط حب الباطل الموجهة، لأن الله سيودع حب الباطل في مثل هذا الفؤاد.

وجاء عن الامام علي عليه السلام أيضاً: «صابروا أنفسكم على فعل الطاعات وصونوها عن دنس السيئات، تجدوا حلاوة الايمان»^(٢) فان لم يذق المرء بفعل الذنوب طعم محبة الله العذب، لا بد أن يتلوث ويتدنس بمحبة الباطل.

وإذا كانت مقولة «ألا كل شيء ما خلا الله باطل» صحيحة، علمنا أن محبة كل شيء لا يحتوي على كلام الله ولا يتضمن طريق الله، هي محبة للباطل، ومحبة الباطل تقتل الفؤاد.

قد يغرم الانسان أحياناً بالحياة الفانية، ويحب أهله وأمواله، وقد يعشق صداقة الأصدقاء الخونة وكل هذا من العقاب الأليم.

إذا لم يراقب الانسان قلبه، كان مهدداً بخطر محبة غير الله. وإذا هام الانسان بغير الله فلن ينتصر لا في الجهاد الأصغر ولا في الجهاد الأكبر.

إذن، فالنتيجة التي نستخلصها من الآية المعنية والروايات المذكورة هي أن الشخص إذا غفل عن ذكر الله سيقع فريسة حب ما سوى الله. وإذا

(١) علل الشرائع، باب علة عشق الباطل.

(٢) الغرر والدرر، ج٧، ص ٢١٨.

أحبّ سوى الله سوف لن ينصر الله ودينه يوم الجهاد، سواء كان جهاداً أصغر أو جهاداً أكبر. وإذا ظنّ المرء ان المهرب بدعم الجبهات أو الجبهات الخلفية، سواء كانت جبهة صغرى أو جبهة كبرى، فان الله يهدده بالخطر ﴿فتربصوا حتى يأتي الله بأمره﴾ وقال أيضاً ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ الانسان الفاسق المنحرف عن الصراط المستقيم لا هو ينال أمانيه ولا هو ينجو من خطر العقاب، وهذان الخطران يكمنان في محبة الباطل.

من هنا جاء في المناجاة الشعبانية «وألهمني ولهاً بذكرك الى ذكرك» أو «إلهي هب لي كمال الانقطاع اليك» كمال الانقطاع هو أن لا يحب الانسان شيئاً عدا الله، ويفدي كل شيء حتى روحه في سبيل محبوبه الحقيقي، ولأن كل شهر يمثل مرحلة من مراحل السير الالهي، فان شهر شعبان الشريف وأعماله الخاصة ومناجاته الشعبانية تعدّ مرحلة مناسبة لنيل المرحلة الأعلى وهي الدخول في شهر رمضان المبارك.

أرجو من الله تعالى أن يدخل محبته ومحبة أوليائه في قلوبنا جميعاً بحق محمد وآل محمد عليهم السلام، وأن يجعل ثواب هذه الخطب والاستماع بعد قبولها هدية لأرواح شهداء الاسلام وأرواح معلمي ومؤلفي العلوم الالهية. وأن يحشرنا في الدنيا والآخرة على ولايته وولاية أوليائه بحق محمد وآل محمد عليهم السلام.

غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الدرس الثامن

الميول الحاذقة والميول الكاذبة من وجهة نظر القرآن الكريم

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله و صلى الله على جميع الأنبياء والمرسلين والأئمة الهداة المهديين سيما خاتم الأنبياء وخاتم الأوصياء عليهما آلاف التحية والثناء .

كان بحثنا في شرح التوحيد النظري . تعتبر الكثير من الآيات القرآنية أن الميل إلى الله تعالى مُخزّن في طبيعة الإنسان، وتدل على أن الانسان خلق بفطرة باحثة عن الله وطالبة له وقد شرحنا بالتفصيل أنواع هذه الآيات وأقسامها .

كانت آخر مجموعة من هذه الآيات تشير إلى ان الله سبحانه محبوب البشر، بل إن الله هو الحقيقة التي تتعلق بها محبة الإنسان بالاصل . يتضح إذن ان هناك محبة وميل في طبيعة الانسان وهذا الميل يتجه نحو الوجود المطلق الذي لا يقبل الزوال والتحوّل وهو الله . فلا الانسان مخلوق بغير المحبة والعطف ولا المحبة متجهة نحو غير الله عز وجل . يمكن استنتاج هذا

الأمر من أسلوب استدلال النبي إبراهيم عليه السلام الذي وجد أن الكواكب والقمر والشمس وبما أنها آفلة وغائبة فهي غير جديرة بالمحبة وهي بذلك ليست رباً. وهذا يدل على أن الرب هو المحبوب، ولا يمكن للآفل أن يكون محبوباً، إذن فالآفل ليس برب.

مع إنه من الممكن وكما مر سابقاً إثبات وجود خالق العالم عن طريق برهان الحركة وكذلك بواسطة برهان الحدوث وبرهان النظام وبرهان الإمكان والوجوب. والاستدلال بأن الكواكب السماوية ليست رباً بل هي بحاجة إلى رب. ولكن كل هذه سبل عقلية وفكرية، وليست من سبل الفؤاد. يعتبر القرآن الكريم طريق النبي إبراهيم عليه السلام طريق المحبة فالمحبة في هذا الاستدلال هي الحد الوسط، وليست الحركة أو الحدوث أو النظام أو الإمكان.

إن أهم هذه البراهين العقلية هو برهان الامكان والوجوب، مع إن كل واحد منها يسد حاجة بعض بحوث ومعارف التوحيد. والامكان المهم المعني هو الامكان الفقري وليس الامكان الماهوي. ونتيجة الامكان الفقري كما يحلل الحكيم المتأله تشبه طريق الفطرة الذي يمكن التوصل إليه بتحليل العقل العملي.

لأن الفقير بذاته يميل طبعاً إلى الغني بذاته، لأنه مرتبط بطبعه بالغني المحض. أي لا يمكن رفع التبعية والحاجة عن الفقير، ولا يمكن اعتبار الفقير مرتبطاً بغير الغني المحض. إذن فجميع الموجودات الفقيرة مرتبطة بالله لا بغير الله فهي ليست مستقلة لكيلا ترتبط بوجود غير نفسها ولا هي مرتبطة بغير الله.

للقرآن الكريم وروايات المعصومين عليهم السلام نوعين من الخطاب في تقرير موضوع التوحيد الفطري عند البشر عن طريق المحبة، أحدهما بُشِّرُ لمن يرعى الفطرة الالهية ولا يقبل محبواً سوى الله، والثاني تهديد لمن اختار محبواً باطلاً وكاذباً. وقد ذكرنا نماذج قرآنية على هذين النوعين من الخطاب من سورة التوبة وسورة المجادلة، كما ذكرنا مجموعتين من الروايات توازي نوعي الآيات القرآنية، من كتاب علل الشرائع للمرحوم الصدوق (رض) حول المحبوب الحقيقي والمحبوب الكاذب لدى البشر.

واستمراراً للبحث السابق نشير إلى آيات من القرآن الكريم تبين المحبة الصادقة وتعرف المحبة الكاذبة أيضاً. من الممكن أحياناً أن لا يدرس الانسان الغافل ميوله الفطرية فيتعلق بمحبوب مزيف من باب الخطأ في التطبيق فيقع أسير المحبة الكاذبة. أما الانسان النبيه فيدرس ويتعمق في روحه الالهية مستنيراً بالآية ﴿قد أفلح من زكاهها﴾^(١) ويحرق ويزرع أرضيتها ليحول دون دفنها ودسها في قبر الغرائز الهائجة ولا يسمح لغبار المعاصي بالجتوم على وجه روحه النير. بل يسوق روحه نحو الله لأنها تميل بالفطرة نحوه. وتراه بذلك يتعلق ويعشق المحبوب الحقيقي.

وقد ذكر القرآن الكريم كلا النموذجين، فهو يخاطب أسرى المحبة الكاذبة بقوله ﴿بل تحبون العاجلة﴾^(٢) كما ويقول ﴿يحبون العاجلة ويزرون وراءهم يوماً ثقيلاً﴾^(٣) فأمام هؤلاء وإمامهم هي الطبيعة الزائلة الخادعة، أما الحق فقد جعلوه وراء ظهورهم وكما تركوا كتاب الله وراء ظهورهم ﴿فنبذوه

(١) سورة الشمس، الآية: (٩).

(٢) سورة القيامة، الآية: (٢٠).

(٣) سورة الانسان، الآية: (٢٧).

وراء ظهورهم ﴿١﴾ فقد تركوا ذكر القيامة وراء ظهورهم أيضاً.

وقال عن نفس هذه الفئة: ﴿فاستحبوا العمى على الهدى﴾ ﴿٢﴾ أي أن الذين فضلوا الدنيا على الآخرة قد رجّحوا العمى على البصر في الحقيقة مما يدل على أن باطن الدنيا عمى وباطن الآخرة بصيرة. إنَّ الذي ينجذب الى الآخرة إنسان بصير ويتجه الى عالم البصيرة، فقد جاء ﴿وإن الدار الآخرة لهي الحيوان﴾ ﴿٣﴾. والذي يميل إلى الدنيا أعمى ويتجه الى عالم العمى، لهذا كانت هذه الجماعة عمياء حسب وصف القرآن.

وقد جاء في كلام الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنه من نظر الى الدنيا أعمته الدنيا أما الذي يجعل الدنيا وسيلة للرؤية وليس محطاً لها، جعلته الدنيا بصيراً ويقظاً، لأن الدنيا مركز العبر والامتحانات وتتضمن الكثير من السير التربوية.

وعلى أساس أن بعض الأمور المحبوبة لا تجدر بالمحبة يقول القرآن الكريم ﴿وعسى ان تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ ﴿٤﴾ أي عليكم أن تكونوا دقيقين في إختيار المحبوب، لأنه من الممكن ان يكون المحبوب الذي إخترتموه لا يخلو من الخير فقط، بل ويكون مدعاة للشر، ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ وقد أرشدكم الله للاتجاه الذي تصبّون فيه محبتكم.

﴿إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحييكم﴾

(١) سورة آل عمران، الآية: (١٨٧).

(٢) سورة فصلت، الآية: (١٧).

(٣) سورة العنكبوت، الآية: (٦٤).

(٤) سورة البقرة، الآية: (٢١٦).

الله ﴿^(١)﴾ يقول لا تحبوا ما لا يحمل الصبغة الالهية ﴿شرك لكم﴾ وقد نبّه القرآن إلى جميع الأخطار التي تصيب الانسان نتيجة إختيار المحبوب غير اللائق، كما إنه أشار الى الثمرات القيمة للصفات الكمالية، وعرّف أيضاً الأشخاص الذين أصبحوا محبوبي الله عز وجل بفضل توفر الملكات النفسية الحسنة لديهم .

في بعض الأحيان، يحبُّ الله جماعة بسبب صفات معينة، بينما أحياناً أُخرى يحب الله ذوات آخرين، فمثلاً قد يقول القرآن الكريم ﴿إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين﴾ ^(٢) و ﴿فإن الله يحب المتقين﴾ ^(٣) و ﴿يحب المقسطين﴾ ^(٤) و ﴿يحب المتوكلين﴾ ^(٥) و ﴿والله يحب الصابرين﴾ ^(٦) ويقول أحياناً ﴿فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه﴾ ^(٧) .

يذكر القرآن الكريم هذين التعبيرين مع فرق جدير بالالتفات. فحين يقول ﴿إن الله يحب المتوكلين﴾ فمرجه في الحقيقة الى ان التوكل حبيب الله، والمتوكل بسبب توكله يكون محبوباً من قبل الله. وحين يقول ﴿إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين﴾ أي ان التوبة والطهارة مما يحبه الله، وإن قال ﴿إن الله يحب المقسطين﴾ فمعنى هذا أن الله يحب القسط وتوزيع الأقساط على أصحابها وعدم التجاوز على أسهم الآخرين وإرجاع نصيب كل

(١) سورة آل عمران، الآية: (٣١).

(٢) سورة البقرة، الآية: (٢٢٢).

(٣) سورة آل عمران، الآية: (٧٦).

(٤) سورة المائدة، الآية: (٤٢).

(٥) سورة آل عمران، الآية: (١٥٩).

(٦) سورة آل عمران، الآية: (١٤٦).

(٧) سورة المائدة، الآية: (٥٤).

شخص إليه . وحين يقول ﴿فإن الله يحب المتقين﴾ أي أن التقوى مما يحبه الله .

أحياناً يعتبر القرآن بعض الأوصاف والمتصفين بها مما يحبه الله ، وتارة يعتبر بعض الذوات محبوبة لله ، وهذا الفرق يجب ان يتضح .

يقول عز وجل في سورة المائدة: ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم﴾^(١) أي أنكم إذا رجعتم عن الدين الالهي أو انصرفتم عن جبهة الحق ضد الباطل وعن نصره القرآن والخلاصة إذا اعرضتم عن الاسلام، فلا تظنوا ان الله سيتخلى عن القرآن والدين والاسلام ويتركها لحالها أو أنه بحاجة إلى نصرتكم، بل انكم أنتم المحتاجين الى نصره دين الله من أجل سيركم التكاملي، وإلا فالله غني محض وهو غني أيضاً في حفظ دينه .

وقد قال بلهجة التهديد ﴿وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾^(٢) ليس صعباً على الله أن يذهب بجيل ويأتي بجيل صالح ﴿إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد * وما ذلك على الله بعزيز﴾^(٣) .

ليس عسراً على الله أن يفني جيلاً ويحيي جماعة من جديد . لأنه لا يمكن تصور الصعوبة بالنسبة للقدره اللامتناهية، كما لا يمكن تصور السهل والأسهل بحقها . فجميع الأمور وجميع الأشخاص متساوون بالنسبة لله الذي

(١) سورة المائدة، الآية: (٥٤) .

(٢) سورة محمد، الآية: (٣٨) .

(٣) سورة ابراهيم، الآيتين: (١٩ و ٢٠) .

يمثل عين القدرة . ليس من الصحيح إفتراض أن شيئاً ما سهل على الله وشيئاً آخر أسهل أو أن شيئاً صعب عليه وشيئاً آخر أسهل .

يقول عز وجل في هذه الآية الكريمة ﴿من یرتد منکم﴾ إذا ارتد جماعة منکم ورجعوا عن دين الله وعضوا الطرف عن نصرته ﴿فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه﴾ سيأتي الله بجماعة أخرى يكون الله محبوبهم وهم محبوبي الله . أي وصف أرفع من علاقة المحبة؟ وأية نعمة أعظم من أن يكون الانسان محبوباً من قبل الله؟

ليس من المهم جداً أن يكون الله محبوباً لشخص ما، لكن إذا كان أحد الناس محبوباً لله فهذا منتهى الأهمية . وانطلاقاً من أن كل نظام الخلقه جنود إلهيون ﴿ولله جنود السماوات والأرض﴾^(١) فإن الله إذا أحب إنساناً أحبه كل نظام الخلقه، لأن كل هذا النظام تابع للإرادة الالهية، ولو ظهرت الإرادة الالهية على شكل محبة لأحد الناس المتكاملين فإن كل نظام العالم سيحب هذا الانسان ويميل إليه . وهذا المقام يُعدُّ من أبرز المقامات الانسانية لأن تعبير ﴿يحبهم﴾ وكما يقول سيدنا الاستاذ العلامة الطباطبائي يدل على محبة الله المطلقة التي تتعلق بذات الانسان الكامل لا بإحدى صفاته .

يقول البارئ تعالى إن هذه الجماعة حبيبة الله والله حبيها، إنهم لا يحبون الله لأنه الرزاق مثلاً أو أنه واهب الحياة أو باسط الرزق أو باسط اليدين وما شاكل من الأسماء الالهية الحسنی، بل إنهم يحبون ذات الله سبحانه سواء ظهرت هذه الذات باسمائها الجمالية أو باسمائها الجلالية . أي أن الله محبوبهم سواء أعطى أو منع، وسواء أحيأ أو أمات وسواء أفرح

(١) سورة الفتح، الآيتين: (٤ و ٧) .

وأضحك أو أحزن وأبكى.

لأنهم حين انعقدت قلوبهم على الله سبحانه، تعلقوا بجميع صفاته وأفعاله وأحبوها. فهم محبوبوا الله لا محبوبوا صفاته الجمالية من قبيل اللطف والعطف والرزق والبسط والاحياء، بل إنهم يحبون من الله الامانة والقهر والقبض أيضاً. فهم محبوبوا ذات الله. لذلك يرضون بما يرضي الله. ولأنهم محبوبوا الله فهم مرتبطون بالمقام الذي أشار إليه سيد الشهداء الحسين بن علي عليه السلام «رضي الله رضانا أهل البيت»^(١).

وللمحبة وبالنتيجة عبادة الله، درجات. فبعض الناس عبد الرزاق، وبعضهم عبد الباسط، وبعضهم عبد المحيي، وبعضهم عبد الشافي. وآخر عبد الكافي، وهناك عبد الله أيضاً، أي عبد الذات الجامعة لكل الاسماء الحسنی. فهو يرضى بكل ما يرضي الله.

وبهجة بما قضى الله رضا

وذو الرضا بما قضى ما اعتبر رضا^(٢)

مع إن هناك مقام أرفع من مقام الرضا ليس هنا مجال الكلام عنه.

والخلاصة هي؛ أن القرآن الكريم يعتبر هؤلاء السالكين محبي الذات الالهية وليسوا محبين لصفة من صفاته. ولأن هذا الانسان الكامل محب لذات الله سبحانه فإنه يفدي كل ما في العالم من أجل محبوبه، سواء كانت نفسه أو نفوس أهله أو جاهه أو منصبه أو ماله وبذلك فهو لا يدخر لنفسه شيئاً أبداً لأن كل ما في الوجود واسطة ومحبوبه هو ذات الله. يصف الله

(١) اللهوف، ص (٥٣).

(٢) من منظومة المرحوم الحكيم السبزواري.

هؤلاء بأنهم محبوبوا الله . وليسوا محبي صفة من صفات الله . إذا أحب الانسان ذات الله ولم يكن محباً لصفة خاصة من صفاته ولا محباً لفعل معين من أفعاله ، فلن يكون محباً لإحياء الله فقط ، بل يكون الاحياء والاماتة متساويان بالنسبة له من حيث الحب . فهو لا يحب رزق ويسط الله في حين لا يرضى بالقبض والفقير وما شاكل من الامتحانات الالهية . ولا تراه يصبر فقط عند هذه الإمتحانات ويتحملها على مضض ، بل تجده شاكراً في جميع الأحوال وصبره صبر الشاكرين ، لعلمه أن لا ينزل من المحبوب الحقيقي إلا الخير والرحمة ، من هنا فهو يقدم كل ما يستطيع في سبيل محبوه الحقيقي وهو في الحقيقة يفدي غير المحبوب لأجل المحبوب .

وأدنى من هذا هو ما بحثناه سابقاً في الآية ﴿لن ننالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾^(١) فلهؤلاء محبوب غير الله يؤثرونه في سبيل الله ، أما الفئة الأولى فهي لا تحب شيئاً عدا الله .

والخلاصة هي لو كان الانسان محباً لذات الله وأنفق كل ما يملك في سبيل الله سبحانه . ستكون ذاته محبوبة من قبل الله سبحانه أي لن تكون صفة واحدة من صفاته محبوبة من قبل الله بل سيكون كل وجوده من حيث الفعل محبوباً لله ، لذا قال عز وجل ﴿فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه﴾ فلأنهم يحبون الله أحبهم الله . إنهم يحبون ذات الله والله يحب ذاتهم . وليست القضية أن لهم صفات متعددة والله يحب بعض صفاتهم .

الانسان المتوكل مثلاً قد تكون له صفات وحالات أخرى لا يحبها الله لكن توكله مما يحبه الله ﴿إن الله يحب المتوكلين﴾ . أما إذا كانت الذات

(١) سورة آل عمران، الآية: (٩٢).

الانسانية بحيث لا تريد ولا تطلب سوى الله وفدت كل إمكانياتها في سبيل الله، ستكون هذه الذات بنفسها محبوبة الله سبحانه وعندها ستكون كل صفاتها وأفعالها محبوبة لله، وليس مجرد توكلها ولا مجرد تقواها وطهارتها أو صبرها بل تكون الذات محبوبة الله ﴿يحبهم﴾ أي أن الله يحب ذات هؤلاء كما إنهم ﴿ويحبونه﴾ أي يحبون ذات الله .

السرفي أن ذوات هذه الفئة محبوبة من قبل الله، هو أنهم سلكوا طريق المحبة وهو طريق الفطرة والميل نحو الله الى درجة أنهم اجتازوا كل المنازل والمراتب واحدا تلو الأخرى فوصلوا إلى حيث تنزهت ذواتهم من كل عيب ونقص، يستطيع الموجود الممكن في عالم الإمكان أن يتنزه عنه .

يدلنا الله في سورة آل عمران على طريق المحبة ويقول ﴿إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾ . يقول الله تعالى لرسوله ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني . . .﴾ إن إتباع الرسول اتباع الله في التقوى والتوكل والصبر والاحسان وما شاكل هذه الصفات التي عدها القرآن واحدة واحدة كونها مما يحبه الله .

إذا نال الانسان هذه الصفات واحدة تلو الأخرى واتصف بكل الفضائل لن يعد ثمة نقص في داخل وجوده الممكن ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾^(١) أنهم آمنون في الآخرة حيث ﴿لا يسمعون حسيبها وهم في ما اشتهت أنفسهم خالدون﴾ لا يحزنهم الفرع الأكبر^(٢) .

(١) سورة الأنعام، الآية: (٨٢) .

(٢) سورة الأنبياء، الآيتين: (١٠٢ و ١٠٣) .

هذه الجماعة هي التي اكتسبت الفضائل النفسية واحدة تلو الأخرى ووصلت ذواتهم إلى مرتبة الكمال في العلم والعمل، وازدهرت معرفتهم الفطرية شيئاً فشيئاً. لأنهم سقوا المعرفة بالعمل لتصبح بذرة العلم على شكل شجرة مثمرة، وثمار شجرة المعرفة هي شهود الله سبحانه واسمائه الحسنی. وإذا شاهد شخصُ الحق (الله) فلن يقبل محبوباً غيره، لأنه لا شيء يعادل جماله وجلاله. وإن وصلوا إلى حيث تكون ذواتهم محبوبة لله والله محبوبهم، سيحبهم كل نظام الخلقة ويعطف عليهم.

من هنا يقول الله؛ إنهم لا يبخلون بأي شيء في سبيل الله، لأنهم لا يعرفون محبوباً سوى الله، وهذه هي الفئة التي تستطيع أن تحكم العالم، فقد قال عز وجل ﴿والعاقبة للمتقوى﴾^(١) وقال كذلك ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين﴾^(٢).

وبعد أن يعدُّ الصفات البارزة لمحبي الله ومحبوبيه ويعتبرهم ورثة الأرض ويجعل الحكومة على الله ثوابهم ووظيفتهم، يذكر بعض برامج حكومتهم العالمية على النحو التالي: ﴿أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين﴾ إذا كانت الذلة متعدية بالحرف ﴿على﴾ تكون بمعنى الميل والعطف والمحبة والعلاقة. كما إن مصدر هذه الكلمة هو الذل (بكسر الذال) وليس الذل (بضم الذال) مما يعني الذلول الطبع وليس الذليل الحقير. وهم في ذلك كثمار الجنة التي وصفها تعالى ﴿وذلت قطوفها﴾. فهذه الجماعة ذليلة على المؤمنين أي هم يعطفون على المؤمنين ويخفزون لهم الجناح، وليسوا أذلةً وحقراء لأن المؤمن لا يمكنه أن يكون ذليلاً

(١) سورة طه، الآية: (١٣٢).

(٢) سورة القصص، الآية: (٥).

ووضيعةً، إنَّ محبوب الله لن يكون ذليلاً أبداً، بل المقصود هو أن هؤلاء عطفون ولينون مع المؤمنين، شأنهم شأن الرسول الأكرم ﷺ الذي أمره الله عز وجل بخفض الجناح للذين آمنوا ﴿واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين﴾^(١).

ليس خفض الجناح متساوياً وواحدًا في جميع الحالات، بل هو في بعض المواقع يفيد العطف والرحمة وفي بعضها يفيد الاحترام، يقول الله لرسوله ﷺ ﴿واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين﴾ فلا تبتعد عن المؤمنين وقد تيسرت لك القدرة على الطيران والتحليق. فترك المؤمنين الذين لا يستطيعون التحليق، بل ضمَّهم تحت جناحك كما تضمُّ الوالدة أولادها تحت جناحها لتربيتهم وتعلمهم أصول الطيران، ضمَّهم تحت جناحي التربية والتعليم والتزكية وعلمهم مبادئ العروج، ليكونوا جديرين بالصعود والتحليق نحو مبدأ العزة بواسطة العقيدة الصحيحة والعمل الصالح ﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾^(٢) أي إنك أيها الرسول الأكرم ﷺ تتمتع بمقدرة على التألق إلى درجة ﴿دنا فتدلى﴾ * فكان قاب قوسين أو أدنى﴾^(٣)، فلا تترك المساكين ولا تبتعد عنهم بل إخفض لهم أجنحة التواضع والتعليم والتهديب، ليرشدوا تحت أجنحتك.

وبالطبع فعليك أن تُظهر إمتعاضك وإنزجارك من المفسدين غير المستعدين للإنتفاع من المعارف الالهية ﴿فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون﴾^(٤) لذلك حين كان بعض المسؤولين في الجهاز الحكومي

(١) سورة الشعراء، الآية: (٢١٥).

(٢) سورة فاطر، الآية: (١٠).

(٣) سورة النجم، الآيتين: (٨ و ٩).

(٤) سورة الشعراء، الآية: (٢١٦).

لِلرَسُولِ ﷺ يعصونه ويرتكبون بعض المخالفات أو الخيانات في الأمانة، كان ﷺ يرفع بعض الأحيان يديه بالدعاء أمام الآخرين ويقول «اللهم إني أبرأ إليك مما فعله فلان» كما حدث هذا مع خالد بن الوليد.

لم يكن الرسول الأكرم ﷺ ليخفض جناحه للمتخلفين ويشملهم برحمته بل كان يجمع المؤمنين تحت أجنحة رحمته ليعلمهم أصول التجنح والطيوان. ولم يكن ليتعامل بمثل هذا التواضع والاحسان مع الوصوليين الماديين، بل كان ينظر إليهم كما قال عنهم الله تعالى ﴿فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين﴾^(١) أي لا ينبغي فقط تقصير أجنحة المخطئين بل يجب قطع جذورهم ودابرهم من الأساس.

والخلاصة هي أن خفض الجناح يتضمن أحياناً الرحمة، وهذا ما كان عليه الرسول العظيم ﷺ مع المؤمنين، ويتضمن أحياناً الاحترام، وهذا ما أمر الله به الأولاد أزاء والديهم ﴿إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف﴾^(٢) ﴿واخفض لهما جناح الذل من الرحمة﴾^(٣) أي ابسط جناحيك لوالديك من أجل الاحترام والتكريم بحيث يكون لينك وعطفك مشهودان قبال مقام الوالدين المنيح.

إن محبي الله الذين يحبهم الله أيضاً يخفضون أجنحتهم للمؤمنين من باب الرحمة والعطف والميل. وقد عبر الله عن صفتهم هذه بأنهم ﴿أذلة على المؤمنين﴾ أما على الكافرين فانهم أعزة وغالبون، لأن السلطة للمؤمن على الكافر ﴿أعزة على الكافرين﴾.

(١) سورة الأنعام، الآية: (٤٥).

(٢) سورة الاسراء، الآية: (٢٣).

(٣) سورة الاسراء، الآية: (٢٤).

إن استعلاء وإستيلاء أحباء الله على الكافرين محفوظ دوماً وهؤلاء المحبون الحقيقيون والمحبوبون من قبل الله لا يدخرون جهداً في سبيل دعم الأهداف الالهية ﴿يجاهدون في سبيل الله﴾ ومع إن هذه الجهود الخالصة لحفظ الدين محبوبة الله، لكن مقام أصحابها أسمى من الاعمال التي يحبها الله، فمثلاً يقول الله في سورة الصف ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص﴾^(١) في هذه الآية يذكر الله جهادهم ضد الكفر ويشير إلى بنيانهم الفولاذي وصفوفهم المحكمة، أما في آية سورة المائدة وهي الآية المعنية فإن الله يطرح ذاتهم نفسها بصفتها محبوبة الله. لذلك فهم يقدمون كل ما في أيديهم وبدون أي قلق في سبيل الله، ولا يصيبهم أي خوف من جراء هذا ﴿ولا يخافون لومة لائم﴾.

كان البعض من أهل النفاق ومن ضعيفي الايمان يقولون ان المقاتلين يلقون بأنفسهم الى التهلكة بدون مبرر، ولو كانوا قد مكثوا معنا ولم يذهبوا إلى الجبهات لما ماتوا ﴿لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا﴾^(٢) فلماذا زحفوا الى ميادين القتال وقُتِلوا؟ ينقل القرآن الكريم هذه النظرة الباطلة وينقدها ويقول أن الموت ليس في يد أحد أبداً بحث إن لم يذهب المرء الى القتال فلن يُقتل، وأنتم المتخلفون عن الجبهات لا تستطيعون دفع الموت عن أنفسكم إذا أتاكم ﴿فادرأوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾^(٣) إن الكثير من الناس يموتون بسبب الأمراض أو العلل والعوامل المفاجئة الأخرى، إذن فليس الموت والحياة في أيديكم. من ناحية أخرى يعتبر

(١) سورة الصف، الآية: (٤).

(٢) سورة آل عمران، الآية: (١٥٦).

(٣) سورة آل عمران، الآية: (١٦٨).

البعض من الرجال الالهيين أن واجبه الدفاع عن حريم الاسلام، لتصان العقيدة الصحيحة عند البشر من تناول المعتدين على الدين. وإنكم أيها المنفقون وضعيفو الايمان إذا لم تزحفوا الى ميادين النزال ضد الباطل، فسيذهب إليها من مصيرهم الشهادة في سبيل الله ﴿لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم﴾^(١).

فليس الأمر هو أنكم إن لم تشاركوا في ميادين الحرب فلن يشارك الآخرون. بل سيذهب إلى الجبهات أولئك المشتاقون إلى الشهادة وسيسافرون إلى مضاجعهم.

إن القبر والبرزخ مضاجع مؤقتة يأوي إليها الإنسان بعد رحيله من الدنيا، وينسل منها يوم القيامة. وحسب تصوير القرآن فإن الانسان يقول إذا نُشِر من قبره ﴿من بعثنا من مرقدنا﴾^(٢). القبر أو البرزخ يعتبر مضجعاً ومرقداً، يستيقظ بعده الانسان والى الأبد إذا حان يوم القيامة.

والخلاصة هي أن البعض كانوا يلومون المقاتلين ويؤنبونهم. فقال القرآن الكريم: إن هؤلاء المقاتلين ﴿ولا يخافون لومة لائم﴾ لأن مصدر الخوف هو أن يكون للإنسان محبوباً قابلاً للفناء فيخشى أن يذهب الآخرون بمحبوبه. إذا كان للإنسان محبوب اسمه الله واجتاز طريق ابراهيم الخليل عليه السلام وقال: ﴿وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض﴾^(٣) فإن محبوبه لا يفنى أبداً ولن تكون مكانته وشخصيته رهينة بمدح و قدح الآخرين، ليخاف من قدح فلان أو يُسر بمدح فلان. انه إنسان راضٍ عن الله،

(١) سورة آل عمران، الآية: (١٥٤).

(٢) سورة يس، الآية: (٥٢).

(٣) سورة الأنعام، الآية: (٧٩).

والله راضٍ عن ذاته ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾^(١) والذين يحبون الله ويحبهم الله ﴿يحبهم ويحبونه﴾ هم أنفسهم الذين في مقام الرضا رضوا عن الله ورضي عنهم .

إن الرضا لازم المحبة في مقام الذات، وأسمى منه هو التفويض، وبالطبع فنيل مثل هذا المقام الرفيع رهين باللطف الالهي الخاص، فقد ورد في آخر الآية المنظورة أنه ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء﴾ والله يمنح هذا الفضل لمن يجد فيه الكفاءة اللازمة، والله عليم بالقابليات المختلفة للأشخاص . ولا يمنح الله فيضه إلا لتلك القابلية الجديرة بتلقي الفيض حدوداً وبقاءً فالله لا يفيض على من ليست لهم قابلية تلقي الفيض حدوداً أو من ليست لهم هذه القابلية بقاءً كأن يهملون عن عمد الآيات الالهية التي تصلهم ويعرون أنفسهم من هذه الكسوة الالهية .

﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين﴾^(٢) .

وعلى كل حال فمن يجده الله لائقاً من حيث الحدوث والبقاء بالحصول على هذه الفضيلة سيمنُّ عليه بهذا المقام الرفيع ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء﴾^(٣) وليس الله ذا فضلٍ فقط بل إنه واسع الفضل . ولا يمكن حصر وتحديد الرحمة الالهية، فهو القائل ﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾^(٤) لكنه أيضاً عليم ويدري لمن يعطي وكم يُعطي . إذا استطاع الانسان أن يختار

(١) سورة المائدة، الآية: (١١٩) .

(٢) سورة الأعراف، الآية: (١٧٥) .

(٣) سورة الجمعة، الآية: (٤) .

(٤) سورة الأعراف، الآية: (١٥٦) .

طريق المحبة، فلا شيء يحدُّ الفيض والفضل الالهي عليه لأن ﴿والله واسع﴾^(١) إن الله يهب الانسان ما لا يخطر على باله وما لا يستطيع تصويره.

يقول عز وجل في بعض الآيات: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾^(٢). أي إن ثمة درجات في الآخرة لا يمكن ان يتصورها الانسان ولأنه لا يعلم بها فهو لا يتمناها أساساً، إذا أن حدود الأمل بمستوى الإدراك. لا يستطيع الانسان أن يحمل شيئاً كامل في رأسه أو أمنية في قلبه ما لم يفهم ويدرك هذا الشيء. إذا لم يكن الشيء ضمن حدود إدراك الانسان فلا يمكنه أن يكون ضمن حدود آماله، فالذي لا علم له بنعمة معينة لا يمكنه أن يتمناها، وحين لا يدري بوجود كمال معين فسوف لن يرجو تحصيله. لهذا يقول عز وجل أن هناك نَعَمٌ وفضل وفيوض في عالم الغيب والآخرة والجنة لا يعلم بها حتى أصحاب الجنة وإن كان قد قال سبحانه ﴿لهم ما يشاؤون فيها﴾^(٣) فقد قال أيضاً ﴿ولدينا مزيد﴾^(٤) أي أننا نمتلك أشياء ونعطي للمؤمن من الثواب مما ليس في طول الإرادة والعلل. فهو لا يعلم بهذه النعم ليطلبها والانسان يطلب ما يستطيع عقله أن يبلغه فإذا كان جاهلاً بالشيء فهو لا يطلبه ولا يريده أبداً. من هنا قال عز وجل أننا نفيض على الانسان في الجنة كل ما يطلبه ومع هذا فهناك أمور في الجنان فوق ما يطلب البشر.

وتشبه تلك الآية، قوله تعالى ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾ ثمة سلسلة من الفيوضات الالهية لا تزال في الغيب، وربما ظهرت

(١) سورة البقرة، الآية: (٢٤٧).

(٢) سورة السجدة، الآية: (١٧).

(٣) سورة ق، الآية: (٣٥).

(٤) سورة ق، الآية: (٣٥).

في الجنة، أما الآن فهي خافية ولا يستطيع حتى الصالحاء أن يدركوها، فما حال الآخرين. والاعتقاد بها مصداق للايمان بالغيب الذي يدفعهم للايثار بكل شيء في سبيل حفظ الدين، رغم ان خصائص ذلك الثواب الغيبي غير مكشوفة لهم. ولا تظهر إلا في الجنة ﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾.

ورد في بعض تعابير القرآن الكريم أنه ﴿سيجزئهم وصفحهم﴾^(١) أي أن الصفات التي يحملها الانسان ستتحول الى جزاء له يوم القيامة. ويقول سبحانه تارة ﴿اليوم تجزون ما كنتم تعملون﴾^(٢) بدون باء ويقول تارة أخرى ﴿سيجزئهم وصفحهم﴾ أي يجعل صفاتهم جزاء لهم وليس الجزاء شيئاً يعطونه مقابل صفاتهم ومطابقاً لها.

والخلاصة هي أن الشخص إذا وصل إلى مقام تكون فيه ذاته وليس فعله أو صفاته فقط، محبوبةً لله، سيحبه كل عالم الخلق. إذا أصبح الانسان الكامل حبيباً لله سيغدو حبيب العالمين أيضاً. إذا أصبح إنسان كامل كالرسول الأكرم ﷺ حبيب الله سيكون محبوباً من قبل كل نظام الخلق.

كما أشرنا في بداية الحديث فإن كل نظام الخلق من جنود الله لهذا تجد كل نظام الخلق يحب حبيب الله وينطوي على المحبة له في داخله. هؤلاء سالكوا درب المحبة ومعلموا الآخرين فهم يشرحون لمشتاقي سبيل الحبيب كيفية سلوك الطريق الإبراهيمي والانتفاع من بركاته وفيوضه.

في قبال هذه الجماعة هناك أشخاص يفرون من سبيل المحبة وينحرفون عنه، وقد بين القرآن الكريم الآثار المُرّة لتمردهم وقال: ﴿والله لا

(١) سورة الأنعام، الآية: (١٣٩).

(٢) سورة الجاثية، الآية: (٢٨).

يحب الظالمين ﴿١﴾ و ﴿لا يحب الكافرين﴾ ﴿٢﴾ و ﴿لا يحب الفاسقين﴾ و ﴿لا يحب كل خَوَّانٍ كفور﴾ ﴿٣﴾ و ﴿خَوَّاناً أَنِيماً﴾ و ﴿لا يحب المستكبرين﴾ ﴿٤﴾ ولا يحب كل ﴿مُسْرِفٍ مرتاب﴾ ﴿٥﴾ أي ان المبتلين بهذه الصفات السلبية لم يسلكوا درب المحبة ولم يكونوا من محبي الله ليكونوا من محبوبيه . لأن القرآن الكريم قد صرح إنكم إن كنتم تحبون الله فاسلكوا طريق رسول الله ﷺ ليحبكم الله . إن الذين يسلكون السبل المنحرفة لا يسلكون سبيل المحبة الالهية أبداً . فإرتكاب المعصية هو نفس سلوك طريق العداوة وهؤلاء هم أعداء الله ، والله عدوهم قهراً . إذا سلك شخص طريق العداوة سيكون هو عدو الله سبحانه ، كما قال الله ﴿من كان عدواً لله وملائكته﴾ ﴿٦﴾ كما سيكون الله عدواً له أيضاً ، ولأن عداوة الله من صفات فعله ستظهر على صورة القهر ، وقهر الله هو معيشة الضنك سواء في الدنيا أو في الآخرة . من هنا فإن هؤلاء سيكونون في ضيق خلال الدنيا كما قال تعالى ﴿من أعرض عن ذكري فإن هؤلاء سيكفونون في ضيق خلال الدنيا كما قال تعالى ﴿من أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً﴾ ﴿٧﴾ وكذلك خلال البرزخ وعند الرحيل من الدنيا ، فقد قال عز وجل ﴿يضربون وجوههم وأدبارهم﴾ ﴿٨﴾ وهم على هذه الحال في جهنم أيضاً ، كما قال الله ﴿وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً﴾ ﴿٩﴾ . ومعنى هذا أن الانسان إذا سلك طريق

(١) سورة آل عمران ، الآية : (٥٧) .

(٢) سورة آل عمران ، الآية : (٣٢) .

(٣) سورة الحج ، الآية : (٣٨) .

(٤) سورة النحل ، الآية : (٢٣) .

(٥) من سورة غافر ، الآية : (٣٤) .

(٦) سورة البقرة ، الآية : (٩٨) .

(٧) سورة طه ، الآية : (١٢٤) .

(٨) سورة محمد ، الآية : (٢٧) .

(٩) سورة الفرقان ، الآية : (١٣) .

عداوة الله فسيحل به الضيق خلال كل المراحل الثلاث؛ الدنيا والبرزخ والقيامة كما إن المؤمن السالك لطريق المحبة في سعة ورفاه ويتمتع بانسراح الصدر خلال كل هذه المراحل الثلاث. فقبوره نير على «مد البصر». وفي الجنة سيكون بيت المؤمن واسعاً إلى درجة أنه يستوعب في داخله كل أهل الأرض والله سبحانه هو الذي يعلم عظمة ذلك العالم إذ إن بيت المؤمن في الجنة بحجم السماوات والأرض. ولمحبة الله آثار كثيرة سعة البيت في الجنة جانب منها.

الفرق بين طريق الفطرة ودراسة طريق الفؤاد وبين تحليل طريق العقل كطريق الحركة والحدوث والامكان والنظام، هو أن معرفة طريق المحبة لا ينفصل عن العمل الصالح، خلافاً للطرق الفكرية التي من الممكن ان يكون العلم فيها منفصلاً عن العمل الصالح. فضلاً عن أن أياً من براهين الحركة والحدوث ليست جامعةً وشاملة. فمثلاً ينحصر برهان الحركة في حدود الموجودات المادية والمتحركة ولا يشمل الموجود المجرد المصنوع من التحول. كما إن الموجات المادية والمتحركة إذا وصلت لغايتها النهائية واستقرت في ذلك الموطن الهاديء ستخرج من دائرة برهان الحركة.

وبرهان الحدوث يستطيع ان يثبت المبدأ الفاعل للظواهر المادية فقط. أما الموجود المجرد المنزه عن نقص الحدوث المادي فهو غير مشمول لبرهان الحدوث. كما إن الموجود الحادث وفي مرحلة الاستقرار والثبات الخارجة عن نطاق التجدد والتحول، سوف يخرج عن إطار هذا البرهان.

والخلاصة هي أن برهان الحركة سواء كان بتقريب الحركة الجوهرية أو بتقريب آخر، وكذلك برهان الحدوث سواء كان الحدوث جوهرياً بحيث

ينفذ التحول إلى داخل هوية الأشياء المادية أو الحدوث غير الجوهرية الذي يطرأ على الأعراض فقط، هذه البراهين لا تكفي لإثبات المبدأ الواجب بشكل مطلق وشامل. بل إنها تفيد في بداية الاستدلال وأوائل الأمور فقط. وهذا خلافاً لبرهان الإمكان وخاصة الإمكان الفقري الذي هو برهان شامل، وسلوك طريق المحبة ان كان خاصاً بوجود مفكر مثل الانسان فطيئه سهل يسير في كل الأحوال وهو مرافق دائماً لتهديب النفس.

أرجو من الله سبحانه أن يمن علينا جميعاً بأن يدخل الى قلوبنا محبته ومحبة أنبيائه وأوليائه، وأن يفيض رحماته على أساتذتنا ومعلمينا ومؤلفي العلوم الالهية وان لا يفصل بيننا وبين القرآن والعتره في الدنيا والآخرة، وأن يجعل ثواب هذه البحوث هدية لأرواح شهداء الاسلام.

غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

نسيان النفس ونسيان الله

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . بسم الله الرحمن الرحيم .

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله وصلى الله على جميع الأنبياء والمرسلين والأئمة الهداة المهديين سيما خاتم الأنبياء وخاتم الأوصياء عليهما آلاف التحية والثناء .

البحث الذي تقدم، كان حول مسألة ان المعارف الالهية والإيمان بالله سبحانه، ليس فرضاً على النفس الانسانية، بمعنى انها ليست منافرة للفطرة بحيث تحتاج الفطرة الى اعمال مؤنة إكراه والزام لها على قبولها بل هو اعطاء الروح رغبتها الذاتية، فهو ليس تكليفاً عليها، بل منح مطلوب لطالب، وهداية طالب الى مطلوب .

وهناك عدة احتمالات في تبين نسبة نفس الانسان الى الأحكام الالهية والمعارف الدينية، وسوف يتضح بطلان بعضها، وصحة الآخر، بعد القيام ببحث دقيق . الاحتمال الأول؛ هو ان الأحكام الالهية مفروضة على الانسان، ولا تناسب روح الانسان، مطلقاً، ولا تلائم تكامله، ويتج عن

هذا قهراً أن تكون البرامج الدينية هي تكاليف محض فقط .

الاحتمال الثاني: هو ان نسبة روح الانسان، الى الأحكام الدينية والأحكام المضادة للدين، واحدة، أي ان التوحيد والشرك، كلاهما ليسا مقتضى ذات روح الانسان، حتى يكون احدهما تشریفاً والآخر تكليفاً. بل انها تقبل بشكل متساو، أي منهما، إذا عرضا عليها، تختاره وتسير إلى أية جهة، توجه إليها.

الاحتمال الثالث: هو ان روح الانسان تريد الحق، بالفطرة، والانسان يريد الحق بفطرته. وتعليم المعارف الالهية للإنسان، هي عبارة عن اعطاء الانسان، مطلوبه، والانسان حين يُدعى الى الايمان بالحقائق الالهية، فذلك يعني نصب مطلوبه الفطري أمامه وهداية الطالب إلى مطلوبه الذاتي، وهذا الاحتمال، حق وهو معنى ما يقال من ان الدين الالهي، فطري للناس، أي ان الانسان يريد الحق، فطرةً، ولا تتساوى أبداً نسبتبه إلى الحق والباطل، ولا تتساوى نسبتبه إلى القبح والحسن، وإنما يريد الحق فطرة ويطلب الجميل ويحب العدل. إذن فتعليم الانسان المعارف الحققة وقوانين العدل، يعني انضاج فطرته، وإرشاده الى غايته، وهو ليس عبثاً زائداً عليه.

ولذلك فالشخص الذي يخطو خطوة واحدة في القيام بعمل حسن وخير الذي هو مطلوبه بالاصالة يتقدم عشر خطوات، وجزاء العمل الصالح عشر أضعاف أو أكثر، كما انه يصعد عدة خطوات. واما في حالة ارتكاب العمل السيء والشر، فانه يسقط خطوة واحدة، لأن الخير مطلوب بالاصالة وفطري في الناس، والحركة في ذلك المسير سريعة، أما الشر والمعصية والذنب فهي ليست مطلوبة من قبل روح الإنسان، لذا تكون الحركة في ذلك المسير، بطيئة لروح الانسان الالهية، الا ان تصبح الحركة في ذلك المسير

عادة لديه جراء كثرتها. ولكن فطرة الانسان، على أي حال لا تقبل الذنب وارتكاب العمل القبيح، مثل سم، لا يقبله مزاج الانسان في البداية، بيد انه قد يلتذ به لذة كاذبة، بعد الاعتياد عليه.

والذنب بالنسبة لمزاج الفطرة التوحيدية، مثل سم مفروض على الانسان إلا بعد الاعتياد عليه، وكما ان الاعتياد على المواد السامة يؤدي في النتيجة الى هلاك المعتادين، كذلك الاعتياد على الذنب يفضي الى هلاك دائم لروح الانسان، ان ارتكاب الذنب والتمرد على التعاليم الالهية، أمر مرغوب لدى طبيعة بدن الانسان، لأنه مخلوق المادة، وله ارتباط طبيعي مع الماء والطين، لكنه فيه فرض على فطرة روحه، والزام لها بما لا تهواه أي ان الحس قد يلتذ بالذنب، إلا ان العقل يتألم منه.

والذنب إذا نفذ الى روح الشخص، يعتاد عليه الانسان الفاسد شيئاً فشيئاً، وقد لا يفهم قبحه لكن لذته الكاذبة تنتهي بالتدرج ويحين دور الهلاك، ومثلما ان الاعتياد على السم، يتضمن موتاً قطعياً، كذلك التعود على الذنب، يتضمن هلاكاً قطعياً للروح، لذا قال الله سبحانه: ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة﴾^(١). أي ان المعارف والحقائق الالهية وأداء الأوامر الدينية النافعة، تحيي الانسان، والعقائد الباطلة والأخلاق السيئة والأعمال الحرام تميت الانسان. ونتيجة كل حركة، واضحة بشكل قاطع، وليس فيها أي إبهام، حيث ان نسبة النفس الانسانية، الى الذنب والثواب، ليست متساوية، ولا يتساوى الايمان والكفر عند الروح، لأن الهدف الأساسي للنفس الانسانية، هو طاعة الله، وبالنتيجة هو البقاء حياً، والكفر والذنب، اللذان يؤديان الى موت دائم للروح سوف لن يكونا ميلاً

(١) سورة الأنفال، الآية: (٤٣).

فطرين أبدأ.

إذن نسبة النفس الانسانية الى الخير والشر والحسن والقبح، ليست واحدة، بل ان الذنب مفروض على الروح، دائماً تُلزم عليه من قبل البدن الطبيعي والمرتبة الحسية والا فروح الانسان تتحرك نحو الحياة الخالدة، ولها ارتباط مباشر معها.

وهذه الرابطة، رابطة وجودية وحقيقية وليست اعتبارية، وروح الانسان موجود واع، وهذه الرابطة الوجودية مرتكزة في نفس المربوط، فروح الانسان ترى الحياة الأبدية وفقاً لرؤيتها الشهودية، وتطلب ذلك المشهود، وهذا الشهود مصان من الالتباس، وهذا الميل المنزه من القسر والإجبار، هو فطرية الدين، وتسمى الفطرة الانسانية، وقد عبر عنها في الروايات بهذا الشكل وهو ان الله سبحانه، خلق الانسان على الفطرة التوحيدية.

ولو عرف الانسان ذاته لرأى حياته الأبدية قبل أي شيء، وأحبها، وإذا كان غير متعلقاً بالحياة الأبدية، فذلك لأنه لا يعرف نفسه، والذي أدى إلى جهله بنفسه، انشغاله بعالم الطبيعة ولذائذه الحسية، والانسان الخاضع للذات الحسية، يغفل عن نفسه، وإذا غفل عن نفسه، يغفل عن مبدأ خلقه، ويغفل عن المعاد ورجعته.

ويرى القرآن الكريم ان سر غفلة الانسان عن المبدأ هو غفلته عن ذاته فلأنه نسي نفسه نسي ربه، ولأنه لم يعرف نفسه ولم يكن على ذكر الله تعالى فقد غفل عن آخرته ورد في ختام سورة يس: قوله تعالى: ﴿وَضُرِبَ لَنَا مَثَلًا وَنْسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يَحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ

رميم^(١)، أي ان الذي ينسى خلقه، يشك بشأن القيامة ويتصورها بعيدة عن العقل والإمكان.

وتكون الإجابة أحياناً على الذي يشك بالقيامة، ويقول كيف يحيي الله الموتى، هي ان الله سبحانه قادر على إحياء الموجودات مرة ثانية، مثلما خلقها من التراب في بداية الخلق واعطاها الحياة، وحصيلة هذا الجواب، هي الارجاع الى الآيات الافاقية من أجل إثبات المعاد، لأن التدبر في الآيات الافاقية كاف لإثبات المعاد، كما ان مراجعة الآيات الافاقية، كافية لإثبات المبدأ.

وتارة يكون الرد على منكر المعاد بهذا الشكل، وهو انه لو راجع نفسه وعرفها، لفهم ان المعاد حق وضروري، وحصيلة هذا الرد، هو الارجاع الى الآيات الأنفسية لإثبات المعاد، وكما ان مطالعة الآيات الأفاقية، مفيد في معرفة الله، وكذلك التدبر في الآيات الأنفسية مؤثر، كذلك الحال في معرفة المعاد التي هي في الحقيقة معرفة المبدأ، تكون الآيات الأفاقية والآيات الأنفسية، كل منها دليل مستقل فيه.

ان إدراك المعاد، عن طريق الآيات الأنفسية، يكون أحياناً مثل التدبر في الآيات الأفاقية أي انه يحصل بالتفكير الحصولي وترتيب القياس المنطقي، وتارة على أساس الرؤية الشهودية والعلم الحضوري، وهذا الشهود الخاص، هو طريق معرفة النفس، حيث ان الذي يعرف نفسه، يعرف ربه، ويعترف به بعد المعرفة، وكذلك من يعرف نفسه، يعرف قيامته، ويقر بها، بعد المعرفة.

(١) سورة يس، الآية: (٧٨).

ان المراد من معرفة النفس ليس هو ان يفكر الانسان بهذا الشكل، ويقول انني لم أكن وصرت موجوداً، إذن فهناك خالق، خلقتني، لأن هذا التفكير الحسولي الذي عُبيء بمفاهيم ذهنية واستنتج منها هو كسائر العلوم الحسولية والذهنية، وقد لا يحصل الاعتراف بالمبدأ بعد معرفته كما ان معرفة مبدأ الخلق عن طريق برهان الحركة أو الحدوث، وأهم من ذلك برهان الامكان والوجوب، هو مجموعة معارف حسولية وليس ضرورية، ولا يستبعد في مثل هذه المعارف الحسولية انفكاك الاعتراف عن المعرفة وهذا الشكل من الاستدلال حول وجود النفس هو بدوره استدلال في الآيات الأفاقية، ومعرفة جزء من أجزاء الأفاق ولذا لا يسمى هذا النمط من التفكير بمعرفة النفس، وإنما هو استدلال فكري لإثبات المبدأ والخالق بجعل الحدوث حداً وسط.

فالتفكير بانني لم أكن وُخلقت كالتفكير بعدم وجود الأرض، ثم حدوثها، والاستنتاج على ضوء ذلك بان لها خالق، وهذا اللون من الفكر، هو طريق فكري وليس طريق فطري، وحصيلة ذلك هو العلم الحسولي لا الحضور والشهودي، وهذا الضرب من الاستدلال، مفيد لإثبات المبدأ والمعاد، واما معرفة النفس في هذه الاستدلالات، فليس لها دور مستقل عن دور معرفة الأفاق.

وكما ان المفكر يفكر بشأن العالم الخارجي، ويدركه عن طريق برهان الحدوث أو من خلال برهان الحركة، أو عن طريق برهان الامكان، فيعرف بذلك انه محتاج، فانه إذا فكر بشأن ذاته بهذا الشكل وقال انني محتاج إلى حادث أو في حالة حركة وممكن الوجود فانا محتاج إلى محدث أو واجب الوجود ومرتبطة به، لأنني حادث، أو لانني في حركة، أو لانني ممكن

الوجود، وهذا النمط من الاستدلال، نافع، الا ان هذه المعرفة الحصولية، لا تكون مطلقاً معرفة حضورية للنفس، وحصيلة ذلك في النتيجة، ليست معرفة الله من خلال معرفة النفس، وإنما ثمرة ذلك هي معرفة الله، من خلال معرفة الكون، لأن نفسه حادثة، حالها حال سائر الموجودات في عالم الخلق وهي في حالة حركة وممكنة الوجود فهي تحتاج إلى مبدأ الخلق.

أما إذا رأى نفسه، لا ان يفهمها ويعرفها، بل يشاهد نفسه بالعلم الحضوري، تلك النفس التي عين الربط بالله تعالى فمن المؤكد انه يشاهد المربوط اليه، وهو الله سبحانه، وذلك بمقدار شهوده، فالذي يرى نفسه، يشاهد يقيناً إلهه، بعين الروح، لأنه يشاهد نفسه، ونفسه هي حقيقة عين الربط بالله تعالى، فيرى الله، أيضاً، ولكن ليس بالعين الظاهرة ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار﴾^(١)، وإنما بالحقائق الايمانية، كما ورد في الكلمات النورانية لأمير المؤمنين عليه السلام وهذه المعرفة الفطرية هي المعرفة الحضورية والشهودية.

ان المعرفة الحضورية، ليست انتقال من علم حضوري الى علم حضوري آخر، لأن العلم الحضوري حقيقة خارجية وحقيقة شخصية، والواقعية الشخصية لا هي كاسبة ولا مكتسبة، لأنه لا يمكن إدراك حقيقة خارجية وشخصية من خلال معرفة واقعية خارجية وواقعية شخصية أخرى، لأن العلم الشهودي هو وجود خارجي، والوجود الخارجي لا يعبر عن غيره.

لذا، فان معنى من عرف نفسه، فقد عرف ربه، هو ان معرفة النفس

(١) سورة الأنعام، الآية: (١٠٣).

وهي شهود خارجي غير ممكنة من دون شهود الله سبحانه، لأن معرفة النفس، هي عين وجودها، ووجودها، عين الربط بالله، إذن، شهود النفس هو عين الربط بشهود الله. ولا يمكن الغفلة عن الله مع شهود النفس، مثلما ان من غير الممكن، شهود الله سبحانه، مع وجود الغفلة عن النفس.

وبناء على هذا، فالانسان الذي يرى نفسه، يرى كذلك، ربه وقيامته، لأن نفسه مرتبطة بالمبدأ الفاعلي من ناحية بدء الخلق، ومرتبطة بالمبدأ الغائي من ناحية الخلق، فهي مرتبطة بـ ﴿هو الأول﴾ وبهو ﴿الآخر﴾، إذن كيف يمكن ان يشاهد شخص نفسه، ولا يشاهد الله، الذي ﴿هو الأول﴾ ولا يرى مبدئه، وكيف بالامكان ان يرى نفسه، ولا يشاهد الله الذي هو ﴿الآخر﴾ ولا يعرف معاده.

لذا قال في سورة يس ﴿وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه﴾ وعبارة ﴿ونسي خلقه﴾ تعني نسيان المعاد بسبب نسيانه لنفسه، فهناك تلازم في ناحية المعرفة، بين معرفة النفس ومعرفة المعاد، وتلازم بين نسيان النفس ونسيان المعاد، من ناحية النسيان، وإذا شاهد المرء نفسه، فانه يرى نفسه مرتبطاً بالمبدأ، وبما ان المبدأ هو نفس المعاد، فعليه يجد نفسه مرتبطاً بالمعاد، وعند ذلك يصبح المعاد مشهوده، ويعترف به.

وإذا لم يعرف الانسان نفسه، فانه لا يعلم طريق حياته، ويؤدي ذلك إلى هلاكه وإذا لم يعرف نفسه فسوف لن يعرف طريق الحياة وسيقع قهراً في المهلكة وإذا لم يعرف نفسه فانه يحرم من فيض الله، والحرمان من فيض الله، هو الهلاك.

والقرآن الكريم، يقول ﴿نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾^(١)، ويقول ﴿نسوا الله فأنسوا أنفسهم﴾^(٢) والله سبحانه، لا ينسى، والنسيان، من الأوصاف السلبية لله، حيث قال: ﴿وما كان ربك نسياً﴾^(٣)، لأن الشهود المحض، لا يغفل أبداً، والعلم الصرف ليس فيه جهل، ولما كان السهو وكذلك النسيان، زوال للعلم، والله تعالى هو العلم ذاته، ومعنى ان الله يسهو، معاذ الله، هو جهل الذات التي هي العلم، ويستلزم ذلك جهل العلم ذاته وانعدام ذات الوجود، وهذا جمع بين تقيضين، ومحال، لذا قال ﴿وما كان ربك نسياً﴾ وقال ﴿في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى﴾^(٤)، أي ان أسرار كل الماضين معينة في كتاب، والله لا يضل أبداً ولا ينسى، بل ينظر الى جميع الأسرار ويراها.

فقوله ﴿نسوا الله فأنسوا أنفسهم﴾، هذا التعبير هو اما من باب صناعة المشاكلة البديعية، مثل ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾^(٥)، بينما جزاء سيئة الانسان، ليس عملاً سيئاً، فتأديب الظالم، ليس سيئة والحاكم العادل الذي يؤدبه، من أجل إقامة النظم والقسط في المجتمع، لا يقوم بسيئة، بل حسنة، ولكننا نقرأ في القرآن قوله ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾، وقد عبّر عن اجراء العدل بكلمة سيئة، وهو اما لأن هذا الجزاء (غير ملائم) لحال المسيء، فيسمى لذلك سيئة، أو ان يقال ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾ من باب المشاكلة.

وقوله تعالى: ﴿نسوا الله فأنسوا أنفسهم﴾، هو اما من باب المشاكلة، أو ان

(١) سورة الحشر، الآية: (١٩).

(٢) سورة التوبة، الآية: (٦٧).

(٣) سورة مريم، الآية: (٦٤).

(٤) سورة طه، الآية: (٥٢).

(٥) سورة الشورى، الآية: (٤٠).

هذا النسيان هو في مقام العلم الفعلي، والعلم الفعلي ينتزع من مقام الفعل، وليس من مقام الذات، وإذا لم يصل فعل الله الذي هو جود وعطاء الله، إلى شخص، في موطن ما، ينتزع النسيان من عدم وصول الجود والعطاء. والشخص الذي لا يصله الجود الالهي، يهلك، إذ ليس بإمكان الانسان ان يظل حياً بذاته، ولا باستطاعته استحصال سبب الحياة من علل وعوامل أخرى، بل يجب ان تصله كل هذه الفيوض من قبل الله تعالى، مباشرة. ﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾^(١). وإذا لم يصل فيض الله في فترة من الفترات، الى كائن ما فانه يفنى، لذا قال ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يممسك فلا مرسل له من بعده﴾^(٢).

وفي هذا دلالة على ان المخلوق الذي لا يصله فيض من الله يفنى، لأنه ليس ثمة عامل آخر بقادر على الافاضة، والله سبحانه يرسل فيضاً للأفراد اللائقين، ولا يرسله لغير اللائقين ولا يفتح باب الفيض لهم، والموجود الذي لا يصله الفيض، يزول بالتأكيد، وعدم ايصال الفيض، هو ترك الفعل، والنسيان ينتزع من هذا الترك للفعل، مثلما ينتزع التذكر والعلم من فيض وفعل الله، لأن العلم الفعلي لله، هو ذات فعله، وفي الحالة التي لا يكون هناك فعل لله، ينتزع من تلك الحالة النسيان وفي حالة عدم وجود الفعل أي عدم صدور الفيض، يهلك الانسان، لأن الحاجة هي عين ذاته، وهو محتاج إلى افاضة الوجود، في كل لحظة، حتى يظل حياً.

وبناء على ما تقدم، فان تعبير ﴿نسوا الله فانسهم﴾، عُبر بالنسيان، اما من باب المشاكلة وإلا فإنه لا نسيان في البين، أو من باب النسيان في مقام

(١) سورة النحل، الآية: (٥٣).

(٢) سورة فاطر، الآية: (٢).

العلم الفعلي، أو ان تفسير نسيان الله بالانساء بمساعدة آية سورة الحشر التي تقول ﴿فأنساهم أنفسهم﴾ .

وعلى أي حال، لو أردنا ان يتبين كيف يُنسى الله الانسان نفسه، وماذا يحصل حتى ينسى الانسان نفسه، نستعين في هذا الصدد بالآية الآتية من سورة الأنفال ﴿يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه﴾^(١) ، ومفاد هذه الآية، وان كان قاعدة عامة، وهي ان جميع الأوامر الالهية هي عامل في الحياة المعنوية للناس، ولكن بما انها وردت في سياق آيات القتال والجهاد والدفاع ومحاربة الكفار والفاستدين فان مرادها، هو ان تقوموا بمحاربة الكفار وتقاتلونهم وهذا القتال والمواجهة يحييكم، ورغم انكم قد تستشهدون حسب الظاهر، ولكنكم إذا احييتم الدفاع والجهاد، يحيا المجتمع، وحكم الدفاع هذا، وحكم الجهاد، عامل في حياة المجتمع الانساني .

وطبعاً انه، ليس المورد مخصصاً ولا ان السياق الذي هو بصدد الجهاد والدفاع عن الاسلام مخصص للعموم، أو مقيد للاطلاق، وإنما كل تعاليم ودعوات خاتم الأنبياء ﷺ هي عامل حياة .

روي ان رجلاً كان يصلي، فناداه رسول الله ﷺ، لكنه واصل صلاته، وبعد اتمام الصلاة، جاء الى النبي ﷺ، فسأله النبي ﷺ عن سبب عدم إجابته لدعوته، فقال بأنه كان منشغلاً بالصلاة، فذكره النبي ﷺ، بقول الله تعالى ﴿استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾^(٢) .

(١) سورة الأنفال، الآية: (٢٤).

(٢) تفسير البيضاوي، آخر الآية (٢٤) من سورة الأنفال.

وهذه القضية التاريخية، شاهدة على عموم واطلاق الآية كما ان تلك القاعدة العامة أيضاً المستفادة من نفس الآية . والسياق والمورد وأمثال ذلك، ليس لها صلاحية في تخصيص العموم أو تقييد الاطلاق القويان، ان جميع الدعوات الإلهية التي نادى بها رسول الله ﷺ هي عامل حياة، تحيي الانسان، إذ قال في سورة يس ﴿لينذر من كان حياً﴾^(١)، أي ان القرآن الكريم ينذر ويخوف من عذاب المعاد، من كان حياً، ولم يطفىء فطرته، لأن الفطرة السليمة، هي التي تقبل كلام الوحي .

والغرض، هو انه بالرغم من ان بالامكان الاستفادة من شواهد متنوعة، بان جميع الأوامر الإلهية تُحيي، بيد ان الآية المذكورة، هي في سياق آيات الجهاد، ومضمونها هو ان تقوموا بالجهاد ضد الكفار، إذا دعوناكم إلى محاربتهم، لأن هذه المواجهة والمقاتلة للكفار، تحييكم، مثلما ان إجراء حكم القصاص، يحييكم . ﴿ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب﴾^(٢) . أي ان القصاص في الحقوق الشخصية، هو عامل حياتكم والحياة الاجتماعية السليمة، تضمن في ظل تحقق هذا القانون الإلهي الخاص، ويُحال دون القتل الذي لا مبرر له، كذلك الجهاد والدفاع في طرق دين الله، يؤمن حياة المجتمع، واستشهاد بعض الناس في سبيل الله يؤدي إلى حياة معقولة لهم، ويكون أرضية لحياة سليمة للمجتمع .

وبعد ان طرح مسألة الحياة في سياق أحكام الجهاد والدفاع عن الحرمة، وأعلن ان إجابة دعوة الجهاد، هو عامل حياة سليمة ومعقولة، قال: ﴿واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه وانه إليه

(١) سورة يس، الآية: (٧٠) .

(٢) سورة البقرة، الآية: (١٧٩) .

تحشرون ﴿١﴾ . ان قلب الانسان، هي الحقيقة التي تؤمن انسانية وواقعية الانسان، وعبارة، ﴿بين المرء وقلبه﴾، تعني بين الانسان ونفسه، لأن الانسان أجوف، وليس صمداً، فالصمدية لا تنسجم مع الامكان الذاتي، بل هي خاصة بالله سبحانه، وقدرة وعلم الله، فاصلة بين الانسان والقاعدة الفكرية للانسان، بين الانسان وقاعدة اتخاذ القرار في الانسان بين الانسان ورؤيته، بين الانسان واتجاهه، بين الانسان وعقله النظري، بين الانسان وعقله العملي، والخلاصة، بين الانسان ونفس الانسان .

وإذا كانت قدرة الله خطأً فاصل بين الانسان وذاته، وبين الانسان وصفاته، وبين الانسان وأفعاله، فانه يسلب منه توفيق معرفة نفسه، وإذا أراد الحيلولة دون التفات الانسان الى نفسه، وبما ان حقيقة الانسان، ذات مراتب متنوعة، فان بعض مراتبه طبيعية وبعضها نباتية وبعضها حيوانية، ومرتبته الرفيعة انسانية، لذا فان توفيق الالتفات الى تلك المرحلة العالية، يسلب منه، في حالة اتجاهه الى الفساد، بحيث ان الشخص الذي ينسى الأوامر الالهية، ولا يتذكر الله سبحانه، يتلى بعقاب اليم، وهو نسيانه لحقيقته . ﴿نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾، أي ان الله سبحانه ينسي الانسان، في هذا الحال، تلك الحقيقة الفطرية والأصلية فيضيع الانسان نفسه، لأن قدرة وعلم الله تحول بين الانسان وحقيقته وفطرته، ويوجه وجه كل شخص، الى الاتجاه الذي اختاره ذلك الشخص نفسه ﴿ولكل وجهة هو موليها﴾ (٢) .

ومع ان هذه الجملة، وقعت في سياق آيات القبلة، حيث قال تعالى،

(١) سورة الأنفال، الآية: (٢٤) .

(٢) سورة البقرة، الآية: (١٤٨) .

بعد ذكر قضية القبلة: ﴿ولكل وجهة هو موليها﴾، أي ان لكل قوم قبلة، ولكم أيضاً قبلة خاصة، لكن ذلك يقبل الانطباق في القضية التكوينية، كذلك، وظاهر هذا الحكم ومفاد هذه الجملة هو ان كل إنسان يختار طريقاً خاصاً، والله تعالى، يسهل السير في ذلك الطريق المنتخب، ويوصل الإنسان الى نهايته، فإذا اختار طريقاً جيداً. اعانه الله، في قطع هذا الطريق، وأوصله الى المقصد بأفضل وجه.

لذا قال تعالى، في اختيار الطريق الأفضل ﴿فاستبقوا الخيرات﴾^(١)، أي اختاروا الطرق الجيدة، وإذا اخترتم طريقاً سيئاً، يسهل الله تعالى عليكم، سلوك ذلك الطريق، ويوصلكم الى نهايته، وهي جهنم الحارقة. ﴿نوله ما تولى ونصله جهنم﴾^(٢)، فأى سبيل ينتخبه الانسان، يمسك الله بزمامه ويوصله إلى آخر ذلك الطريق، ونهاية ذلك الطريق، هو اما درجة من درجات الجنة، أو دركة من دركات جهنم.

وكل جهة يتولاها الانسان، ويتحرك في اتجاهها، فالله تعالى يكون مولياً، فالذين يختارون مسيراً منحرفاً، قال بشأنهم: ﴿نوله ما تولى ونصله جهنم﴾، وقال حول الذين اختاروا مسير الحق: ﴿يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام﴾^(٣) وقال: ﴿ومن يؤمن بالله يهد قلبه﴾^(٤) وقال ﴿وان تطيعوه تهتدوا﴾^(٥)، أي أن الله سبحانه، يوصل اتباع مقام الرضى الالهي، الى السبل التي نهايتها، سلامة وخاصة سبل السلام، هذه، ليس فقط انها

(١) سورة البقرة، الآية: (١٤٨).

(٢) سورة النساء، الآية: (١١٥).

(٣) سورة المائدة، الآية (١٦).

(٤) سورة التغابن، الآية (١١).

(٥) سورة النور، الآية (٥٤).

سالمة من كل (خطر) بل انها توصل الانسان السالك الى لقاء الله السلام، لأن السلام، هو من أسماء الله الحسنى .

وبناء على هذا، فكل سبيل يختاره الانسان، يعينه الله في قطعه، سواء كان سبيلاً حسناً او سيئاً، ولما كان سلوك طريق السقوط ووادي الهلاك، يتعارض مع فطرة وحقيقة انسانية الانسان، والشخص الذي يتذكر واقعيته الانسانية، لا يقبل ابدأ بسلوك طريق الفساد، لذا يتعرض الى العقاب الالهي، نتيجة اختيار الطريق السيء، وهذا هو نسيان للنفس، ولذا يفكر بكل الأمور، ولكنه لا يفكر بحقيقته وتأمين حاجاته الفطرية، لأنه نسي نفسه . من هنا يمكن القول، ان بإمكان الله ان ينسي الانسان حقيقته، أي ينسيه تلك المرحلة العالية .

ولو كان الانسان موجوداً ذا بعد واحد ومرحلة واحدة، كالملائكة الذين ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾^(١) و﴿يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون﴾^(٢)، لما ابتلي أبدأ بنسيان النفس، اذ لا ينفذ فيه عامل النسيان، ولكن بما انه ليس ذا بعد واحد، حيث لديه فطرة توحيدية، وطبيعة حيوانية، أشار اليهما الله تعالى، فقال بشأن فطرته التوحيدية: ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾^(٣)، وقال بشأن نزعتة نحو الطبيعة: ﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين﴾^(٤)، فاذا كان لديه اتجاه نحو الحق، عن طريق الفطرة، فان لديه تحرك نحو الطبيعة من خلال الاحساس واذا هبط من قمة الصعود الى الفطرة، نتيجة الاتجاه نحو الطبيعة، فان الله ينسيه الالتفات

(١) سورة التحريم، الآية (٦).

(٢) سورة النحل، الآية (٥٠).

(٣) سورة الروم، الآية (٣٠).

(٤) سورة آل عمران، الآية (١٤).

الى اتجاه الانسانية العالى .

ومثلما ان نسيان الله ، هو سبب نسيان النفس ، فانه يهيبى الارضية
لنسيان لطف الله للنفس ، فقد قال تعالى عن نسيان اللطف يوم القيامة ﴿إنا
نسيناكم﴾^(١) ، أي اننا ننساكم من ناحية اللطف والمحبة ، وهذا النسيان كما
سبق توضيحه ، يعود الى مقام الفعل ، اذ ان الفيض الالهى ، اذا لم يصل
شخص ، تنتزع من عدم وصول الفيض ، صفة النسيان ، وقد قال ، عن نسيان
اللطف في الدنيا ﴿نسوا الله فسيهم﴾ .

ومع ان هذا التعبير بالاضافة الى تفسير النسيان الفعلي وليس النسيان
الذاتي ، فهو قابل للحمل على المشاكلة وهي صناعة أدبية ، كما انه يقبل
الحمل على الانساء ، كما هي آية سورة الحشر ، أي أن الله سبحانه ينسيهم
أنفسهم .

وحول كيفية انسيانهم لأنفسهم ، أوضحنا ان القدرة والعلم الذاتي لله
سبحانه تحول وتفصل بين ذات الانسان وقلبه ، الذي هو حقيقته .

ويؤيد هذا المعنى الدقيق ، الكلام المعروف ، الذي ورد في بعض
كتب الحديث ، ويلاحظ في كتب أهل المعنى ، أيضاً ، وهو «ان القلوب بين
اصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء»^(٢) .

وكان للاستاذ العلامة الطباطبائي - رضوان الله عليه - كلام في دروسه ،
حيث كان يقول ان الأعمال الظريفة تنفذ برأس اصبع ، والأعمال القوية ،
تنفذ بكل اليد ، فلو أراد شخص مثلاً بناء جدار أو ضرب قطعة حديدية ، فانه

(١) سورة السجدة ، الآية (١٤) .

(٢) علل الشرائع ، باب نواذر العلل ، الحديث (٧٥) .

يمارس هذه الأعمال القوية بكل يده، اما اذا أراد القيام بعمل فني ظريف، فانه يستخدم أصابعه، كما في الرسم والمينياتور والكتابة .

وقضية تحول القلب، هو عمل ظريف جداً، بحيث ان تغييره لا يلاحظ من الأساس، أحياناً، وعلى الانسان صاحب القلب ان يكون دقيقاً، حتى يشاهد تحوله الباطني، لأن هناك تعليمات خاصة لكل تحول، اذا لم تراع، فان من المحتمل الابتلاء بنسيان النفس، لأن هناك احتمال ان يغير الله تعالى قلبه من حالة الى حالة أخرى، ويعيش عمره في هذا الحال، ثم يفهم في ما بعد ان قلبه قد قُلب وقلب الانسان، يقع بين جلال وجمال الله، وغضبه ورأفته، ورضاه وسخطه، وقبضه وبسطه، واحيائه واماتته، والتحول والتغيير في ذلك سهل وسريع، وظريف الى درجة، ان الانسان يجهل بالتغيير، اذا غفل عنه، ولذا علينا قبل كل شيء، ان نراقب قلوبنا، حتى لا تدخل اليها عقيدة أو نية خاطئة، والا فيشملها غضب الله وتغيير، وشيئاً فشيئاً ينسي الله، الانسان نفسه ولا يسمح له برؤية نفسه، وانما يرى حيوانيته ونباتيته وجماديته، وينسى حقيقته الأساسية، ونسيان الانسان لحقيقته وفطرته، أهم خطر عليه، مثلما ان معرفته لحقيقته، ومعرفته قلبه جيداً وتعرفه على جميع الواردات عليه، وفصل الخواطر الرحمانية والملكية عن النفسانية والشيطانية، هي أهم نفع له، وعند ذلك يفهم امتياز الخاطرة الرحمانية عن الخاطرة الملكية، ويعتزم تهذيب نفسه بمعيار خاص لكل منها.

سئل أحد العلماء: (بما عرفت ريبك)؟ قال: (بواردات ترد على القلوب فتعجز عن تكذيبها) وهذه الواردات الالهية، تثبت ان لها مورد، فيتضح، ان القلب هو تحت تصرف (مقلب القلوب).

وكان رسول الله ﷺ يذكر هذا الدعاء كثيراً: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» ونحن مكلفون بعرض هذه الأدعية، كثيراً في محضر الله تعالى، يا مقلب القلوب ثبت قلبنا على دينك.

لقد طرح القرآن الكريم، مسألة تثبيت القلب، في كثير من المواضع، مثل ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا﴾^(١)، والزيغ هو الانحراف. وقوله تعالى: ﴿فلما أزاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾^(٢) وإذ انحرف القلب، لا يظل مجال لمعرفة النفس.

قال تعالى، في سورة الصف: ﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون اني رسول الله اليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾^(٣)، وهؤلاء الذين ساروا في طريق منحرف، ساروا تارة وراء السامري، وقالوا تارة لموسى الكليم ﷺ ﴿اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة﴾^(٤)، وقالوا مرة: ﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾^(٥)، وقالوا: ﴿لن نصبر على طعام واحد﴾^(٦)، فهم موحدون حيناً، ومشركون حيناً آخر، ويتساوى لديهم التوحيد والشرك، ومن اثر تراكم الذنب، ازاغ الله قلوبهم، والله تعالى، له نفوذ بيننا وبين قلوبنا، أي بين القلب ونفس القلب، لأنه مقلب القلوب، فالله فقط، صمد ولا يقبل النفوذ.

وقد ورد في الروايات، ان كل كائن، هو مخلوق أجوف ومعتمل، أي

(١) سورة آل عمران، الآية (٨).

(٢) سورة الصف، الآية (٥).

(٣) سورة الصف، الآية (٥).

(٤) سورة الأعراف، الآية (١٣٨).

(٥) سورة البقرة، الآية (٥٥).

(٦) سورة البقرة، الآية (٦١).

يقبل العمل، وبما ان الانسان مخلوق وأجوف، فهو معتمل في جميع وجوده، اذن، قلب الانسان يقع بين صفتي جمال وجلال الرحمن، وهو قابل للانقلاب في كل لحظة. وتعبيرات القرآن الكريم في هذا الصدد متنوعة، فمرة يقول ﴿فانساهم أنفسهم﴾ وتارة يقول: ﴿أزاغ الله قلوبهم﴾، اي غيرنا حقيقتهم، لأن الانسان ليس شيئاً آخر سوى قلبه، لذا تنسب الى قلب الانسان، المعصية، التي هي من عمل الانسان نفسه ﴿ومن يكتمها فإنه آثم قلبه﴾^(١)، والشخص المصاب بالردائل الأخلاقية، مريض القلب، والذي لا يتقبل قلبه مواظب الأنبياء فهو قسي القلب، حيث قال تعالى: ﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة او اشد قسوة﴾ وقال أيضاً: ﴿والقاسية قلوبهم﴾^(٢)، فيتبين ان جميع هذه الأوصاف، لها نسبة الى القلب، وهو حقيقة الانسان، وحقيقة الانسان هي قلبه الذي يقع تحت تصرف وصفي غضب ورأفة الله، والله سبحانه، يغيره كل ما رأى في ذلك مصلحة.

ان وجه قلب الانسان اذا تغير من الفطرة التوحيدية نحو طبيعته الحيوانية، يحرم ابدأً من الفيض الالهي، مثل وعاء يكون مقلوباً على الأرض، حيث لا يصل الى داخله المطر، بل ينحدر من خلفه والقلب المنكوس نحو الطبيعة لا يصل الى داخله، الفيض النازل من قبل الله، لأنه موجه نحو الأرض وكل همه الاستخراج من الأرض وتجميلها، ومثل هذا الانسان منكوس الرأس، حال سائر الحيوانات لذا يحشر يوم القيامة كالحيوان. ﴿اذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم﴾^(٣).

(١) سورة البقرة، الآية (٢٨٣).

(٢) سورة الحج، الآية (٥٣).

(٣) سورة السجدة، الآية (١٢).

فانقلاب القلب، وقبضه وبسطه، وسائر الحالات، هي بيد الله غاية ما هنالك وقد قال الله تعالى انه اذا تحركتم مقداراً نحو الايمان، يثبت قلوبكم على الفطرة التوحيدية، واذا انحرفتم، يزيغ قلوبكم وينسيكم أنفسكم.

جاء في روايات أخذ الميثاق، ان الله سبحانه، دلّ الانسان على حقيقته ودعاه الى رؤية نفسه ومعرفتها، وفي ذلك الحال حيث شاهد الانسان حقيقته الفطرية وواقعيته الربطية، اعترف بكل من ربوبية الله، وبعبوديته، وهذا المعنى يتطلب بحثاً مستقلاً كي يدرس باستيفاء وهو كيف ان الله سبحانه، يري نفسه، للانسان في بعض مواطن الوجود ويطلعه على حقيقته، ويشهده على هذا الاطلاع، ويجعل الانسان شاهداً لذاته، وفي المقابل ينسي الانسان نفسه في بعض الحالات، ويجعله غافلاً عن حقيقته وينسي الانسان واقعيته وأمثال ذلك، والنتيجة يكون ناس، ينسى نفسه، تارة، او يكون شاهداً، يشاهد نفسه، وهو بحث سنطرحه في ما بعد ان شاء الله.

نرجو الله تعالى، ببركة القرآن الكريم، ان يترحم على قلوب الجميع، بنور معرفته والتعرف على المعارف الالهية.

غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الفطرة ارتباط وجودي واع بالعلة الغائية

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله وصلى الله على جميع الأنبياء والمرسلين والأئمة الهداة المهديين سيما خاتم الأنبياء وخاتم الأوصياء عليهما آلاف التحية والثناء .

بحثنا في الدرس السابق، حول الميل الفطري للانسان، الى المعارف الالهية . وقد ذكرنا ان الله تعالى، قد وصف رسوله ﷺ كمعلم للكتاب والحكمة، وكذلك كمزكّي، وتعليم الحكمة يحصل بتبيين الفطرة ونضوج الرغبات الداخلية لكل انسان، مثلما يحصل كذلك عن طريق تحليل العلوم الذهنية والتجريبية .

وقد خلق الانسان، من منظار القرآن الكريم، بشكل، بحيث انه يتحرك الى الكمال المحض والوجود الصرف، وهو الله سبحانه، وكلما يعبد الله انسان من دون الله او يدعن له ويقبله فان عبادته له تكون كاذبة وقبوله له كاذب، وقد بعث الأنبياء السائرين في مسير الصدق، من أجل انضاج فطرة

معرفة الحق وطلب الحق الموجودة لدى الناس ، فيفرزوا قبولهم الصادق من قبولهم الكاذب ، ويميزوا عبادتهم الصحيحة من عبادتهم الكاذبة ، ولذا يطرحون بيانات فطرية مع البراهين العقلية ، ومن هنا يتحدثون مع الناس بلغة المحبة ويوضحون لهم ميولهم الباطنية ، ويقولون لهم بأنهم لو نظروا الى انفسهم ، لوجدوا انهم يحبون الحقيقة ويريدونها ، وبما ان هذه الحقيقة لا توجد الا عند الله ، لذا يجب ان يكون محبوبهم هو الحق .

ولذلك حين استدل ابراهيم الخليل ، سلام الله عليه ، على التوحيد الربوبي ، استعان ببيان المحبة ، فذكر ان هذه النجوم آفة وانه لا يحب الآفلين ﴿لا أحب الآفلين﴾^(١) ، فهو لم يقل ان هذه الكواكب ، تتحرك ، ولكل متحرك ، محرك ، او ان هذه النجوم ، حادثة ، ولكل حادث محدث ، او ان هذه الاجرام السماوية ، ممكنة ، ولكل ممكن واجب ، بل قال انه لا يحب شيئاً زائلاً ، والرب هو الذي يكون محبوباً ، والمحبة الذاتية والدائمة لا تنسجم وغيبة المحبوب ، لذا فالكائن الذي يغيب ويزول احيانا ، لا يمكن ان يكون محبوباً ، وبما انه لا يمكن ان يكون محبوباً ، فعليه لا يمكن ان يكون رباً ، لأن الرب هو الذي يتحرك ويميل الانسان اليه ، حركة وميلاً ذاتياً ودائماً ، ولما كان الميل والحركة غير ممكنة تجاه كائن غائب وزائل ، فان ذلك الموجود لا يكون رباً ، وخلاصة هذا البيان ، هو تحليل الفطرة وليس تحليل الفكرة .

وتتمة لبحث المحبة الفطرية ، هناك شواهد في القرآن الكريم ، ذكرنا بعضها في بحوث سابقة ، وستعرض الآن الى طرح بعضها الآخر . لقد شرح الله تعالى ، بشكل واسع ، كيفية خلق الانسان ، في القرآن الكريم فقال : إن

(١) سورة الأنعام ، الآية (٧٦) .

للانسان بدنأ ينتسب الى التراب والطين ﴿اني خالق بشراً من طين﴾^(١) وله روح تنتسب اليه تعالى ﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحي﴾^(٢) . لذا فللروح شرف وجودي .

وحين سأل محمد بن مسلم، الامام الخامس^(٣) ، سلام الله عليه عن معنى القول بأن الله سبحانه قد خلق آدم على صورته فقال الامام: «هي صورة محدثة مخلوقة». وقد اعتبر الله تعالى، هذه الصورة، متميزة من بين سائر الصور، فاخترها، ونسبها اليه، ومثلما نسب الكعبة، من بين البيوت، الى نفسه، فقال (بيتي) كذلك نسب الروح الانسان الى نفسه، فقال: ﴿ونفخت فيه من روحي﴾ .

والخلاصة، ان القرآن الكريم، يعتبر الانسان، مؤلفاً من الروح الالهية، وبدن ترابي، ثم يقول بشأن كيفية العلم الحسولي للانسان: ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً﴾^(٤) ، وأعطاكم مجاري الادراك كي تشكروا ﴿وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكروا﴾^(٥) ، فمجاري الادراك هذه، هي العين والأذن والحواس الأخرى، وكذلك القلب، الذي يرتبط بالعالم الخارجي عن طريق الحواس، حتى يتعرف على العالم بشكل صحيح، ويشكر خالق العالم والانسان، من هنا فان الانسان ليس لديه شيء من العلوم الحسولية، حين خلقه، وانما يكتسبها، الا ان القرآن يدعن بوجود العلم الحسوري لروح الانسان وهو فطري لا يحتاج الى

(١) سورة ص، الآية (٧١) .

(٢) سورة الحجر، الآية (٢٩) .

(٣) أصول الكافي، الجزء ١ ص (١٣٤) .

(٤) سورة النحل، الآية (٧٨) .

(٥) سورة النحل، الآية (٧٨) .

اكتساب، لأن الانسان لديه روح مجردة، وهذه النفس المجردة حاضرة ولا تغيب عنه أبداً فهو يشاهد نفسه على الدوام، ويدرك بالذات ما يشكل سعادته وشقاوته. لقد خلق الله سبحانه الانسان، كائناً مدركاً بالفعل، وليس بالقوة فهو وان كان لا يعرف شيئاً من ناحية العلم الاكتسابي، عند الولادة، الا انه خلق كائناً عالماً من ناحية العلم الشهودي والحضوري.

قال تعالى في سورة الشمس التي تشير الى خلق روح الانسان: ﴿ونفس وما سواها﴾^(١)، ثم قال في بيان استواء خلق النفس الانسانية: ﴿فألهمها فجورها وتقواها﴾^(٢)، فتسوية نفس الانسان هي بهذا الالهام لها، بحيث لو كان الانسان جاهلاً بفجوره وتقواه، لكانت نفسه موجوداً ناقص الخلق. واعتدال خلق الانسان، هو في معرفته بعامل سعادته وشقاوته، وإلهامه الصواب واللاصواب يؤدي الى تسوية وتعديل خلقه. ولو لم يعرف الله تعالى، نفس الانسان بقبحها وحسنها، لما كانت نفس الانسان مستوية الخلق أبداً، ولكانت مصابة دوماً بالجهل، فالله، خلق نفس الانسان عالمة بالحسن والقبح الفطري، وهي وان كانت لا تملك استحضاراً حصولياً عن العالم الخارجي، يوم ولادتها، ولكنها تعرف عن طريق العلم الحضوري، صلاحها وفلاحها الفطري، تعرف ماذا تريد والاتجاه الذي عليها التحرك نحوه. ان روح الانسان انما يستوي خلقها، اذا عرفت فجورها وتقواها، واذا خلقت تحمل ذلك الوعي الفطري.

ان ما يؤثر في اعتدال خلق روح الانسان، هو المعرفة الفطرية بقبح وحسن النفس الانسانية لا مطلق ما في العالم من قبح او حسن، بل تختص

(١) سورة الشمس، الآية (٧).

(٢) سورة الشمس، الآية (٨).

بما هو قبيح لها وحسن لها. ﴿فألهمها فجورها وتقواها﴾.

ثم ان هذا الذي علمه اياه تعالى بنحو الالهام والاعلام الشهودي هو الذي ذكره على نحو التفصيل بواسطة الشريعة، فقد قال الامام أمير المؤمنين عليه السلام: «الشريعة رياضة النفس»^(١)، ورياضة النفس لا تكون ممكنة من دون المعرفة بفجورها وتقواها.

ان اسوأ فجور النفس، هو الشرك بالله سبحانه، ﴿ان الشرك لظلم عظيم﴾^(٢) وهو مصدر كل أنواع الشر وقبحه مشهود بشكل كامل عند الفطرة، وأفضل وأرفع تقوى لروح الانسان، هو التوحيد، حيث لم يأت أي نبي بكلام يعادل قيمة كلمة لا إله إلا الله وليست هناك كلمة تعادل رفعة كلمة لا إله إلا الله، وليست هناك تقوى بدرجة تقوى التوحيد، والتوحيد الذي هو مبدأ كل أنواع التقوى، مشهود فطري عند النفس، أي أن فجور الشرك الذي هو أساس كل فساد، معلوم حضوري بالنسبة للنفس، وكذلك تقوى التوحيد التي هي أساس أصيل لكل أنواع التقوى، مشهودة لروح الانسان.

فالانسان كائن واع، ومع ان علومه الحصولية اكتسابية، لكن علمه الشهودي لله سبحانه وعبادته للذات المقدسة، فطري لا بمعنى ان تكون نسبة الانسان الى كل من التقوى والفجور متعادلة فهو لا ينظر الى الأمرين نظرة واحدة، ولو كان الانسان كائناً حيادياً وكانت رؤيته واستعداده لكلا الأمرين واحدة، وكان ميله لكليهما متعادلا، لما كان للتقوى والفجور معنى بالنسبة له فلو كان لموجود ما علاقة وارتباط مع شيئين، بحيث انه يميل اليهما بنفس الدرجة، في حالة عدم وجود مانع فان كلا من الأمرين المذكورين يكون

(١) غرر الحكم، ج ٧.

(٢) سورة لقمان، الآية (١٣).

خيراً له، ولو أن لهذا الموجود استعداد للقبول بالاثنين معا «على فرض امکان هذا الأمر»، لكان كلاهما كمالاً وجودياً له واما ان كان لموجود ما رابطة وجودية مع شيء معين وليس له أي ارتباط تكويني مع ما يقابل ذلك الشيء المعين بل كان ميله اليه وتلبسه به فيه شائبة الجاء واضطرار فعند ذلك تطرح مسألة الخير والشر او التقوى والفجور، وهذا بخلاف العلاقة الوجودية لموجود ما، فيما اذا كانت متساوية تجاه شيئين، فان كلا منهما يكون خيراً بالنسبة له ولا مجال لأن تطرح في هذا الصدد حينئذ - مسألة الخير والشر، او التقوى والفجور بشأنهما.

والخلاصة هي ان القرآن الكريم، يعتبر الانسان كائناً واعياً مدركاً وان روحه مستوية الخلق، واستواء خلقه هو في الاعتقاد والميل الى التوحيد وآثاره الحسنة، والابتعاد عن الشرك ولوازمه المشؤومة. وتؤيد هذا الكلام، هذه الآية من سورة الحجرات: ﴿واعلموا ان فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ولكن الله حيب اليكم الايمان وزينه في قلوبكم﴾^(١).

ان الايمان بالله، تحبيب لا أنه ليس تكليف وفرض فحسب، والمحبة هي العلاقة الباطنية بين المحب والمحبوب، وفي هذه الآية، يقول الله بأن الايمان ليس صعب عليكم، لأن الايمان بالله محبوب لديكم، أي أنكم من حيث التكوين قد خلقتكم بالشكل الذي تحبون به الايمان، لا انه نعتة بالجمال والمحبوبة على أساس الدستورات التشريعية فحسب، بل ان الله جعل الميل له أمراً في كيانكم وقد خلقكم تحبون الفضائل والمعارف، خلق الانسان حاملاً رؤية شهودية للمعارف، ومائلا الى قبول الفضائل. ﴿حَبَّبَ اليكم الايمان وزينه في قلوبكم﴾، أي أن الله سبحانه، جعل الايمان محبوباً

(١) سورة الحجرات، الآية (٧).

لديكم، من الناحية التكوينية، وفي قلوبكم ميل اليه .

وبناء على هذا، فالانسان محب للحقيقة، بالفطرة، ومع انه قد يميل الى الشهوة، عن طريق العين والأذن وسائر الحواس الطبيعية حيث قال تعالى ﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين﴾^(١)، لكنه يميل من حيث الفطرة، الى المعارف والفضائل، ان الانسان يشاهد الأشياء في العالم الخارجي من خلال الحواس، ويتجه طبعه الى ذلك الاتجاه، حاله حال سائر الكائنات الطبيعية، الا أن فطرته تتجه الى المعارف والى ما وراء الطبيعة، لذا، وصف الله تعالى، الايمان، بأنه محبوب الانسان فقال: ﴿حب اليكم الايمان وزينه في قلوبكم﴾، هناك علاقة وجودية بين القلب والمعارف والعقائد الصحيحة، وهذه العلاقة الوجدية، تسمى بالمحبة لأنها مقرونة بالادراك والشعور، فاذا انتزع الوعي من هذه الحركة، وطرح فقط، أساس الميل الى الكمال الحقيقي، ولم يكن للشعور والوعي اعتباراً في معنى المحبة، بأن قلنا ان المحبة لم يؤخذ في مفهومها قيد الشعور والاحساس الى جانب الميل التكويني فان كل العالم حينئذ يتحرك بالمحبة ويدار، ولكن اذا كان معنى المحبة هي العلاقة الواعية، فيما ان الانسان موجود واع وشاعر ومدرك، فانه يمتلك ميلاً وانجذاباً واعياً نحو المعارف والفضائل، ويكون موجوداً محباً للكمال .

لذلك ذكر الله تعالى ان الايمان محبوب وان الانسان لديه قبول للايمان وتميل فطرته الى المعارف والفضائل، وهذا معنى كون الدين أمراً فطرياً وذلك كما قال ابراهيم الخليل عليه السلام حيث يقول ﴿لا أحب الآفلين﴾ أي أنني أحب فاطراً للسموات يكون ﴿وهو معكم اينما

(١) سورة آل عمران، الآية (١٤).

كتم ﴿(١)﴾ .

والمؤمنون الصادقون هم الذين نضجوا هذه المحبة، وانضجوا الرؤية
الشهودية والميل العبادي، وأحيوا المعرفة الفطرية بالله، والعبادة الفطرية لله .

وقد شرح القرآن الكريم، في سورة البقرة، العلاقة العبادية للمؤمنين
الحقيقيين، فقال: ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب
الله﴾ (٢) اي هناك طائفة حصل لهم الاشتباه جعلوا الله نظائر وأنداداً
يعبدونهم، فهم يحبون الله بوصفه رب العالمين، ويحبون هؤلاء كأرباب
موسمين ومؤقتين .

لكن ﴿والذين آمنوا أشد حبا لله﴾ (٣) ، لأن المشركين يحبون الله بعض
الشيء، ويحبون غيره أيضاً، أو أن محبتهم العبادية هي فقط للأصنام، أما
المؤمنون فحبهم الخالص فقط لله، ثم ان محبتهم لله هي أشد من محبة
الآخرين لأوثانهم وأربابهم . فهم ليس لديهم محبوب غير الله، ولا يقصرون
في حبه .

ان المشركين يؤمنون ان الله سبحانه هو خالق الكون ويؤمنون به كرب
للأرباب، لكنهم لا يؤمنون بالله بعنوان انه رب خاص ورب الانسان مثلاً
ولذلك قهرا سوف لا يعبدونه بل يعبدون غيره، كانوا يقولون اننا نعبد غير الله
حتى يشفعوا لنا عند الله وأحياناً يقولون اننا لا نقدر على ادراك الله، ولا
نستطيع عبادته كذلك لكنهم كانوا يؤمنون بالله كرب للأرباب ولما كانت
محبتهم للأوثان هي بمقدار المزايا المادية وذلك لأن عبادة الوثنيين كانت

(١) سورة الحديد، الآية (٤) .

(٢) سورة آل عمران، الآية (١٤) .

(٣) سورة البقرة، الآية (١٦٥) .

من أجل مطامع مادية ومصالح دنيوية فقهرأ سوف تكون محبتهم لأصنامهم بمقدار المزايا المادية ولما كانت الدنيا متاع قليل فمحبتهم لأصنامهم ستكون قليلة أيضاً، على عكس عبادة المؤمنين وحبهم، الذي هو حب خالص لله، ومن أجل أهداف أرفع من الدنيا وأكثر ثباتاً منها، لذا قال تعالى: ﴿والذين آمنوا أشد حبا لله﴾، المحبة هي ميل وجودي ولها درجات ضعيفة وشديدة، كما هي حقيقة الوجود، فأحياناً تظهر في مستوى الشهوة، من حيث المرتبة الوجودية، وتارة في مستوى الارادة، وأحياناً تظهر في مرتبة التولي السامية، فالمؤمن الخاص لديه تولي خاص لله. وهو دقيق في تولي الحق، وكذلك في التبري من الباطل، وهو محقق في الحب والبغض وفطن في المحبة والعداوة.

ونظراً الى ان مادية المحبوب او امكانيته لم تؤخذ في حقيقة وذات المحبة، لذا فان اطلاق المحبة على الله سبحانه، هي حقيقة، وليست مجازاً، فالله محبّ ومحبوب. وهذه الألفاظ تستعمل بشأن الله، بمعانيها الحقيقية. غاية ما في الأمر ان المحبة لها درجات مختلفة، ودرجتها العالية المجردة عن كل القشور المادية هي الله تعالى.

وباعتبار ان الانسان، كائن واع، فهو حين يكون له ميل وجودي لجهة معينة، فان هذه العلاقة الوجودية، يعبر عنها بالمحبة، والمؤمن الحقيقي يوطّد علاقته الوجودية مع الله، ولهذا ورد ﴿والذين آمنوا أشد حبا لله﴾، أما الآخرون فحبهم وهمّ وكاذب، لأنه ليس لمحبوهم وجود حقيقي، بل لا يعدو كونه وهماً، لأنهم يتصورون ان الكمال هو في الاتجاه الى الأصنام، أو يظنون ان الكمال الانساني هو في امتلاك المال، لذا يفكرون بحبها، الا انه يتضح في ما بعد ان أحداً غير الله لا يقدر على شيء، لذا جاء في آخر تلك

الآية ﴿ولو يرى الذين ظلموا اذ يرون العذاب ان القوة لله جميعاً وان الله شديد العذاب﴾^(١).

وكما ان السراب، ماء كاذب، ولا يرفع العطش أبداً. كذلك الأوثان، ليست أكثر من سراب وهي موجود كاذب ولا يرفع حاجة المحتاجين مطلقاً، والله سبحانه هو الحق الصرف والواقع المحض ويقدر على اكمال كل نقص وتصحيح أي عيب.

وهكذا فالذي يعتمد على غير الله، سواء على النفس أو على الآخرين، فحاله حال العطشان الذي يبني أمله على سراب، ويتضح له يوماً ان كل القوة هي لله.

ورغم ان القوة والقدرة نسبت في القرآن الكريم، أحياناً الى غير الله، ولكن في هذه الآية يقول: ﴿ان القوة لله جميعاً﴾، أما غير الله، فهم مجاري لقدرة الحق، وفاعل جميع الخيرات، هو الله سبحانه، وفقاً للتوحيد الافرغالي، قال تعالى ﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾^(٢)، لهذا، فالموحد هو الذي يعتبر كل الكائنات في عالم الامكان، مجاري فيض الله سبحانه الذي هو ﴿ذو القوة المتين﴾^(٣) ولا يعتقد بامتلاكه قدرة ذاتية فيه أو لدى الآخرين ولا يعتقد بوجود قوة ذاتية لغير الله، وبما ان المؤمن مطلع على هذه الحقيقة، فان حبه لله يكون شديداً ﴿والذين آمنوا أشد حبا لله﴾، ونظراً إلى ان غير المؤمن محروم من مشاهدة هذه الحقيقة، يخيل إليه ان غير الله، يملك قوة وقدرة، فيطيعه ويحبه الا انه سيعرف يوماً ما حقيقة ﴿ان القوة لله جميعاً﴾

(١) سورة البقرة، الآية (١٦٥).

(٢) سورة النحل، الآية (٥٣).

(٣) سورة الذاريات، الآية (٥٨).

ويرى ﴿وان الله شديد العذاب﴾ .

وفي ذلك اليوم يتبرأ كل انسان ضال من الذي أضله، ويتبرأ كل تابع من متبوعه، في التبعية الكاذبة ﴿اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا﴾^(١) ، في هذه الآية تطرح مسألة تبري الرؤساء الكاذبين من تابعيهم الضالين، فالיום يجزّ بعض عبيد الهوى، جماعة من ذوي العقول الفارغة ويضلونهم ثم يقولون غدا في القيامة لهم اننا لا نستطيع ان نقوم بشيء لأجل نجاتكم . فالיום يتبع بعض الجاهلين، اناساً آخرين، ظناً بقدرتهم، لكنهم سيرون غدا ان هؤلاء غير قادرين .

ان جملة ﴿ان القوة لله جميعاً﴾ ، لا تعني ان جميع القوى هي لله في يوم القيامة فقط، وليست له في الدنيا بل ان جميع القوى في الدنيا وفي الآخرة، هي لله سبحانه، لكن هذه الحقيقة تتضح في يوم القيامة، للجميع، أما في الدنيا فلا يراها الجميع . في القيامة يرى الكل حقيقة ﴿فإن العزة لله جميعاً﴾^(٢) ، ﴿ان القوة لله جميعاً﴾ ، وفي الدنيا، يرى المؤمنون فقط هذه الحقائق، والآل والدنيا والآخرة متساوية عند الله فليست الأسباب والعلل المادية هي بيد الله تعالى في الآخرة دون الدنيا، بل جميع العلل والأسباب هي بيد الله حتى في الدنيا، بناء على مذاق التوحيد الأفعالي وهذه الحقيقة سوف تظهر بصورة كاملة لأولئك الذين ﴿وتقطعت بهم الأسباب﴾^(٣) ، فيفهمون ان كل العلل والأسباب هي بيد الله في جميع نشآت الوجود، فالله تعالى ليس هو الخالق لمبادئ الأسباب فقط، اما نظام العلة والمعلول

(١) سورة البقرة، الآية (١٦٦) .

(٢) سورة النساء، الآية (١٣٩) .

(٣) سورة البقرة، الآية (١٦٦) .

فاودعه لغيره في الحلقات اللاحقة، ليس هكذا، لأنه لا يوجد اي تفويض في الأمر، لأن جميع الكائنات هي مجاري أمر الله تعالى .

والخلاصة ان هناك علاقة وجودية بين النفس الانسانية والله تعالى، تدعى المحبة، وقد وردت في آخر الآية التالية من سورة الحجرات: ﴿حُبِّ اليكم الايمان﴾ روايات، قريبة من هذا المضمون، تشير الى ان الدين ليس سوى الحب، والحب ليس سوى الدين، فالدين هو العلاقة التي توجه الانسان الى هدف، والميل الباطني الذي يلفت الانسان الى هدف، هو دينه، وجميع الكائنات لها دين، وتتحرك نحو اتجاه. وللانسان دين، وميل وحركة نحو اتجاه، فدينه هو الاسلام، اذا كان الله محبوبه واذا كان محبوبه غير الله، فان دينه ليس الاسلام «الدين هو الحب والحب هو الدين»^(١) .

فعصارة الانسان تتلخص في حبه كما ان محبة كل شخص تؤلف حقيقته، وتأييد هذه المسألة أعني مسألة ان هناك علاقة وجودية بين الانسان والله الذي له الأسماء الحسنی، وهذه العلاقة الوجودية مصحوبة بشعوره ووعيه، أي ان الانسان بفطرته، يرى الله ويطلبه، بحيث انه لو ترك الانسان حراً، لما اختار ديناً غير الاسلام، وكل ما عدا الاسلام فهو ايهام والقاء شيطاني، هو ان القرآن الكريم يصف الله تعالى بالوجود المحض والغني المطلق، الا انه قد ذكر لخلق الانسان هدفاً، فقال: ﴿وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون﴾^(٢)، وهذا الهدف هو غرض الفعل وغاية الفعل وليس غاية الفاعل، فالفاعل منزه من أن تكون له غاية خارج ذاته، لأنه الغني المحض، لذا قال: ﴿ان تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فان الله لغني

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٥ ص ٢٨٥ .

(٢) سورة الذاريات، الآية (٥٦) .

حميد^(١)، ولكن لخلق الانسان غاية وهدف، وهو صيرورة الانسان المخلوق، عارفا وعبادا.

ان الانسان كائن حقيقي وليس اعتباري، والمعرفة والعبادة هما كمال حقيقي وليس اعتباري كالرئاسة التي هي كمال اعتباري. وكما ان للشجرة كمال حقيقي، فهي تنمو، وللمعدن كمال حقيقي وينمو وللحيوان كمال حقيقي، كذلك للانسان كمال حقيقي، وكماله الحقيقي هو صيرورته عبادا وعارفاً، والمعرفة والعبادة هما كمال عيني، وليس أمر اعتباري، لأن الانسان الذي عرف الله وعبده لا يماثل الشخص الذي يكون رئيس مؤسسة، او مالك مال، حيث ان الرئاسة والملكية وأمثالهما، أمور اعتبارية، غير حقيقية، ومع حصولهما لا تحصل روح الانسان على الكمال الحقيقي، على عكس معرفة وعبادة الله، التي تكون عاملا في الكمال الحقيقي للنفس الانسانية.

والخلاصة، ان هذه الغاية، وهي معرفة الله وعبادته، هي أمر حقيقي، والرابطة بين الانسان وهذا الهدف الذي هو أمر حقيقي، هي رابطة حقيقية، وليست اعتبارية، اذ لا يمكن ان يربط أمر اعتباري، بين موجودين حقيقيين، فهل يمكن القول ان العلاقة بين الانسان، وهو حقيقة خارجية، ومعرفة الله وعبادته، وهي حقيقة خارجية، هي امر اعتباري فانه وان كانت القوانين العبادية مستقاة من اللزومات وعدم اللزومات الاعتبارية، الا ان خضوع الانسان هو حقيقة خارجية، وعرفانه حقيقة خارجية، وقبوله وتسليمه، حقيقة خارجية، وهذه واقعيات وحقائق خارجية، فهل ان العلاقة بين هذه الحقائق الخارجية التي هي كمال الانسان، وبين نفس الانسان وهو حقيقة

(١) سورة ابراهيم، الآية (٨).

خارجية، هي رابطة اعتبارية، ام رابطة حقيقية؟ وهل ان نسبة الانسان الى العبادة والكفر واحدة؟ وهل ارتباط الانسان بالمعرفة والجهل متساوٍ؟ او انه هناك رابطة قائمة وعلاقة مستحكمة بين الانسان والمعرفة، بين الانسان والعبادة، وهل ان كل ما يعطى للانسان هو كمال له، ام ان للانسان كمال وجودي خاص؟ ورغم ان الانسان كائن مختار ويقف في موقف بين النجدين ﴿وهديناه النجدين﴾^(١)، وان بإمكانه ان يكون سعيداً او شقيماً باختياره، الا ان العلاقة الوجودية بينه وبين أحد الطرفين، قائمة، ولو لم تكن هناك علاقة وجودية بينه وبين أي من الطرفين، لما كانت معرفة الله وعبادته، علة غائية لخلقه، أبداً.

واذا كان الانسان، حقيقة، ليس لها ارتباط وجودي مع اي من الطرفين، السعادة والشقاء، او ان ارتباطها متساوٍ مع كلا الطرفين، لكان كلا الطرفين خيراً بالنسبة له، بينما الهدف النهائي للانسان وفقاً لما جاء في القرآن وهو كلام خالق الكون والانسان، هو طرف الخير والتقوى والمعرفة والعبادة فقط، ولا يوجد له أي كمال في طرف الفجور والجحود والعصيان.

وهذا الموضوع يمكن بيانه بنظم منطقي كما يلي:

أولاً: ان الانسان كائن حقيقي وخارجي وليس اعتباري.

ثانياً: ان المعرفة والعبادة وهي العلة الغائية للخلق، والهدف النهائي للانسان المخلوق، هي موجود حقيقي وكمال واقعي، وليست أمراً اعتبارياً.

ثالثاً: هناك علاقة بين الانسان الذي هو موجود حقيقي، وهدفه النهائي، الذي هو أيضاً موجود حقيقي، لأنه لا بد من وجود ارتباط وجودي

(١) سورة البلد، الآية (١٠).

بين المعلول والعللة الغائية، والا ينفصلان، والانفصال لا ينسجم مع فرض العلية والمعلولية.

رابعاً: ان الرابطة بين الانسان والهدف النهائي لخلقه، هي رابطة حقيقية وليست اعتبارية لأن الربط بين شيئين، يجب ان يكون من سنخهما، ولا يمكن ابدا ان يكون هناك أمر اعتباري يربط بين أمرين حقيقيين، واذا كانت هناك أحياناً بعض الروابط الاعتبارية تتولى الربط بين عدة أمور خارجية، فذلك لأن تلك الأمور الخارجية ذات أوصاف اعتبارية، فيكون الربط بين الأمور الاعتبارية وأوصافها الاعتبارية، أمر اعتباري.

خامساً: ان الربط الوجودي والارتباط الحقيقي بين الانسان وعلته الغائية، هو الوجود الشهودي والعلمي، لأن الانسان كائن ذو شعور، وواع، فيكون كل ربط وجودي بين النفس الانسانية وبين موجود حقيقي آخر، ربطاً علمياً.

سادساً: يسمى الربط الوجودي العلمي للنفس الانسانية بهدفها النهائية، وحبها الذاتي لعلتها الغائية، بالفطرة.

سابعاً: هذا الربط الوجودي يكون شديداً وقويماً، في المؤمنين الحقيقيين، الذين ارتفعوا عن مستوى عالم المادة، ووصلوا الى عالم ما وراء الطبيعة، لذا قال الله سبحانه بشأنهم ﴿والذين آمنوا أشد حبا لله﴾.

ثامناً: ان الشهود الفطري الذي يرافق خلق الانسان، هو غير العلم الحصولي الذي يكتسبه الانسان من الخارج، وهو لا يحمل في بداية خلقه شيئاً من تلك العلوم، حيث قال الله سبحانه: ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً﴾.

تاسعاً: ان الشهود الفطري والميل الروحي للانسان، هو الى الله سبحانه والى جميع الخطوط العامة والمعارف الأصيلة، لهذا توجد في المصادر الدينية تعبيرات جامعة في هذا الصدد، فتارة يتعرض الى ذكر محبة المؤمنين لله، وأخرى بعنوان (الدين هو الحب والحب هو الدين). وليس كل منهما بالنسبة الى الآخر شيئاً آخر.

عاشراً: ان الهدف من بعثة الأنبياء ﷺ هو انضاج هذه الفطرة الدينية للناس .

وقد روى المرحوم ابن بابويه القمي في كتاب من لا يحضره الفقيه، وكذلك المرحوم السيد الرضي في نهج البلاغة، ان الامام علي بن أبي طالب أمير المؤمنين عليه أفضل صلوات المصلين، قال: «كلمة الاخلاص فانها الفطرة»^(١)، فالفطرة الانسانية تطلب كلمة الاخلاص التي هي لا اله الا الله، والله تعالى «جابل القلوب على فطرتها شقيها وسعيدها»^(٢)، وقد جاء الأنبياء «ليستأدوهم ميثاق فطرته»^(٣).

اي لتفتيق الأواصر الفطرية بين الانسان وعلته الغائية والخلاصة، ان الدراسة الكاملة لآيات وروايات الفطرة تثبت وجود علاقة وجودية وتكوينية بين الانسان ومعرفة الله وعبادته، وهذه العلاقة، لما كانت علاقة واعية فهي رؤية شهودية ورابطة علمية وحضورية لأنها واعية، وهذه العلاقة هي الحب الديني الذي لا يمكن معه تصور كون المعارف الدينية ثقيلة على النفس وتقاد نحوها قسراً.

(١) نهج البلاغة للفيض، الخطبة ١٠٩.

(٢) نهج البلاغة للفيض، الخطبة ٧١.

(٣) نهج البلاغة للفيض، الخطبة ١.

وذكر المرحوم المجلسي الأول في شرح من لا يحضره الفقيه ان المرحوم ابن طاووس، قد جمع مائة وعشرين دليلاً حول ان معرفة الله، فطرية، وان ما يذكر كأدلة عقلية هي شرح للفترة. ثم قال المرحوم المولى محمد تقي المجلسي - رضوان الله عليه - بأن هذا الكلام، حق فلو تأملنا لرأينا ان كلام ابن طاووس كان صحيحاً.

والآن حيث ثبت ان رأس مال معرفة الله وعبادته قد أودع في باطننا، فعلينا أن نسعى الى تقوية هذه العلاقة، فقيمة أي انسان هي بمقدار ارتباطه بالله، واذا عززت هذه العلاقة والمحبة، أصبح الانسان محبوباً عند الله، لأن المحب يجذب نحو المحبوب، وآثار المحبوب تنزل في المحب كما يكون ذلك في المحبات الكاذبة ﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين﴾ فان ذا المحبة الكاذبة يصبح بالشكل الذي يجذب نحو محبوبه، وهو الشيطان فالانسان اذا عمل على انضاج حبه الصادق، فانه سينجذب نحو محبوبه الصادق، وهو الله، وقد جاء في كلام لأمير المؤمنين عليه السلام حول التأثير السلبي للحب الكاذب والعلاقة الباطلة، بأن الشيطان جعل بعض الناس تحت ولايته وباض في صدورهم ورسخ في نفوسهم حتى «نطق بألسنتهم ونظر بأعينهم»^(١)، فتصبح نظرتهم شيطانية بالتأكيد، وكلامهم، كلام شيطاني، وهذه هي الآثار السيئة للحب الكاذب الذي يعمل على هبوط الانسان.

أما الآثار الحسنة للحب الصادق فهي ما جاء في حديث قرب النوافل المعروف والذي رواه الفريقان عن رسول الله ﷺ، حيث ورد فيه ان الله

(١) نهج البلاغة للفيض، الخطبة ٧.

تعالى يقول «ما يتقرب إليّ عبد من عبادي بشيء أحب إليّ مما افترضت عليه، وانه ليتقرب اليّ بالنافلة حتى أحبه، فاذا أحببته كنت اذا سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به ويده التي يبطش بها، ان دعاني اجبته، وان سألني اعطيته»^(١)، لذا فان كلام المؤمن الذي يحبه الله، هو بمنزلة كلام الله، وكلام الكافر والمنافق، هو كلام الشيطان.

روي ان رسول الله ﷺ، كانت له نجوى مع أمير المؤمنين سلام الله عليه في الطريق الى الطائف، فسأل جماعة، النبي ﷺ عن السبب، وكيف انه خصص لأمر المؤمنين ﷺ وقتاً للنجوى؟.

لم يكن أخذ وقت خاص للتكلم مع النبي ميسوراً لكل أحد، وكان البعض يطلبون لقاء خاصاً مع النبي ﷺ، فجاء الأمر بوجوب دفع صدقة لمن يريد لقاء خاصاً مع النبي، وذلك لأن وقت رسول الله ﷺ هو للجميع. والذي يرغب ان يلتقي لقاء خاصاً مع الرسول ﷺ، يجب ان يضع شيئاً في صندوق بيت المال، مثلاً، ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ذلك خير لكم وأطهر فان لم تجدوا فإن الله غفور رحيم﴾^(٢)، فقد روي أن الشخص الوحيد الذي عمل بهذه الآية، كان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ.

كان أمير المؤمنين سلام الله عليه يسعى للاستفادة من أية فرصة للنجوى مع رسول الله ﷺ فذكر لهم رسول الله ﷺ جواباً عن اختصاصه علياً ﷺ بالنجوى دونهم بقوله: بأن الله كلمه، وهذا الكلام هو كلام الله، وان ذلك اللقاء الخاص مع علي بن أبي طالب ﷺ، كان بأمر

(١) أصول الكافي، ج ٢، ص ٣٥٢.

(٢) سورة المجادلة، الآية (١٢).

الله، فالعمل هذا، بأمر الله، والكلام هذا، بأمر الله، لأن الانسان اذا أصبح حبيب الله، أصبح عمله هو عمل الله وكلامه هو كلام الله ونظره هو نظر الله، فلا يرى خطأ ولا يقول خطأ، وهذا المعنى الرفيع يستطيع الانسان ادراكه وتهيأته بسعة صدره الوجودية ومن المؤسف ان يترك الانسان تلك الدرجات، ويهبط الى الدركات الحيوانية او النباتية، ليرى يوم الحسرة ما هو المقام الذي كان ينتظره، وما هو المقام الذي تجاوزه، وما هي الأمور التي أعدها واستحصلها.

وهناك طرق أخرى لتبيين الفطرة، وقد نظرح في بحوث قادمة، سائر الأدلة والشواهد الفطرية وكذلك وظيفة الانسان تجاه هذه الثروة الالهية العظيمة.

نرجو ان يجعل الله تعالى قلوب الجميع محبة لذاته المقدسة، وان ينصر الاسلام والمقاتلين المسلمين في جميع جهات الحق ضد الباطل وان يحشر شهداء الاسلام مع الأنبياء والأولياء وان يمن على قائد الثورة الاسلامية المعظم بالامدادات الغيبية في ظل رعاية الامام ولي العصر - أرواحنا فداء - وان يشمل برحمته، أساتذة وكتاب العلوم الالهية ومعلمينا ويمنّ على معوقى الثورة بالشفاء العاجل، وان يرد خطر القوى الكبرى الى نحورهم. ويعزز وحدة الشعوب الاسلامية وينقذ المستضعفين من خطر المستكبرين ويجعل هذه الثورة الاسلامية الأصيلة، متصلة بظهور الملي بالسرور للامام بقية الله - أرواح من سواه فداء -.

غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

معرفة النفس، أساس معرفة المبدأ والمعاد

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله ، وصلى الله على جميع الأنبياء والمرسلين والأئمة الهداة المهديين ، سيما خاتم الأنبياء وخاتم الأوصياء عليهما آلاف التحية والثناء .

كان البحث يدور حول مسألة فطرية المعارف الالهية ، وان جزءاً مهماً من تعاليم الأنبياء عليهم السلام هي من أجل بيان الفطرة وانضاجها . ان سر أهمية التعرف على الفطرة ، في مدرسة الوحي ، هو ان البحوث العقلية وبراهين العلم الحصولي ليست عاملاً في ايجاد العلاقة الباطنية والتزعة الكاملة ، نحو ما يعلمه الانسان ، وان أدت الى حصول معرفة دقيقة وقطعية ، بالعالم كما ان هناك بعض العلوم لا انها لا تثمر الخضوع امام الله سبحانه فحسب بل هي حجاب على القلب وتهيناً الأرضية لكثير من أنواع الفساد . أما معرفة النفس وملاحظة أسرار الخلق الباطنية تمنح الانسان رؤية كونية إلهية من جهة ، وتوجد فيه عبادة الله سبحانه من جهة أخرى ، فان الانسان اذا أدرك نفسه التي

هي حقيقة متعلقة بالله فانه عند ذلك سيرى الله بعين القلب، ويؤمن قلبيا بتلك الحقيقة المحضة والوجود الصرف، ويعبد ذلك الكمال اللامحدود.

وقد ذكرت طرق عديدة في القرآن الكريم، لبيان الفطرة، احدها، مسألة الحب، حيث يعتبر القرآن الكريم ان الايمان بالله سبحانه، هو أمر محبوب لدى الناس، ويصف البشر بأنهم يحبون الله تعالى، ويذكر ان هناك علاقة وجودية ونزعة تكوينية بين الانسان والله ﴿حُب اليكم الايمان وزينه في قلوبكم﴾^(١)، أي ان الله، أقام علاقة باطنية بينكم وبين الايمان بما ثبت عن طريق الوحي. بمعنى ان وجودكم هو بالشكل الذي يحب الايمان بالغيب.

وهذه الرابطة تمثل محبة أصيلة من منظار القرآن الكريم، الا انه يعتبر كل جاذبة بين الانسان وغير الله ومعارفه وأحكامه، انها علاقة غير أصيلة وغير فطرية، فقال ﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين﴾^(٢) أما زينة فطرتكم، فهي الايمان بأصول وفروع الدين ﴿حُب اليكم الايمان وزينه في قلوبكم﴾.

ذكرنا في الكلام السابق، ان من طرق اثبات الفطرة، هي:

أولاً: ان القرآن الكريم يعتبر الانسان حقيقة خارجية، خلقت لهدف خاص.

ثانياً: الهدف من خلق الانسان، معرفة الله سبحانه وعبادته، وهي بدورها كمال وجودي، لا كمال مفهومي ولا هو ماهوي ولا مادي، قال تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس الا

(١) سورة الحجرات، الآية (٧).

(٢) سورة آل عمران، الآية (١٤).

ليعبدون ﴿^(١)﴾ فإذا إنسان حقيقة خارجية، وذلك الكمال الرفيع المسمى بالمعرفة والعبادة، هو أيضاً حقيقة خارجية، ويجب ان يكون هناك رابط وجودي بين الإنسان المتكامل وذاك الكمال النهائي الذي هو هدفه الوجودي. وإذا لم تكن ثمة رابطة وجودية بينهما، فلا يمكن ان يكون لهما ارتباط علّي ومعلولي ولا يكون كمال الإنسان معلولاً لتلك العلة الغائية، ولا تكون المعرفة والعبادة الهدف والعلة الغائية لخلقه، وبالنتيجة لا يكون الإنسان قاصداً وسالماً نحو ذلك الهدف فإذا كان القرآن يعتبر ان الإنسان سالماً، وان المعرفة والعبادة هي هدفه، فلا بد من وجود رابطة وجودية بينهما. وهذا هو الركن والمقدمة الثالثة.

أما الركن والمقدمة الرابعة، فكانت بهذا الشكل وهي ان الرابطة بين أمرين تكوينيين وحقيقيين لا تكون أمراً اعتبارياً، بل الارتباط بينهما انما يكون ممكناً بأمر حقيقي وتكويني.

ان الربط بين شيئين لا يتبع الطرفين في كونه تكوينياً او اعتبارياً فقط، بل يتبعهما أيضاً من ناحية الشدة والضعف الوجودي، وبما ان الإنسان، كائن واع وعالم، وهدفه عين المعرفة والعبادة، والتي هي وعي خاص وشهود خاص، فلا بد ان يقترن رابطته الوجودي بهدف خلقه برؤية شهودية. فهو يدرك بالعلم الحضورى الجهة التي يتحرك نحوها. وفي نشأته الباطنية يكون الشهود مقروناً بالميل والاندفاع العبادي وليس كالعلم الاكتسابي الذي يكون بعهدة العقل النظري والذي يكون أحياناً منفصلاً عن ميول العقل العملي. وهذا هو الركن والمقدمة الخامسة.

(١) سورة الذاريات، الآية (٥٦).

ونتيجة الأركان المذكورة، هي ان هناك ارتباط وجودي واع بين حقيقة الانسان وواقعيته وهدفه النهائي، وبهذا الارتباط الواعي يعلم الانسان بسرّ خلقه نفسه، وهذا هو معنى فطرية الدين الالهي، لأنه يدرك كماله الوجودي على ضوء الرؤية الشهودية ويؤمن بذلك الكمال على ضوء الرؤية الشهودية، ويخضع له، اي ان لديه رؤية شهودية بالنسبة لهدف خلقه ولديه أيضاً خضوع عبودي في ساحة معبوده.

وهذا الأساس الفطري هو أهم رصيد خلقه الانسان، وقد جاء الأنبياء لفصل المحبة الأصيلة والفطرية عن المحبة الفرعية والطبيعية، من أجل ان لا ينسى الانسان هذا الحب الأصيل والعلاقة الفطرية، ومن أجل أن لا يغطي غبار النزعة الى الطبيعة، وجه ذلك ومن أجل ان لا ينشغل بالزينة الطبيعية، جاؤوا لتمييز الفطرة من الطبيعة جاؤوا ليميزوا للناس بين الطريق وبين ما هو حفرة وهاوية، والهدف من الوسيلة، والسر النهائي من الوسائل والأدوات البدائية.

ونقرأ في كثير من الآيات، تارة بشكل عام وتارة بشكل خاص، وصف كل ما هو غير الله او ليس له صبغة إلهية، بأنه عدو للانسان السالك، وكل ما يشغل الانسان في حدود الطبيعة او يوقفه عن السير في طريق الكمال او يبطئه، ذكر بوصفه عدو للانسان.

جاء في سورة التغابن قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا ان من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم﴾^(١)، أي أنهم ان لم يكونوا متدينين، فهم أعداء دياتكم، وان حبكم لهم هو حب كاذب وكل حب هو عامل لميل المحب

(١) سورة التغابن، الآية (١٤).

الى المحبوب واقامة ارتباط وجودي معه، لذا قيل «لو ان رجلا أحب حجرا
لحشره الله معه»^(١).

أي أن العلاقة القلبية الى أي جهة وجّهت، فان الانسان يجذب اليها،
وأحيانا قد يقف الانسان عند مستوى موجود جمادي ﴿فهي كالحجارة أو أشد
قسوة﴾^(٢)، وقد يتوقف تارة عند مستوى موجود حيواني ﴿اولئك
كالأنعام﴾^(٣)، وتارة ينزل الى مستوى أقل من الحيوان ﴿بل هم أضل﴾^(٤)،
ويقف عند درجة النبات، فالشخص الذي يكون كل همه ان يأكل الطعام
الجيد ويرتدي اللباس الجيد وينمو، فان تفكيره لا يتعدى مستوى النبات ولم
يصل بعد الى الحياة الحيوانية، فضلا عن الحياة الانسانية، ولما كان كل
سعيه منصباً على تناول الغذاء الجيد واللباس الجيد، كان حاله كحال النبتة
المغروسة في المستوى الذي تعيش فيه، حيث ان الانسان تكون كل ميوله
ورغباته محدودة في اطار المستوى النباتي، ولا يكون قد بلغ المستوى
الحيواني فضلا عن المستوى الانساني، وان تنزل أكثر مما ذكر مرحلة أخرى
فانه يصل حينئذ الى المستوى الجمادي كما أشير اليه.

وبناء على هذا، فان اولادكم وأزواجكم هم أعداؤكم، اذا لم يتحركوا
في مسير التكامل الديني، وحبكم لهم هو حب كاذب، وهم يوقفونكم عن
الحركة او يبطلون سرعتها. ﴿إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم
فاحذروهم﴾^(٥).

(١) عيون اخبار الرضا عليه السلام، ج ١ ص ٣٠٠.

(٢) سورة البقرة، الآية (٧٤).

(٣) سورة الأعراف، الآية (١٧٩).

(٤) سورة الأعراف، الآية (١٧٩).

(٥) سورة التغابن، الآية (١٤).

وفي الآية اللاحقة يقول بشأن الأموال وكثيرا ما يقوله بحق الأولاد:
﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾^(١) ، أي أن الأموال والأولاد ليست الا
امتحان إلهي، فلا تتعلقوا بها، واحذروا من حبها، وهكذا فان الانسان اذا
أراد ان يحب ما ليس له صبغة إلهية، فانه يوقفه عن مسيره الأصلي، لذا
يوضح الوحي السماوي الذي هو عامل مؤثر في بيان الفطرة، ان محبة هذا
النوع من الأمور، هي محبة باطلة .

ويقول ابراهيم الخليل سلام الله عليه بصدد جميع عبّاد الأوثان
والأوثان والتفكير الوثني والأفكار غير التوحيدية: ﴿فانهم عدو لي الارب
العالمين﴾^(٢) ، ومعنى عداوتها كلها هو ان كل ما ليس له صبغة إلهية وليس
في مسير التكامل الديني، فهو عدو للانسان السائر الى الله، فيجب ان يكون
الانسان دقيقاً في اختيار المحبوب وحين يأمر القرآن الكريم، جميع الناس،
بالسير على طريق ابراهيم الخليل عليه السلام: ﴿ان اولى الناس بابراهيم للذين
اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا﴾^(٣) ويرى ان هناك فئة من الناس تمتلك اهلية
ان تطوي ذلك الطريق ثم يقول ان منطلق ابراهيم الخليل عليه السلام ، هو ان كل ما
ليس له صبغة إلهية، فهو عدو للانسانية ﴿فانهم عدو لي الارب العالمين﴾ ،
فان مقتضى هذا النمط من التعليم المنطقي، هو ان يتعرف الانسان السالك،
على صديقه وعدوه في هذا السير الممتد، ويعلم ان الكل أعداءه، الا الله
سبحانه، وما جعله الله محبوبه .

فعلى الانسان ان يتعرف على ميله الوجودي وعلاقته الباطنية ويعلم

(١) سورة التغابن، الآية (١٥).

(٢) سورة الشعراء، الآية (٧٧).

(٣) سورة آل عمران، الآية (٦٨).

الجهة التي يتجه نحوها، فاذا كانت علاقته بالأموال والأولاد والأزواج، فقد بيّنت عداوتهم في سورة التغابن، واذا كانت بالقوم والقبيلة والعرق والأفكار غير الإلهية، فقد ذكر في هذه الآية ﴿فانهم عدولي الا رب العالمين﴾.

أي أنه علّم الانسان الرؤية الكونية الصحيحة، أولاً، ثم وضع أمامه الميل الصحيح والعلاقة المفيدة، لأن الوحي السماوي، يتولى تعليم نفوس الناس، وكذلك هداية علاقاته النفسانية، لذلك علّم المجتمعات البشرية عن طرق متعددة، ان الانسان هو مسافر نحو عالم الغيب وانه يتجاوز عالم المادة ويسرع الى استقبال الآخرة، فيجب ان يتعرف على ما هو موجود ويكون حذراً في التعرف على ما يجب فعله، كي لا يتعرض الى الخطأ في تشخيص المحبة واختيار المحبوب، ولا يميل ميلاً ضاراً، ولا يربك الميول الفطرية الأصيلة. والا يتلى بالعمى الباطني.

ان سر قول القرآن الكريم بشأن بعض الناس، أنهم فقدوا رأسمال وجودهم، ويصابون بالعمى يوم القيامة، هو انهم أخطأوا في المعرفة، وكذلك في المحبة والاتجاه الى الطريق غير الصائب، فلم يعرفوا ما كان حقاً، وعرفوا ما كان باطلاً، بدل معرفتهم الحق ولم يحبوا ما كان حقاً، بل أحبوا ما كان باطلاً، لذا لم يروا الحق وظنوا الباطل، حقاً، فيحشرون عمي في القيامة الذي هو يوم ظهور الحق، لأن ما هو حق يظهر في ذلك اليوم اي يوم ظهور الحقيقة.

في سورة يس، قال تعالى: ﴿واذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون﴾^(١)، فما المقصود من ﴿ما بين أيديكم وما

(١) سورة يس، الآية (٤٥).

خلفكم﴾ الذي يجب تجنبه، والحذر من الوقوع فيما يمكن ان يأتي من قبله من ضرر وخسارة.

الظاهر هو ان المراد هو جبران الذنوب التي فعلتموها وتجاوزتموها وذلك بالاستغفار والكفارة وأمثال ذلك، كي تستحصلوا التقوى التي مضت ولا تتعرضون للتهديد من تلك الناحية. وانتبهوا لثلاث تلوثون بالذنب في المستقبل. وهو تفسير يتطابق مع بعض الروايات أيضاً.

وثمة تفسير آخر وهو ان تقوا الدنيا التي تتجاوزونها حتى تكونوا محفوظين من غوائلها، وان تراعوا تقوى القيامة التي أمامكم، حتى لا تصابون بخطر التهاون بها فما ذكره أمين الاسلام رضوان الله عليه هو هذا ان ﴿ما بين أيديكم﴾ هو امر الآخرة، ﴿وما خلفكم﴾ هو أمر الدنيا، اي ان لا يغركم ما تجاوزتموه من مقامات الدنيا، وان لا تخدعكم ما في الدنيا من قدرات، ولا تنهاونوا بما هو امامكم ومن هنا يعلم الانسان مسافر، وانه يغادر الدنيا، والآخرة أمامه، وهذا السفر، سفر تكويني وثمة رابطة وجودية بينه وبين مستقبله، والانسان كائن واع، وهذه العلاقة الوجودية مودعة في باطنه، وتدعى الفطرة وان تأثير الوحي الإلهي، هو نفس انضاج تلك التركيبة الباطنية والميل الخفي.

فالانسان لديه بالفطرة، رؤية شهودية من منظار العقل النظري، ولديه خضوع عبادي من منظار العقل العملي، والقرآن يرى الآخرة بين اليدين، والدنيا خلف الانسان، لأن القافلة الانسانية التي تتحرك نحو عالم الغيب وترتحل من الدنيا الى الآخرة، فتكون الآخرة امامها. والمهم في السفر هو الهدف الذي هو امام المسافر، لذلك اوصى بأن لا يغركم ما هو متجاوز ومتروك، وان لا تغفلوا عما هو آت وباق.

ثم قال: ﴿وما تأتيهم من آية من آيات ربهم الا كانوا عنها معرضين﴾^(١)، فهناك بعض الناس يشاهدون الآيات الغيبية ولكنهم يعرضون عن التدبر فيها والاستنتاج منها والتحرك معها. وعلى هذا فالقرآن الكريم، يعتبر الانسان متحركاً، وان لهذا المسافر مقصد وذلك المقصد هي القيامة، وهناك هدف مباشر بينه وبين ذلك المقصد، واذا قطع ذلك الطريق بشكل صحيح، فانه يكون اما من المقربين او يعدّ من أصحاب اليمين، ويتمتع بدرجات الجنة، واذا لم يقطعه بصورة صحيحة، فانه يصاب بالشامة ويصبح من أصحاب المشامة، ويتلي بدركات جهنم.

كيف يمكن ان لا تكون هناك أية علاقة بين الانسان وهو كائن حقيقي، وهدفه وهو موجود واقعي، في حين ان الانسان يصاب بالعمى والصمم، ان لم يسلك ذلك الطريق، فليس من الممكن ان لا يكون هناك ربط وجودي وكمال وجودي بين الانسان الذي لديه صورة نوعية خاصة، وبين مستقبله، ومع هذا يصاب قلبه بالعمى والقساوة ويصبح باطنه بصورة حيوان، ان لم يقطع الانسان طريق ذلك الهدف، كيف لا يشاهد المنحرفون عن طريق التوحيد، والمعرضون عن آيات الله تعالى، في يوم القيامة وهو يوم ظهور الحق؟ ﴿كلا أنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون﴾^(٢)، كيف لا يرى الانسان الحق يوم القيامة؟.

ان سر جميع الحرمان هو انه أعمى في الدنيا، متعمداً، رؤيته اليهودية، وبناء على هذا فان تلك المسألة تظل محفوظة، وهي ان هناك ربط تكويني ووجودي بين الانسان ومستقبله، كما ان هذه المسألة تظل

(١) سورة يس، الآية (٤٦).

(٢) سورة المطففين، الآية (١٥).

محفوظة، وهي ان هذا الربط الوجودي يدعى الحب، وتحفظ هذه المسألة كذلك، وهي ان الأنبياء جاؤوا ليفصلوا الحب الكاذب من الحب الصادق وتكون هذه المسألة صحيحة، وهي ان الدين الالهي، ليس الاحب الله .

ونظرا الى ان الانسان اذا عرف نفسه، فانه يعرف كل هذا المسير، ويؤيده الأنبياء، وان لم يعرف نفسه، فانه يجهل كل هذه المعارف ويحرم من الامداد الغيبي، قال تعالى في القرآن الكريم: ﴿نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾^(١) يقول تعالى في سورة يس: ﴿وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه﴾^(٢)، أي انه ذكر لنا بشأن المعاد، وصفا خاطئا، ولو كان يعرف نفسه جيدا، ولم يكن قد نسي نفسه، لما أنكر قضية المعاد ولما انتقدها، فالذي يعرف نفسه جيدا، يعرف مبداه جيدا، ويعرف معاده جيدا، ومن لا يعرف نفسه جيدا فهو لا يعرف مبدأ خلقه، ولا يفهم معاده .

وتتضح خلال هذا الكلام، ثلاث مسائل، الأولى: أهمية معرفة النفس .

الثانية: أهمية معرفة مبدأ الخلق .

الثالثة: معرفة المعاد والهدف النهائي للخلق، وبما ان المبدأ والمعاد حقيقة واحدة، وان الانسان يذهب الى نفس المكان الذي تنزل منه، فيكون الركن الثاني والثالث واحد، اي ان مسألة المبدأ والمعاد، حقيقة واحدة، واذا حصلت معرفة النفس بشكل صحيح، فسوف تحصل معرفة المبدأ والمعاد أيضاً . وان لم تتحقق معرفة النفس، فلا تحصل معرفة المبدأ

(١) سورة الحشر، الآية (١٩).

(٢) سورة يس، الآية (٧٨).

والمعاد، كذلك .

لذا يذكر القرآن الكريم ان الذين نسوا أنفسهم، يجهلون المعاد ويوجهون له انتقاداً ممزوجاً بالانكار وان كان قد ورد في الحديث المعروف القيم «من عرف نفسه فقد عرف ربه»^(١) فانما يكون ذلك لأن الله تعالى هو المبدأ وهو المعاد أيضاً ﴿انا لله وانا اليه راجعون﴾^(٢)، اذن، من يعرف نفسه، يعرف مبدأه ويعرف معاده، واذا لم يعرف ربه، فذلك لأنه لم يعرف نفسه جيداً، واذا لم يعرف معاده، فلأنه لم يعرف نفسه .

لذلك، فان خلاصة المبدأ والمعاد، مسألة واحدة، وخلاصة حديث «من عرف نفسه فقد عرف ربه» مع المضمون المبارك ﴿نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾ الذي يكون كل منهما عكس نقيض للآخر هو مطلب واحد وهو نفس ذلك المطلب الذي يتحصل من ذلك الحديث الشريف ومن الآية المباركة، في سورة يس ﴿وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه﴾ اي لأنه نسي خلقه وفطرته ووجوده، فهو منكر للمعاد، ﴿او لم ير الانسان انا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين﴾^(٣)، ﴿وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه﴾، فالذي لا ينسى خلقه وفطرته وحقيقته فان لديه رؤية شهودية للمبدأ والمعاد، ولديه خضوع عبادي لذلك المبدأ .

ان الانسان اذا وجد حقيقته بالعلم الحضورى، وحقيقته ليست الا التعلق بمبدأ الخلق، والربط بالوجود المحض، فكيف يمكن ان يرى حقيقته المرتبطة، ولا يرى ربه، وهو طرف هذا الربط ومستقل هذا الوجود الرابط

(١) (مائة كلمة) للمحافظ .

(٢) سورة البقرة، الآية (١٥٦) .

(٣) سورة يس، الآية (٧٧) .

أفهل ان حقيقة الانسان ذات استقلال؟ او انها مرتبطة بغير الله سبحانه حتى يمكن تعقل ان يكون الانسان في عين معرفته بحقيقة نفسه غافلاً عن معرفة الله تعالى.

ولما كان الربط والفقر لحقيقة الانسان تجاه الله، ليس كالزوجية للأربعة، التي تكون لازمة للذات، وانما شبيه بنفس الاربعية للأربعة وهي عين ذاته، وكما ان الاستقلال والغنى للواجب تعالى، هو عين ذاته، فان الفقر للموجود الممكن، هو عين ذاته، اذن فالشخص الذي يعرف نفسه فانه قهراً سوف يعرف الله، لأن ذاته مرتبطة بالله واذا لم ير الله تعالى، فسبب عدم رؤية الشخص لله، هو نسيانه لنفسه، ونسيانه لنفسه مردّه الانشغال بعالم الطبيعة.

في سورة آل عمران، يقول تعالى ﴿أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية﴾^(١)، أي أن هؤلاء نسوا ذاتهم جانبهم الانساني من وجودهم وفطرتهم الالهية، وانشغلوا بالجهة الحيوانية والطبيعية من وجودهم، انهم نسوا انسانيتهم الأصلية والراسخة، وانهمكوا بالطبيعة المتقضية والمنصرمة والمتروكة، وكان كل همهم الاستفادة من المتع المادية والطبيعية العابرة هؤلاء الذين نسوا الذات الانسانية فيهم ﴿نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾ واتجهوا الى ذاتهم الحيوانية والنباتية حيث ﴿أهمتهم أنفسهم﴾، فكل همهم هو المحافظة على نشأتهم الطبيعية، ان الذي يهتم بالجانب الانساني ويعرف الجانب الأصيل في وجوده ويدرك انه متاع قيم فانه يبيع هذا المتاع القيم في سوق الشهادة والجهاد، لله، الذي يشتري بضاعة الشهادة، ويشترى نفس الشهيد ﴿ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم

(١) سورة آل عمران، الآية (١٥٤).

وأموالهم ﴿١﴾ .

ان الانسان الذي يعرف نفسه، ويدرك قيمتها الخالدة، يبيع نفسه لله، اما الذي لا يعرف نفسه، ويضيعها باللابالية، فانه يتعلق بالطبيعة ويصبح في رهن المادة ﴿يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية﴾ وأمثال ذلك .

فهؤلاء نسوا أنفسهم، وبما أنهم نسوا أنفسهم، وحقيقتهم مرتبطة بالله سبحانه، فانهم حرموا، من مشاهدة ذلك المستقل الذي يكون هذا الوجود الرابط مرتبطاً به، وبما ان المعاد هو المبدأ، والآخر هو الأول ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن﴾ (٢) فلذا قال بأن الذي ينسى نفسه، منكر للمعاد فانه لو تذكر خلقته وحقيقته ولم ينسَ، لما أنكر القيامة، أبداً اذ ان القيامة هي العودة الى ذلك المبدأ وحقيقة الانسان أيضاً مرتبطة بذلك المبدأ، وقيامه الانسان هي هدف الانسان، وهناك رابطة تكوينية بين الانسان وهدف الانسان، وهذه الرابطة التكوينية هي رابطة شعورية واعية، والانسان يرى بهذا الشعور، ذلك الربط التكويني .

فالانسان ان كان يرى نفسه فسوف يرى الربط بالقيامة ولكنه لما كان لا يرى نفسه، يظن انه منقطع عن القيامة لذا ورد في الآية المذكورة بأن الانسان ينتقد القيامة، لأنه نسي نفسه، ويسأل مستنكراً عن الذي يحيي الموتى فانه لو كان على ذكر لنفسه لعرف انه ﴿هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً﴾ (٣) فقد مرت برهة على الانسان لم يكن شيئاً أصلاً وتلا ذلك مرحلة عدم كونه شيئاً مذكوراً لا مطلق الشيء ثم تعاقبت عليه المراحل

(١) سورة التوبة، الآية (١١١) .

(٢) سورة الحديد، الآية (٣) .

(٣) سورة الانسان، الآية (١) .

والأدوار حتى صار انساناً تاماً.

ان الانسان لو عرف نفسه، وقال انني لم أكن وخلقتم وخلقني هذا مرتبط بالمبدأ، والمعاد هو نفس المبدأ وربطني مع المبدأ هي رابطة شهودية، كما ان رابطتي مع المعاد هي أيضاً رابطة شهودية ويرى نفسه، عين الربط بالله سبحانه، وليس هناك شيء آخر يربط بينه وبين الله ويجعله طرفاً، اذ ان هذا بدوره نوع من الاستقلال، فانه حينئذ لا يغفل ابداً عن شهود المبدأ ولا يغفل عن ذكر المعاد.

والخلاصة، ان الانسان هو عين الربط بالمعاد وعين الربط بالمبدأ، لذا كيف يمكن ان ينكر المعاد ويجهل المبدأ. لا يمكن ابداً ان يعرف الانسان نفسه، وينكر الله، او أن يكون ذاكرة لنفسه ومنكراً للقيامة.

ان تعبير ﴿ونسي خلقه﴾ هو بمثابة انكار للمعاد ومعنى الآية لقد نسي المعاد، لأنه نسي نفسه، والانسان الذي لا ينسى نفسه ويتذكرها، لا ينسى رب العالمين الذي هو المبدأ والمعاد «هو المعيد وهو المبدأ». ان أصول الدين التي هي ثلاثة، التوحيد والنبوة والمعاد، ولكن في القرآن الكريم، يشار أحياناً الى أصلين منها، لأن المبدأ هو المعاد، والمعاد هو المبدأ، لذا قال: ﴿لا إله الا انا فاعبدون﴾^(١)، فعبارة ﴿لا إله الا انا﴾ تتضمن المبدأ والمعاد، لأن المعاد، هو عود ورجوع الى المبدأ. ﴿انا لله وانا اليه راجعون﴾ والعبارة اشارة الى مسألة تطبيق العمل مع ما جاء به الوحي، والذي يتضمن مسألة الرسالة والنبوة، فتعبير ﴿لا إله الا انا فأتقون﴾^(٢) أو ﴿لا إله الا انا فاعبدون﴾، يتضمن أصول الدين الثلاثة، المبدأ، المعاد، والوحي

(١) سورة الأنبياء، الآية (٢٥).

(٢) سورة النحل، الآية (٢).

والرسالة، اذ ان المعاد هو عين المبدأ، لذا بين الأصلين بجملته واحدة ﴿لا
إله الا انا﴾، ولخص مسألة تطبيق العمل مع تعاليم الوحي السماوي بوصفها
عبادة في جميع الشؤون.

وهذه المسائل الثلاث منسجمة مع بعضها الآخر، الأولى ما جاء في
سورة الحشر ﴿نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾، والأخرى ما جاء في سورة يس
﴿وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه﴾، وأخرى في الحديث المعروف «من عرف
نفسه فقد عرف ربه»، ولو لم يكن ثمة ربط وجودي بين الانسان وكماله
النهائي، لكانت نسبته الى الكمالات المستقبلية، اعتباراتية، مثل المسائل
الدينيوية، وكان الجزء في القيامة نظير الجزاءات في الدنيا اي تكون أموراً
اعتبارية، في حين ان القرآن الكريم يذكر بأن الجزاء هو نفس عملكم
الدينيوي الذي يظهر بصورة مناسبة للآخرة، اما جزاء الأعمال في الدنيا فهو
مجموعة عقود اعتبارية، بينما الجزاء في الآخرة هو مجموعة تكوينيات
خارجة عن دائرة الاعتبار، وهي عين العمل.

ولو لم تكن هناك رابطة بين الانسان ومستقبله، لما ظهر باطن العمل
مطلقاً، ولما كانت الأوصاف النفسانية التي هي عامل ظهور الأعمال
الخارجية، بمثابة صور نوعية، لذا يتجسد الانسان في القيامة بصورة تلك
الملكات النفسانية، او في الجزاء والعقوبات الاعتبارية فلا تتغير حقيقة
الانسان.

روى المفسرون الشيعة والسنة، عن رسول الله ﷺ، في تفسير الآية
الكريمة ﴿فتأتون أفواجا﴾^(١) بأن بعض الناس يتحولون يوم القيامة الى

(١) سورة النبأ، الآية (١٨).

اشكال حيوانات، وهذا هو المسخ الملكوتي وليس الملكي . فالمسخ والنسخ الملكي هو ان تفارق روح الانسان، بدنه، وتنتقل الى بدن انسان آخر او حيوان . وهو أمر مستحيل، وقد برهن في مبحث امتناع التناسخ ان انتقال الصورة النوعية من فردا الذاتي الى فرد من نوع آخر بصورة الانفصال، هو امر مستحيل، سواء على شكل صعود من جماد الى نبات وحيوان وانسان، او بشكل نزول من انسان الى حيوان ونبات وجماد . اما المسخ الملكوتي فهو ظهور باطن الشخص ويتجسد ظاهره بشكل باطنه .

ويتضح من قوله تعالى ﴿كونوا قردة خاسئين﴾^(١)، ومن حشر بعض الناس يوم القيامة على شكل حيوانات، ومن قول أمير المؤمنين عليه السلام «فالصورة صورة انسان والقلب قلب حيوان وذلك ميت الاحياء»^(٢) الربط الوجودي للانسان مع حقيقة أرفع وكمال وجودي أفضل، واذا انفصل ذلك الربط الكمالي بينه وبين هدفه والتفت الى جهة أخرى، فسوف يهبط وينزل من ذروة الانسانية .

فأمير المؤمنين عليه السلام يقول: «ان هناك فئة لم يحفظ هذا الربط الكمالي وهم في صورة انسان الا ان قلوبهم قلوب حيوانات» ويقول الامام السادس عليه السلام: «اصل الانسان لبه»^(٣)، اي ان واقعية كل شخص تحددها روحه وبما ان نفوس بعض الناس هي روح حيوانية، فهم حيوانات في الحقيقة «وذلك ميت الاحياء»، لأنه فقد الحياة الانسانية، فهو ميت، وصورته الظاهرية لا تبين حقيقته فحقيقته شيء آخر، وفي القيامة حيث تظهر

(١) سورة البقرة، الآية (٦٥).

(٢) نهج البلاغة، للفيض، الخطبة ٨٦.

(٣) أمالي الصدوق، المجلس ٤٣، الحديث ٩.

كل أنواع الحقائق، يظهر باطنه أيضاً، ويتبين انه كان حيواناً فيصبح بصورة حيوان.

فيتضح ان هناك رابطة وجودية بين الانسان والهدف من خلقه الذي يتحرك نحوه، ولتلك الرابطة الوجودية دور مؤثر في تكون الانسانية وفي صورته الجوهرية، ولها تأثير كبير في تشكيل كيفية وجوده في المستقبل، ونظرا الى ان ذلك الهدف، هو أمر تكويني، كما هو نفس الانسان، فان الرابطة بينهما امر تكويني، وبما ان الانسان كائن ذو شعور، فان هذا الربط الوجودي، سيكون ربطاً شعورياً، ونظرا الى ان هذا الاتصال الوجودي هو في ذات الانسان، فانه سوف يشاهد هدف خلقه برؤية شهودية، اذا كان لديه علم حضوري بحقيقته، وهذه هي الفطرة التوحيدية.

ان قوله تعالى في القرآن، بشأن المتأثرين بالدنيا ﴿ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل﴾^(١) هو من أجل أنهم يعيشون بمستوى الحياة الحيوانية، وقد اعموا أبصارهم الباطنية، وأوقفوا التحرك الانساني نحو الكمال وقطعوا العلاقة التي بين الانسان ومستقبله، وبما ان أيديهم صارت بعيدة عن تناول الكمال السماوي، فان ثقل هيكلهم المادي ينجذب نحو الأرض فيميلون الى تلك الجهة ﴿أناقلتم إلى الأرض﴾^(٢) والميل نحو الدنيا هو ارتباط تكويني أيضاً، لأن الانسان، على أي حال هو وجود تكويني، ولا يكون هناك ارتباط وجودي من دون اتصال تكويني، لكن ذلك الارتباط هو في مستوى الطبيعة، كما ان طرف الارتباط هذا هو حد وجودي، واودع في باطن الانسان باسم الفطرة. ان قوله في القرآن ﴿ذرهم﴾، هو لأنهم فقدوا

(١) سورة الحجر، الآية (٣).

(٢) سورة التوبة، الآية (٣٨).

متعمدين، الفطرة الانسانية، وخضعوا لعالم المادة والطبيعة، ومن هنا تتضح اكثر البحوث السابقة، وهي وجود ربط وجودي، اي تصور ورؤية شهودية بين حقيقة الانسان وتلك الحقيقة التي هي هدف خلقه، وهذه هي الفطرة التوحيدية .

ان تطبيق مسألة الفطرة على التوحيد في كثير من روايات المعصومين عليه السلام، هو لأن التوحيد في العقائد، يظهر بنظم خاص، وله تجلي بطراز معين وخاص في الأخلاق، وفي الأعمال يظهر بنمط منسجم آخر، ذلك لأن الأساس البناء لكل الخصائص هو التوحيد، والعمل الصالح هو من أجل حصول الملكة النفسانية، والأوصاف النفسانية هي من أجل ظهور الرؤية الشهودية .

ان العمل الصالح هو دائماً مقدمة لشهود الحق، لأن العمل دائماً أرضية لحصول الحال، والحال أرضية لحصول الشهود القلبي، وتلك في الحقيقة هي الفطرة التوحيدية .

ويروي المرحوم السيد حيدر آملی دعاء عن الامام السادس عليه السلام، ويطلب فيه الامام من الله ان يعطيه ما قد فطرت العقول عليه، وهو الفطرة التوحيدية التي جعلها في القلوب .

ان جعل الفطرة التوحيدية في القلب، لا يعني ان التوحيد هو جوهره منفصلة قد زين الله تعالى به القلب فتكون الزينة خارجية عن القلب بالقلب، بل المراد هو ان الله سبحانه قد خلق القلب موحداً والبناء الأصيل للقلب هو انما بني على التوحيد، لذا فقلب الانسان اذا لم يكن موحداً، فهو ليس انسان في الحقيقة . لا انه انسان فاقد لصفة زائدة على حقيقته .

وفي المعنى، ان قلب الانسان قد خلق بعنوان انه جوهرة التوحيد، والذي لم يحفظ جوهرة التوحيد فانه يكسر حقيقة قلبه، ويبدلها الى شيء آخر. لا ان انسانيته في هذه الحال تكون محفوظة الا انه فاقد لصفة زائدة على الذات وهي معرفة الله تعالى، بل ان القلب قد بني على معرفة الله. ونوضح ذلك بمثال، لو نظرنا الى الكتابة التي ترسم على الورق، نلاحظ ان علاقة الكتابة مع الورق هي علاقة عرض ومعرض، لذا من الممكن ان تزول الكتابة، ولكن الورق الذي هو محل لها يظل محفوظاً، أما الرابطة بين تلك الكتابة والحبر، ليست رابطة عرض ومعرض، بل ان حقيقة الحبر أصبحت على شكل كتابة، لذا لا يمكن ان تزول الكتابة ويظل الحبر على حاله من دون نقص، فحين تزول الكتابة، يزول الحبر، ويصبح جرمه شكلاً آخراً.

ان الاعتقاد التوحيدي مقوم للصورة النوعية للقلب الانساني، فاذا زالت تلك الكتابة الالهية، فذلك دليل على زوال الصورة النوعية لقلب الانسان، وتحولها الى صورة نوعية أخرى لا تحمل التوحيد الخالص.

وهكذا يتبين ان قلب الانسان والحقيقة الانسانية، لا تخلق اولاً ثم تمنح معرفة الله، بل ان الله سبحانه قد خلق القلب عارفاً وموحداً بحيث لو زال العرفان والتوحيد، عند ذلك تتغير حقيقة قلب الانسان، ولا يعد ذلك الشخص انساناً، وانما حيوان في الواقع، ﴿كونوا قردة خاسئين﴾ لا انه هو واقعاً انسان الا انه فاقد لمعرفة الله.

وبناء على هذا هناك نظران في تحديد هوية القلب الأول هو أن معرفة الله في القلب، تشبه ما يكتب على الورق، حيث يمكن زوال الكتابة وبقاء

أصل القلب مثل صفحة الورق . الثاني هو ان معرفة الله بالنسبة الى القلب هي نسبة الكلمة الى الحبر، حيث لا يمكن في هذا الحال زوال الكتابة وبقاء حقيقة القلب، لأن حقيقة الانسان قد خلقت على المعرفة الالهية .

لقد خلق الله، الانسان، بالفطرة التوحيدية، وقول أمير المؤمنين علي عليه السلام: «جابل القلوب على فطرتها»^(١) وقوله: «كلمة الاخلاص فانها الفطرة»^(٢) بهذا المعنى وهو، ان الله سبحانه قد خلق القلب بـ﴿لا إله الا الله﴾، وجعل ذلك جبل للقلوب، بحيث ان نسيان الشخص لكلمة ﴿لا إله الا الله﴾ هو نسيان لحقيقته، اي ان حقيقته قد تبدلت الى نوع آخر، لا ان تكون حقيقته محفوظة، ولكنها تنسى، بل الحال فيه كما ذكرنا في مثال الكتابة والحبر، اذ لا يمكن ابداء زوال المكتوب وبقاء الحبر، وحقيقة قلب الانسان هي مثل حبر ذهبي كتب بقلم الحق بصورة الفطرة التوحيدية، فاذا زال الاتجاه التوحيدي والرؤية الالهية والعبودية الربانية، عند ذلك لا يبقى أبداً ذلك الحبر الذهبي .

لذا ليس بالامكان ان يعرف الانسان نفسه، ويجهل ربه، ولا يمكن ان يكون الشخص غافلاً عن نفسه ويعرف ربه، كما ان ليس بالاستطاعة ان يعرف المرء نفسه ولا يعرف قيامته، لأن «من عرف نفسه فقد عرف ربه»، وربّه هو الله، الذي هو المبدأ والمعاد والمرجع . اذن «من عرف نفسه فقد عرف مبدأه ومعاده» . لذلك فالشخص الذي ينسى نفسه، ينسى ربه، كما ورد في سورة الحشر، واذا نسي نفسه، ينسى قيامته، كما جاء في سورة يس .

(١) نهج البلاغة للفيض، الخطبة ٧١ .

(٢) نهج البلاغة للفيض، الخطبة ١٠٩ .

وثمة نكتة أخرى، وهي ان هؤلاء الذين نسوا أنفسهم، تشتعل نار الطبيعة في باطنهم لأنهم أطفأوا الانسانية التي هي نور إلهي، ﴿نار الله الموقدة * التي تطلع على الأفئدة﴾^(١)، لكن هذه النار المشتعلة في باطنهم، ليست مشهودة لديهم حالياً، وحين يموتون وتتكسر أجسادهم الترابية الغضة النضرة فانهم حينئذٍ تشتعل نيرانهم الباطنية ومن هنا فانه يمكن استفادة نكتة أخرى من المثال الذي يذكر بعنوان استدلال على قدرة الله تعالى وهي انه تعالى قد قال جواباً على شبهة منكر المعاد، ورفع استبعادها: ﴿قل يحييها الذي أنشأها اول مرة وهو بكل خلق عليم﴾^(٢) ثم قال: ﴿الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فاذا أنتم منه توقدون﴾^(٣). كانت شجرة المرخ وعفار التي تزرع في الحجاز، عبارة عن شجرة طرية خضراء، ذات أغصان خضراء، وعندما كانت تقطع أغصانها وتكسر، تشتعل بواطنها اي انه يمكن تحصيل النار من هذه الشجرة بواسطة حك بعضها بالآخر، فظاهرها أخضر، ولكن باطنها مشتعل وكذلك فان كثيراً من الناس لهم ظاهر أخضر في الدنيا، لكن باطنهم مشتعل، و﴿نار الله الموقدة * التي تطلع على الأفئدة﴾، هي معهم ﴿وان جهنم لمحيطة بالكافرين﴾^(٤) فيها دلالة على ان جهنم محيطة بهم الآن لأن الاستعمال المشتق في المستقبل مجاز، وحقيقة معاني الآيات المذكورة مشهودة لأهل المعنى، فالعمي لا يرون ذلك، ويتصورون ان باطنهم أخضر، مثلما هو ظاهرهم، وبما انهم فقدوا باطنهم، فقد انشغلوا بخارجهم، فعملوا على اخضاره، ونسوا النار الموقدة الباطنية، ذلك لأن

(١) سورة الهمزة، الآيتين (٦ و٧).

(٢) سورة يس، الآية (٧٩).

(٣) سورة يس، الآية (٨٠).

(٤) سورة التوبة، الآية (٤٩).

الانشغالات الطبيعية لا تسمح ان يشعر الانسان بذلك الاحتراق الباطني .

ان شجرة البدن حين تنكسر وتهشم حينئذٍ، تشتعل نارها الباطنية، بناء على هذا فان كل السعي والجهد يجب ان ينصب على ان يعرف الانسان نفسه، وعندما تحصل معرفة النفس كما يجب، تحصل معرفة المبدأ ومعرفة المعاد، ويكون باطن ذلك الشخص العارف مخضراً، وخارجه مخضراً كذلك . اما اذا جهل المرء نفسه، واتجه الى الطبيعة اشتعل باطنه، اما ظاهره فاخضر، مثل تلك الشجرة التي ظاهرها أخضراً وباطنها ناراً ﴿الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً﴾، وحين ينكسر تظهر ناره الباطنية، فيرى آنذاك ان باطنه كان مشتعلاً .

نسأل الله تعالى بحق محمد وآل محمد - عليهم أفضل صلوات المصلين - ان يمن على الجميع بتوفيق معرفة النفس ومعرفة الرب ومعرفة المبدأ والمعاد، وان يجعل قلوبنا محلاً للمعارف الالهية، وان ينصر ببركة محمد وآل محمد ﷺ، الاسلام والمقاتلين الاسلاميين، وان يرد ببركة القرآن الكريم، خطر القوى الكبرى الى نحورها، وان يمن على الزعيم المعظم للثورة الاسلامية، بالامدادات الغيبية في ظل رعاية حضرة بقية الله - ارواح من سواه فداء - وان يحشر ارواح الشهداء، مع الأنبياء والأولياء وان يمن على ذوي الشهداء بالصبر والأجر، وعلى معوقى الثورة بالشفاء العاجل والكمال، وان ينقذ مستضعفي العالم من خطر المستكبرين، وان يجعل هذه الثورة الاسلامية العظيمة متصلة بظهور حضرة بقية الله - ارواحنا فداء -، وان يجعلنا مثمنين لجهود الشهداء ومعوقى الثورة، القيّمة .

غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

البيان القرآني لشهود النفس ونسيانها

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم .

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله و صلى الله على جميع الأنبياء والمرسلين . والأئمة الهداة المهديين سيما خاتم الأنبياء وخاتم الأوصياء عليهما آلاف التحية والثناء .

كان البحث يدور حول فطرية التوحيد ومعنى الفطرة وأحكامها . تقدمت الإشارة الى ان القرآن الكريم يحدد طرقاً كثيرة أمام الانسان لأجل تبيين فطرية التوحيد . والآيات التي تحمل في طياتها فطرية الدين تنقسم الى عدة أقسام . المجموعة الأولى هي الآيات التي تعتبر القرآن تذكرة والتي تضيف على عمل الرسول الأكرم ﷺ صفة التذكير . ولما كان القرآن عالمياً قد نزل للناس كافة ﴿ليكون للعالمين نذيراً﴾^(١) . وكانت رسالة النبي تتسم بطابع الشمول والاستيعاب للجميع سواء لأهل الكتاب أو لغير أهل الكتاب ﴿وما أرسلناك إلا كافة

(١) سورة الفرقان، الآية (١) .

للناس ﴿^(١) فنستنتج من ذلك . ان كافة الناس كانوا على اطلاع بالتوحيد والدين الالهي في مرحلة من مراحل الوجود . والقرآن الكريم في الوقت الحاضر يذكر الناس بالأمر التي كانوا مطلعين عليها . المجموعة الثانية . الآيات التي تدل على ان الناس قد نسوا الله ﴿نسوا الله﴾ ^(٢) يفهم من ذلك . انهم كانوا على خلفية مسبقة بالمعرفة الالهية . وفي الوقت الحاضر غابت عن أذهانهم هذه الحقيقة . المجموعة الثالثة . الآيات التي تدل على أن الانسان . يتذكر الله عند الاحساس بالخطر ﴿فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين﴾ ^(٣) .

المجموعة الرابعة . الآيات التي تدل على ان الانسان يطلب الله باخلاص في حالة الخطر والابتلاء به . وهذا التوسل الفطري والرجاء الواثق إمارة على وجود الله سبحانه في الخارج وان التعلق بالله كامن في ذات كل إنسان المجموعة الخامسة : الآيات التي توضح مسألة الاستدلال على وجود الله من طريق المحبة . يعني ان الله هو الذي يقع مورداً للمحبة . ولأنه ليس هناك أحداً أو شيئاً يستحق المحبة غير الذات القدسية لله . فعليه ليس هناك أي موجود يستحق الالهوية لقد كان هذا المسلك مسلك ابراهيم الخليل سلام الله عليه ومفاد ﴿قال لا أحب الآفلين﴾ ^(٤) على أساس البرهان الفطري هو : ان الاله هو الموجود الذي يكون محبوباً . وكل شيء يتعرض للزوال لا يكون مستحقاً للمحبة . فعليه لا يستحق الربوبية أي موجود متغير . هذا الدليل الذي يبين من طريق المحبة غير دليل الحركة . وإن كان المرجوم صدر

(١) سورة سبأ، الآية (٢٨) .

(٢) سورة الحشر، الآية (١٩) .

(٣) سورة العنكبوت، الآية (٦٥) .

(٤) سورة الأنعام، الآية (٧٦) .

المتألهين قد طبق استدلال ابراهيم الخليل ﷺ عليه وذلك ان استدلال
 خليل الرحمن ﷺ ليس يكمن في ان هذه النجوم متحركة وأن كل متحرك
 يتطلب محركاً. فيترب عليه ان النجوم السماوية تحتاج إلى محرك. أولي
 حتى يكون هذا الدليل هو الدليل المعروف بدليل الحركة وإنما قال ان الذي
 يؤول أمره الى الغروب لا يكون محبوباً. والله هو الذي يقع مورداً للمحبة
 إذن فالله هو ذلك الموجود الذي يحبه القلب وينجذب اليه. والشيء الذي
 ينتهي الى الزوال لا ينشد القلب ولا ينجذب اليه، فإذا لا شيء من
 المتغيرات آله عصاره هذا الدليل لا يمت بصلة الى برهان الحدوث لأهل
 الكلام، ولا إلى برهان الحركة الارسطوية ولا إلى برهان الامكان الماهوي
 للحكماء المشائين ولا إلى برهان الامكان الفقري المنسوب الى صدر
 المتألهين. وان كان برهان الامكان الفقري لا يخلو من ارتباط مع البرهان
 الفطري، غير ان هذا الدليل الحاصل لدى سيدنا ابراهيم ﷺ هو دليل
 مستقل والحد الوسط فيه هي المحبة. وقد شرح هذا الاتجاه الأستاذ العلامة
 الطباطبائي «قدس الله نفسه الزكية» بصورة جيدة. وليس هذا الطريق طريقاً
 للفكر كي يكون منسجماً مع أدلة أصحاب النظر. وإنما هو طريق القلب. لم
 يقل ابراهيم الخليل ان هذه الأشياء متحركة فهي تتطلب محركاً. وإنما
 يقول. بان الله عز وجل هو الذي يقع مورداً للمحبة. وكل واحدة من هذه
 الأشياء غير محبوبة فعليه. لا شيء منها يعتبر إلهاً. وهذا المعنى وهو ان الله
 يجب ان يكون محبوباً. هو طريق القلب دون الفكر وقد جعلت المحبة
 والتي هي من شؤون وأوصاف العقل العملي حداً وسطاً في البرهان النظري،
 وهذا تليفيق بين الحكمة العملية والحكمة النظرية. هذا اندماج ظريف إذ
 تسعى فيه النفس الواحدة لشؤون مختلفة تسعى لأن تحقق التوافق والانسجام

بين الجناح النظري للعقل مع الجناح العملي له، حتى توجد التعارف بين الفهم والقلب يقول ابراهيم عليه السلام بان الله هو الذي يقع مورداً لمحبة القلب السليم. والقلب السليم لا يحب الآفل على الاطلاق ولو كانت هذه المحبة متعلقة بالسليقة والذوق أو قائمة على أساس الاعتبارات والأعراف. فمن الممكن ان أحد من الناس يقول أنا أحب الصنم كما ورد ذلك في حق الوثنيين. ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله انداداً يحبونهم كحب الله﴾^(١) فهؤلاء يقبلون الأصنام بعنوان الهة ولقلوبهم تعلق بها كما تعلق بالله تعالى، أو ان محبتهم لأصنامهم كمحبة الآخرين لله تعالى. الا ان هذه المحبة ليست مرتبطة بالذوق الشخصي بل المقصود منها هي تلك المحبة الأصلية والعلاقة الفطرية التي جبلت النفس الانسانية عليها. وخلاصتها ان الله هو المحبوب الحقيقي وكل شيء يؤول أمره الى العدم لا يستحق المحبة الصادقة وعليه لا يستحق الألوهية من كان قابلاً للزوال. لأنه مع زواله تبقى المحبة بلا متعلق. والقلب لا يمكن ان يخلو من المحبة والمحبة أيضاً تتطلب ذات اضافية ومحبوياً ولا تتحقق بدون التعلق ووجود المحبة بلا وجود المحبوب ضرب من المحال. وعليه فالشيء الذي يزول ويفنى لا يكون مستحقاً لمحبة القلب. والقلب السليم لا يصبو إليه أبداً. وهذا تقرير طريق الفطرة والذي بين بصورة المحبة. لا طريق الفكر والعلم الحصولي. وقد تقدم بيان هذه الآيات بشكل مفصل إلى حد ما في الموضوع السابق. وتوصلنا الى هذا القسم في نهاية البحث السابق. وهو ان القرآن الكريم يقول ان الله تعالى قد يُنسي الانسان حقيقة نفسه كيف يشاهد الانسان حقيقة نفسه أحياناً. وينساها في أحيان أخرى. هل ان كل منهما. حقيقة أو كلاهما كناية ومجاز أو ان

(١) سورة البقرة، الآية (١٦٥).

أحدهما حقيقة والآخر مجازاً؟ في فصل من فصول القرآن يقول الله عز وجل ﴿واشهدهم على أنفسهم﴾^(١). أي ان الانسان شاهد نفسه بإراءة الله تعالى له ذلك في احدئ النشآت الوجودية ورأى ذاته في موطن الميثاق وكان شاهداً على تعهد حقيقة نفسه، ويقول في محل آخر ﴿نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾ كيف يمكن ان نتصور ان الإنسان يرى حقيقة ذاته في أحد المواطنين. وينساها في موطن آخر؟ ما هو منشأ ذلك الشهود؟ وما هو الأصل في هذا النسيان؟ ويبد من هذا الاشهاد والانساء؟ وفي أي موقع يمكن الانسان من مشاهدة حقيقة نفسه ويوقعه في نسيانها في موضع آخر؟ في كلا المردين ينسب القرآن الكريم الى صفة اليهمنية على حقيقة الانسان. إذ يقول. ان الذي أشهد الانسان على حقيقة ذاته. أو أنساه هذه الحقيقة. هو الله تعالى. قال في سورة الأعراف. ﴿وإذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم الست بربكم﴾ يستفاد من هذه الآية فطرية الأصول العريضة للدين. والخطوط الأصيلة للمعارف. وأما في أي موطن حدثت هذه الواقعة فهذا له بحث مستقل. والذي يقع في مورد البحث فعلاً، هو اننا نستنتج من الآية المذكورة ان الله اطلع الانسان على حقيقة ذاته. بمعنى ان الإنسان شاهد حقيقة نفسه وانشأ هناك عهداً في ذلك الموطن. كما انه شاهد العهد الذي أخذه على نفسه أيضاً.

قال تعالى في سورة «الحشر» ﴿نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾ أي ان الله تعالى أغفلهم عن أنفسهم فلم يعودوا في فكر أنفسهم بل هم مشغولون بخارج حقيقتهم لا بحقيقتهم وعندما يفقد الانسان حقيقة نفسه فانه ينصرف الى خارج نفسه، ومن هنا يعلم بان كل الذين يسرحون في اللذات الجسمانية

(١) سورة الأعراف، الآية (١٧٢).

عن طريق الباطل والذنب وإنما تكون خطواتهم وتقدمهم خارج نطاق أنفسهم وحققتهم لأن كل هذه الأمور خارجة عن حقيقة النفس الانسانية وخلاصة ما ورد في سورة الحشر من الأنساء وفي سورة الأعراف من الأشهاد هو ان الانسان لما كان ذا روح مجردة. فهو قد شاهد تلك الحقيقة قبل ان يلوث هذه الحقيقة المجردة بالتعلقات الباطلة وقبل انصرافه وتوجهه الى خارج حدود نفسه فهو يتمكن من الرجوع الى ذاته ما دام لم يستغرق فيما هو خارج عن حدود نفسه أما إذا استغرق بهذه الأمور الخارجة عن ذاته واستهلك فيها فان توجهه الى باطنه يتناقض قليلاً. قليلاً حتى يصل الى مرحلة لا يلتفت معها الى باطنه أصلاً وهذه المرحلة هي التي ينسى الانسان فيها حقيقته الشخصية. والدليل على ان كل هذه الأمور بيد الله يكمن في ان النسيان والشهود معاً من الأمور الامكانية. ولا بد لكل ممكن ان يرجع الى واجب الوجود أما مع الواسطة أو بدون واسطة. فلذلك نسب الأشهاد الى الله لأنه قال: ﴿وأشهدهم على أنفسهم﴾ والنسيان كذلك منسوب الى الله لأنه قال ﴿فأنساهم أنفسهم﴾ عندما تتجه همة الانسان الى جهة الطبيعة. فان الجهة التي ما وراء الطبيعة سيكون متخلفاً عنها وناسياً لها. ولأن هذا العمل ممكن الوجود فهو يحتاج إلى فاعل وبداية قانون الفاعلية يدخل ضمن سلسلة الخالقية الالهية. فلهذا نسب الله هذا العمل الى نفسه. فقال ان الله عز وجل أنسى هؤلاء أنفسهم فلم يعودوا يفكرون بها. إن نسيان الذات ليس معناه ان هؤلاء قد افتقدوا نظرهم التوحيدية لأن الفطرة الالهية غير قابلة للتغيير كما مرّ البحث في شرح آية الفطرة ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله﴾^(١) إذا لم تتغير الفطرة التوحيدية لهذه المجموعة. ولم تتزعزع أو تتبدل

(١) سورة الروم، الآية (٣٠).

الى صورة اللاقتضاء ولا صورة اقتضاء العدم كما انها لم تتحول الى فطرة الكفر بل ان هذه الفطرة باقية ومستمرة لكنها منسية لا أنها مبدلة . فلم تتغير فطرة الكافر وإنما هي محفوظة غاية ما في الأمر إنها قد اضحت منسية لذلك عندما يزاح حجاب الغفلة يوم القيامة . فانه سيشاهد حقيقته ذاته بأكملها . تعتبر مساوىء الانسان وأعماله المنحرفة بمثابة الغبار الذي يغطي صفحة النفس . فلا يمكنه ان يشاهد فطرته التوحيدية ويتطلع الى الله ويراه إلا عندما يُزاح الغبار وظهور الرين على صفحة قلبه بصورة الجزاء لدى ظهور الأسرار الهية . وليس هذا معناه انه قادر على تحصيل الايمان آنذاك لأنه قد سبق الكلام في البحوث الماضية بان القيامة هي ظرف الشهود لا العمل سواء كان العمل قلبياً نظير الايمان أو بدنياً نظير الصلاة . والصوم . ففي دار الدنيا التي هي منشأ التكليف يحصل الانسان على الإدراك والايمان على أثر مشاهدته للحق أو تفكيره فكراً حقانياً . وأما في القيامة فيتوصل الى هذه الحقيقة على أثر الشهود ولكنه لا يستطيع ان يُوتي الايمان بها . لأن الهدف من الايمان هو تحقيق السعادة . وهو أمر يختص بالدنيا . والقيامة محطة لجني ثمار هذا العمل . لذلك يقول الكافرون في يوم القيامة ﴿ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً﴾^(١) فمسألة ﴿آمناً﴾ غير مطروحة انما المسألة المطروحة وحسب هي مسألة ﴿أبصرنا وسمعنا﴾ فهم يقولون ربنا ارجعنا الى الدنيا حتى نؤمن ونعمل صالحاً . إلا ان باستطاعتهم ان يقولو ﴿آمناً﴾ في يوم القيامة . لأنه كما اتضح بيانه سابقاً ان الايمان فعل اختياري ومورد للتكليف . والقيامة ليست موطناً للتكليف وإذا كان هذا الموطن ، أيضاً موطناً للايمان والتكليف . فمن الضروري أيضاً ، تحقق مسألة الوحي والرسالة في ذلك

(١) سورة السجدة ، الآية (١٢) .

الموطن ولكانت بدورها نشأة دنيوية لا يوم قيامة ودار العمل لا دار جزاء على هذا الأساس يتضح ان المعقول هو إمكان ان يطرأ النسيان على الفطرة التوحيدية للكافر . لا انه يعترها التبدل والتغير . ذلك لأنه لا الله سبحانه ولا عامل آخر يقوم بتبديل وتغيير هذه الفطرة ﴿ لا تبديل لخلق الله ﴾ كما انه ﴿ لا مبدل لكلماته ﴾^(١) إذا الفطرة التوحيدية موجودة في ذوات الجميع . وتظهر في الوقت الذي تبرز فيه الحوادث المريرة . في بعض الأحيان يقع الانسان ضحية الطوارئ والوقائع المأساوية . وتتساقط أقنعة الغرور وقواعدها المزيفة . وتبدأ تلك الفطرة الأصيلة بالانكشاف والظهور . في ذلك الوقت يتذكر الانسان حقيقة ذاته ويتجه نظره الى الله سبحانه . بالاضافة الى ظهور هذه الفطرة يوم القيامة بصورة كاملة ﴿ يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون ان الله هو الحق المبين ﴾^(٢) .

في ذلك اليوم يظهر الله سبحانه بوحدته القاهرة بصورة كاملة . وتقوم تلك الوحدة القاهرة بتردد كل كثرة تواجدها . لذلك لا يشاهد الانسان في ذلك اليوم شيئاً آخر غير حقانية الله تعالى . فعلى هذا الأساس . الشيء الذي يصاب به المنحرفين في دار الدنيا هو النسيان لا التبدل . ومنشأ هذا النسيان أيضاً هو انشغال الانسان بنفسه بمعزل عن حقيقته الذاتية . هذا الانسان الذي خلق على أساس أحسن التقويم ﴿ لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم ﴾^(٣) فإذا لم يتحرك الى جهة ﴿ أحسن تقويم ﴾ فإنه سيأخذ بالانحراف الى الطرف المقابل لذلك الذي هو ﴿ أسفل سافلين ﴾^(٤) وتغيب عن ذاكرته . الجنبه

(١) سورة الأنعام، الآية (١١٥) .

(٢) سورة النور، الآية (٢٥) .

(٣) سورة التين، الآية (٤) .

(٤) سورة التين، الآية (٥) .

القائمة على ﴿أحسن تقويم﴾ أما سر هذا المطلب وهو ان الله كما هو قادر على الاشهاد قادر على الانساء أيضاً. السر في ذلك هو نفس ما ذكره في سورة الأنفال بقوله ﴿واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه﴾^(١) ولا يعتبر قطب الانسان حقيقة مغايرة لواقع الانسان نفسه. بل ان الذي يمثل حقيقته هو نفس القلب الذي يشكّل روحه الانسانية المجردة. ولأن الانسان وروحه التي بين جنبيه أمراً ممكناً والموجود الممكن أجوف ومعتمل وغير صمد فان باطنه خال فارغ والله الذي «هو في الأشياء على غير ممازجة»^(٢) تُحيط بسعته العلمية وقدرته اللامتناهية. بباطن كل شيء نظير احاطته بالخارج بناء على هذا الأمر. فان الله يعتبر الفاصلة بيننا وبين حقيقتنا الذاتية الدليل على هذه الاحاطة الوجودية. يكمن في ان الله سبحانه وجود لا محدود. والموجود اللامحدود لا يفقد شيئاً ولا يغيب عن شيء. لهذا السبب فهو يمتلك إحاطة وجودية لكل شيء وفي كل شيء. لذلك قال أمير المؤمنين عليه السلام «مع كل شيء لا بمقارنة»^(٣) لذلك ليس من الممكن ان تكون بواطننا خارج دائرة المقدره والاحاطة العلمية للحق على ان تنحصر إحاطة الله سبحانه على الخارج فقط اذ لازمه تحديد دائرة الوجود الالهي. وبناء على المحدودية لن يكون الله في الأشياء اطلاقاً واذا لم يكن محدوداً وكائن «في الأشياء على غير ممازجة» فيمكن وصفه اذاً بأنه يحول بين المرء وقلبه» كما «يحول بين المادة والصورة» «يحول بين الجنس والفصل» «يحول بين الوصف والموصوف»، «يحول بين الموضوع والمحمول» «يحول بين الشيء ونفسه».

(١) سورة الأنفال، الآية ٢٤.

(٢) توحيد الصدوق ٣٠٦.

(٣) نهج البلاغة فيض: الخطبة الأولى.

ليس بالامكان ان يوجد شيء ليس لله تعالى احاطة بباطنه . لذلك اذا تعرّف الانسان على ذاته فسيشاهد الاحاطة العلمية للحق في أعماق نفسه والله سبحانه غير قابل للانكار على الاطلاق فليس باستطاعة احد أن ينكر الله قلباً وأولئك الذين أنكروه . أما ان ينحصر انكارهم في دائرة اللسان لا القلب . واما أنهم لم يتعرفوا بعد على قلوبهم التي تشكل حقيقتهم الذاتية المعنى الحكيم لكلام أمير المؤمنين الذي يقول «عرفت الله بفسخ العزائم وحلّ العقود ونقض الهم»^(١) يكمن في اننا لا نملك بواطن قلوبنا والحكمة في مخاطبة الله سبحانه لنبيه الأكرم ﷺ بقوله «قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله»^(٢) ان الله تعالى يحيط بقدرته اللامتناهية بذات كل موجود يمكن نظير احاطته بالواقع الخارجي لهذا الممكن لذلك نحن اذا أردنا ان ننصرف ونتوجه الى أعماقنا وبواطننا فسيكون ذلك مرهوناً بلطف الله وتوفيقه أيضاً، واذا نحن نسينا الله تعالى . وتركنا دستور الحق، فان التوفيق لمعرفة النفس والتوجه الى الذات سيسلب عنا أيضاً لأن الوجود اللامحدود للحق هو الذي يفصل بيننا وبين حقيقتنا الذاتية . ولا يفسح لنا المجال لمعرفة بالامكان ان نفهم الحقيقة الخارجة عن ذاتنا . لكن هذه المعرفة لا تغني شيئاً لأننا لا نعرف شيئاً من حقيقتنا الواقعية، لذلك فنحن نفكر في تشييد الطبيعة واعمارها لا في تحصيل الحقيقة، نحن نفكر بالأمر الذي يجب ان ندعه جانباً والذي نحن في حالة تجاوز عنه ونترك الأمر الذي يجب ان يرافقتنا في سفرنا ونتحرك في هذا السفر بلا زاد ولا عدة .

الخلاصة، ان كلام من قوله تعالى «وأشهدهم على أنفسهم» و

(١) نهج البلاغة، صبحي الصالح الحكمة ٢٥٠ .

(٢) سورة الأعراف، الآية (١٨٨) .

﴿انساهم أنفسهم﴾ كل منهما حقيقة لا مجاز وليست هناك نعمة أعظم من نعمة التعرف على الذات. كما انه ليست هناك نقمة وعذاب أنكى وأدهى من نقمة نسيان الذات. لأنها الأرضية الممهدة لنسيان رب المخلوقات الانسان الذي عرف نفسه، يحصل المعرفة بربه أيضاً. لأن الله تعالى ﴿هو الأول والآخر﴾^(١) الشخص الذي يحصل المعرفة بنفسه. يحصل المعرفة أيضاً بكل من مبدأه ومعاده. وبالنتيجة ستحصل له المعرفة بالدين. وهذا هو نفس كون الدين قائماً على الفطرة اما اذا نسي نفسه فان كل من مبدأه ومعاده سينساهما أيضاً وعندما ينسى الشخص مبدأه ومعاده فانه سوف ينسى الطريق الممتد بينهما الذي يمثل حلقة الوصل بين البداية والنهاية ولذلك سيغيب عن ذهنه مسألة الوحي والرسالة أيضاً، قال تعالى في سورة الحشر ما معناه «لأنهم نسوا الله فأنساهم أنفسهم»، ويقول في سورة يس ما معناه «لأنهم نسوا أنفسهم فان القيامة نسوها»، أيضاً نستنتج من ذلك ان المسألة معرفة النفس دور مؤثر في التعرف والايمان بالمبدأ، وكذلك دور مهم في التعرف والتسليم بالمعاد، ذلك لأن حقيقة الانسان عين الربط بالله تعالى والله سبحانه يمثل كل من المبدأ والمعاد فالمعرفة الشهودية للنفس مقرونة بالمعرفة الحضورية بالله تعالى، الذي يمثل كل من البداية والعمل. وكما ان انكار المبدأ يتأتى على أثر نسيان النفس، انكار المعاد أيضاً يتأتى على أثر هذا النسيان ﴿وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه﴾^(٢) يتضح من ذلك ان الانسان اذا لم ينس ذاته فسيكون مستحضراً لمعاده أيضاً، والشخص الذي ينسى نفسه لا يكون في صدد التفكير بالمبدأ والمعاد.

(١) سورة الحديد، الآية (٣).

(٢) سورة يس، الآية (٧٨).

فلو تأمل الانسان في حدود ذاته بأنه لم يكن موجوداً ثم وجد بعد ذلك فانه سيدرك ان بالامكان في الشيء الذي يصير تراباً ان يستعيد حياته مرة أخرى بأمر الله تعالى ومسألة المعاد مسألة حتمية وضرورية وليست ممكنة فحسب، بل انها ستحدث قطعاً، وإنما يشاهد الشخص ضرورة معاده. فيما اذا تعرف على نفسه بصورة جيدة والشخص الذي ينسى نفسه فانه سوف ينسى معاده أيضاً مفاد الآية الكريمة المتقدمة الذكر هو ان الانسان لما كان قد نسي نفسه، نسي على أثر ذلك مسألة القيامة واستناداً الى بيان المرحوم صدر المتألهين في تفسير سورة يس المباركة تعتبر الآية المذكورة عكساً لآية سورة الحشر. ففي سورة الحشر قال عز من قائل ﴿نسوا الله أنساهم أنفسهم﴾ أما في سورة يس فيقول ما معناه أنهم انما نسوا مسألة يوم القيامة بناءً على كونهم قد نسوا أنفسهم.

أي نسوا المعاد الذي يعني (هو الآخر) أي الله الذي هو آخر الأمور ﴿ألا الى الله تصير الأمور﴾^(١) لأن المبدأ والمعاد معاً متحدان في ذات الحق. ان أصول الدين وان كانت ثلاثة المبدأ والمعاد والنبوة لكن بعض الآيات القرآنية تشير الى أصليين فقط احدهما يختص في شأن الله تعالى والثاني يختص بشأن الوحي. يقول عز وجل ﴿لا إله إلا انا فاعبدون﴾^(٢) أو ﴿لا إله الا انا فاتقون﴾^(٣) وهذا البيان جامع وناظر الى أصول الدين الثلاثة الله هو المبدأ وهو المعاد أيضاً وقد عبّر عن هذين الأصلين بعنوان ﴿لا إله الا أنا﴾، وانما قال ﴿فاتقون﴾ أو ﴿فاعبدون﴾ بسبب ان النبوة والرسالة تشمل

(١) سورة الشورى، الآية (٥٣).

(٢) سورة الأنبياء، الآية (٢٥).

(٣) سورة النحل، الآية (٢).

على الدساتير الجامعة والكاملة ولا بد لكل عبادة وتقوى ان توافق هذه الدساتير والغرض من ذلك هو ان الله قد يكتفي بخصوص ذكر المبدأ أحياناً لأن المعاد هو عين المبدأ وفي بعض الأحيان يذكر الأصول الثلاثة الى جانب بعضها كمثل قوله ﴿آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً﴾^(١) العمل الصالح معناه القيام بالعمل على وفق ارادة الوحي وهذا يرجع الى مسألة النبوة والرسالة اذ الآية المذكورة أشارت بصورة منفصلة الى كل من الايمان بالمبدأ والايمان بالمعاد والاعتقاد بالوحي والعمل على وفقه. في بعض الأحيان يذكر الايمان بالمبدأ او القيام بالعمل الصالح. ولأن المعاد هو نفس المبدأ لا يذكره تعالى على حدة اما الذين انكروا المعاد بالرغم من ايمانهم بالله بصفته خالقاً. فلأنهم لم يعرفوا الله حق معرفته.

المسألة التي تقع مورداً للبحث هي انه كيف يمكن توجيه حالة النسيان للذات. وكيف يمكن ان تتذكرها مرة أخرى بعد ان طرأ عليها النسيان؟ الجواب على ذلك يقع في ان النسيان على قسمين القسم الأول هو النسيان الذي يقع دون مستوى العقل المتعارف. القسم الثاني هو النسيان الذي يقع فوق مستوى العقل العادي. القسم الأول، يتجلى في الشخص الذي ينسى ذاته على أثر انغماسه باللذات العابرة. وبالنتيجة سوف ينسى ذكر الله سبحانه أيضاً. القسم الثاني يتجلى في الشخص الذي ينسى ذاته على أثر استغراقه بالشهود الالهي. يعني بالاضافة الى ان الجاهل المنحرف ينسى ذاته ولا يفكر بها. العارف المخلص الذي وصل الى منزلة الفناء والاستغراق في بحر المشاهدة للحق. هو الآخر ينسى ذاته ولم يعد يفكر بها، لكن الفرق الواضح بينهما ان الذي وصل الى مرحلة الهلاك وقع ضحية النسيان المذموم. اما

(١) سورة البقرة، الآية (٦٢).

الذي نال درجة المعرفة حُبي بالنسيان الممدوح . العارف ينسى نفسه . لأنه بناءً على أساس ﴿فاینما تولوا فثم وجه الله﴾^(١) لا يشاهد غير وجه الله ، اما الانسان المنحرف فعلى أساس تعلقه النفسي بحدود المادة والطبيعة ينسى حقيقة ذاته لأنه لا يشاهد شيئاً آخر غير الدنيا وقد أمر الله سبحانه نبيه الأكرم ﷺ بالاعراض عن مثل هؤلاء الأشخاص فقال ﴿فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا﴾^(٢) فالنسيان إذاً على قسمين . الا ان الشخص الذي وصل الى منزلة الفناء ثم فني أيضاً عن هذا الفناء فنال مرحلة البقاء بعد الفناء . مثل هذا الشخص في الوقت الذي هو يستغرق في الشهود الالهي هو مستحضر لذاته أيضاً لأن الله تعالى «مع كل شيء لا بمقارنة» . وشهود الاله الذي يكون هذا وصفه سيكون حتماً مقروناً بشهود الأشياء ومشاهدة الذات ولذلك فشهود ذلك العارف الذي وصل الى مرحلة البقاء بعد الفناء سيكون «داخل في الأشياء لا بالممازجة» .

ويطلق على هذه المنزلة مقام الفناء عن الفناء او البقاء بعد الفناء ، ويقال لذلك الأول مقام الفناء ويطلق على احدهما وهو الفناء عن الفناء جمع الجمع وعلى الآخر وهو الفناء مقام الجمع . في بعض الأوقات يصل العارف الى الدرجة التي يكون فيها مستغرقاً في مشاهدة الحق . وفانياً في رؤية الجمال الالهي . وفي بعض الأوقات يتجاوز هذه المرحلة ليشاهد حالة الفناء الذاتي عنده ويتمتع بحالة البقاء بعد الفناء التي هي أعلى مراتب السير والسلوك ، وللأشخاص الكاملين سبيل الى ذلك المقام المنيع ولهذه المرحلة مراتب أيضاً وأفضل هذه المراتب يختص بخاتم الأنبياء صلوات الله

(١) سورة البقرة، الآية (١١٥).

(٢) سورة النجم، الآية (٢٩).

عليه وعلى أهل بيته وكذلك الذي هو بمنزلة نفسه يعني أمير المؤمنين عليه السلام. إذاً هناك فرق بين مقام الفناء وبين مقام الفناء عن الفناء والبقاء بعده، وإذا كان المرحوم الشبستري يصف الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بقوله مقامه المحبوب جمع الجمع، جماله المهيب شمع الجمع فهو ناظر الى هذين المرحلتين، مقام جمع الجمع يعني ان يتجاوز شهود الانسان السالك مرحلة الفناء ليحصل على الصحو بعد المحو والبقاء بعد الفناء. وهذا يطلق عليه جمع الجمع يعني في الوقت الذي هو فانٍ هو باقٍ بعد الفناء. فهو يشاهد كلا من نفسه، والمظاهر، والظاهر في المظاهر أيضاً والذي هو مقام رسول الله صلى الله عليه وآله الذي قال فيه مقامه المحبوب جمع الجميع.

وبما ان كل موجود يصل الى المقام الكامل فان المرحلة المتقدمة تكون منورة بنوره، وتستمد من فيضه قال في المصراع الثاني جماله المهيب شمع الجمع. يعني جمال رسول الله هو الشمعة التي تضيء مقام العارفين اللذين وصلوا الى مرحلة الفناء فقط، فالفرد الذي وصل الى مرحلة جمع الجمع يسطع نوره على اولئك اللذين هم في مقام الجمع. المقصود من الجمع في المصراع الثاني هو مقام الجمع والمقصود من جمع الجمع في المصراع الأول هو مقام جمع الجمع. وهو مقام الصحو بعد المحو..

والثاني هو مقام المحو ولا يقصد من لفظ الجمع في المصراع الثاني معنى المجمع والمحفل ونظير ذلك، وانما المراد ان جماله المهيب هي الشمعة التي تضيء مقام الجمع. ومثل هذا الانسان الكامل تجري أعمال الآخرين كلها بشهوده هو، وهو نفس الشهود التام للحق. وصاحب مقام الفناء وهو مقام النسيان الممدوح ومقام الفناء عن الفناء وهي حالة التذكر

بعد النسيان ونفس نسيان الذات يعتبر كملاً بما ان حالة التذكر بعد النسيان هي الأخرى تعتبر كملاً أيضاً.

وهذا هو التكامل في قوس الصعود، اما في قوس النزول فقد يكون التنزل فيه مضاعفاً أحياناً.

ففي بعض الأوقات قد ينسى الانسان المنحرف نفسه ولكن بعد التذكر والتنبه يستحضر حقيقة ذاته وفي بعض الأوقات يصل به النسيان لنفسه الى درجة بحيث ينسى انه قد فقد حالة التذكر لذاته لذلك هو لا يصحو من غفلته على الاطلاق.

ورد في القرآن الكريم في شأن هذه المجموعة ما معناه انه لو جعلت الأرض قطعاً قطعاً ووقع التكلم مع الموتى. فان هؤلاء ذوي القلوب الميتة لن يتقبلوا الحق أبداً وكل كرامة ومعجزة تقع أمام هؤلاء الناس يرفضونها لأنه قد وصل النسيان بهم الى درجة بحيث لا تراودهم حالة التذكر أبداً وكالحجر الصلد يبدون مخالفتهم لكل انعطاف او قبول للحق ﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة او اشد قسوة﴾^(١) لذا هم أدنى مرتبة من الجماد أيضاً. كما ان بعض أصحاب القلوب الصافية يرقون ويفوقون مقام الملائكة في ظل معرفة الروح الانسانية والعمل على تهذيبها. هذه هي مراحل الانسانية بحيث تكون من جهة ﴿أشد قسوة﴾ و﴿اسفل سافلين﴾ ومن جهة أخرى تكون ﴿في أحسن تقويم﴾ و﴿عند سدرة المنتهى﴾ * عندها جنّة المأوى^(٢) ويستطيع الانسان ان يطوي مسيرة هذه المراحل كلها. وأصل خلقه الانسان واقعة في الحد الأوسط والسر في هذا المطلب يكمن في انه

(١) سورة البقرة، الآية (٧٤).

(٢) سورة النجم، الآيتين (١٤ و١٥).

لكل موجود حد معين قد جعل له حتى ان الملائكة تعترف بهذه الحقيقة ﴿وما منا الا له مقام معلوم﴾^(١) ، غير ان الانسان لا يمتلك حداً معيناً لا في جانب السقوط ولا في جانب الصعود والنضوج . وانما الطريق لا يزال مفتوحاً على دفتيه من الطرفين . لقد وردت هذه المقطوعة في ختام الرسالة التي كتبها أمير المؤمنين سلام الله عليه لعثمان بن حنيف . «فما خلقت ليشغلني أكل الطيبات كالبهيمة المربوطة همها علفها والمرسلة شغلها تقمها»^(٢) .

وخلاصة الكلام ان الانسان الذي يمكنه ان يصبح قدوة للملائكة ، لا ينبغي له ان يقلد الحيوان واذا لم يتعرف الانسان على نفسه ولم يسع في تكامل ذاته فان مصيره سينتهي به الى ما قاله أمير المؤمنين عليه السلام ، الانسان الذي يمكنه على أساس قاعدة ﴿وأجعلنا للمتقين إماماً﴾^(٣) ، أن يعيش بالطريقة التي يتأسى به المتقون ويقتدى به الملائكة في الصلاة مثل هذا الانسان لا ينبغي له ان يصل به السقوط الى الدرجة التي يكون بها مقتدياً بالبهيمة! وليس قد ورد ان صفوفاً من الملائكة تقتدي بالمصلي الواقعي . وتضمّمه الى نفسها؟ «المؤمن وحده جماعة»^(٤) ، والانسان الذي يكون قدره للملائكة في مقام العلم والتعليم يكون اماماً لهم في مقام العمل أيضاً .

والخلاصة ان القرآن الكريم وان نصب طرقاً كثيرة امام المفكرين في سبيل معرفة الحق ، الا ان أهم تلك الطرق هو الطريق الذي يكون مقروناً بالعمل الصالح وهو طريق القلب ، وقد تضمنت آيات كثيرة لهذه الحقيقة

(١) سورة الصافات، الآية (١٦٤) .

(٢) نهج البلاغة فيض الرسالة ٤٥ .

(٣) سورة الفرقان، الآية (٧٤) .

(٤) وسائل ج ٢ ص ٣٧٩ .

وهي ان مسألة التعرف على الذات وسيلة ناجحة جداً في معرفة المبدأ والمعاد، ويقول تعالى في سورة المائدة ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم﴾^(١) يعني «الزموا أنفسكم». ذلك لأنك اذا تعرفت على ذاتك فستعرف مبدئك ومعادك وتدرک ضرورة الوحي والرسالة. ولهذا السبب قال سالکوا طريق التهذيب: اياکم والغفلة عن المشاركة والمراقبة والمحاسبة. ولهذه الجهة قالوا بوجوب مراعاة الاحتياط الكامل في الأكل والنوم وسائر العوامل التي تساعد على تنمية الجسم. وقالوا أيضاً ليس هناك شيئاً يستحق الاعتزاز والفخر غير العبودية لله تعالى «إلهي كفى بي عزاً ان أكون لك عبداً، وكفى بي فخراً ان تكون لي رباً»^(٢).

على هذا الأساس فقضية شهود النفس او نسيان الروح ليس مجازاً واستعارة وانما هي حقيقة وذلك ان الانسان اذا أحاط بنفسه وشاهدها فانه يرى في باطنه حقيقة «في الأشياء على غير ممازجة» كل موجود في الموجودات يشاهد ذاته ويقدر دائرته الوجودية يشاهد الله سبحانه ويقوم بالتسبيح له ﴿وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾^(٣) اي انهم الى جانب علمه بنفسه يشاهد الله في باطنه ويسبحه هناك. غير ان الانسان ذي بعدين، وذلك انه ينسى «صبغة الله» ويجري وراء الزخارف والمظاهر العابرة. واذا كانت كل الموجودات تسبح للحق فالسبب في ذلك يعود الى انها لم تنس ذاتها اطلاقاً. لكن الانسان هو الذي احد طرفيه ﴿كالحجارة او أشد قسوة﴾ وطرفه الآخر ﴿سدرة المنتهى﴾ هو الذي يستطيع ان يكون قدوة لجميع الملائكة أيضاً ﴿فسجد الملائكة كلهم

(١) سورة المائدة، الآية (١٠٥).

(٢) مفاتيح الجنان، بعد المناجاة الخمسة عشر.

(٣) سورة الاسراء، الآية (٤٤).

أجمعون﴾^(١) والملائكة جمع محل به ال ومؤكد بكل وأجمع فتفيد الشمول لجميع الملائكة فكل من أبعد نقطة وأقرب نقطة من الذات الالهية المقدسة يعدان من المسيرة الانسانية .

الانسان أعجوبة من أعاجيب الدهر لهذا وجه السؤال الى العارف السائح والمتجول بهذه الصورة هل رأيت في أسفارك الطويلة شيئاً يبعث على الاعجاب . فأجاب قائلاً «لم أر أعجب من نفسي» .

على هذا الأساس اذا لم يوجه الشخص اهتمامه الى واقع ذاته فانه سوف ينسى حقيقة ذاته شيئاً فشيئاً ولن يصحو من غفوته السادرة أبداً لأن النسيان المتراكم لا يقبل حالة التذكّر وان كان النسيان البسيط قابل لذلك ، على غرار ان الجهل البسيط قابل للتبديل بالعلم ، والجهل المركب غير قابل للتغيير ، من الممكن ان نقوم بالتذكير لشخص طراً عليه النسيان ولكن ليس من الممكن على الاطلاق ان نذكر شخصاً ونعرفه بالحقيقة بعد ان تضعف عليه النسيان وحسب في مخيلته ان نسيانه واقع موقع الشهود . لذلك لا تحصل حالة التذكر لعدة من الناس على الرغم من التذكيرات المتتابعة لهم . هكذا انسان يكون قد نسى واقع ذاته بصورة كلية تحوّلت نتيجة البحث الى ان المنشأ لنسيان الله سبحانه هو الاشتغال بالواقع الخارج عن حقيقة الذات .

وإن لم يكن هناك شيء خارج عن هيمنة الله سبحانه الا ان مشاهدة الأشياء بدون شهود الحقيقة التي ترافق هذه الأشياء كلها على غير امتزاج «في الأشياء على غير ممازجة» أو مشاهدة الأشياء لا بصفة انها آيات إلهية . . كل ذلك يقف حاجزاً دون وصول الانسان الى أصل الحقيقة لأنه عندما

(١) سورة الحجر، الآية (٣٠) .

يشاهد الأشياء لا يشاهد الله معها، وعندما يشاهد نفسه أيضاً لا يشاهد الله معها يعني في منظاره الشخصي ليس للأشياء جنبه الآيات الأفاقية ولا لحقيقة ذاته جنبه الآيات الانفسية فبالضرورة سوف لا يشاهد أعماق ذاته التي هي عين الارتباط الشهودي بالله تعالى ولن يشاهد ذلك النور الذي يمنح الأشياء استنارة وضياء واشعاعاً ﴿الله نور السموات والأرض﴾.

وإذا كان يقول احد الشعراء اذا نظرت الى البحر رأيت وجهك واذا نظرت الى الصحراء رأيت وجهك فلأنه كان يشاهد الله الذي يكون «مع كل شيء لا بمقارنة» لذلك يكون كل من واقع ذاته، والواقع الخارج عن ذاته عنده على حد سواء اذ ان الله سبحانه حضور وجودي في الداخل والخارج بصورة متساوية، ولا يختص هذا القرب الوجودي والاحاطة العلمية بالانسان وان ورد في شأنه ﴿ونحن أقرب اليه من جبل الوريد﴾^(١) الا انه هو أقرب الى ذلك الموجود من قرب ذلك الموجود الى نفسه لأنه يعتبر العامل الحياتي والقيّم الوجودي له، لذلك هو أقرب اليه بالقياس الى كل الأشياء.

وكما سبقت الاشارة في شرح آية ﴿واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه﴾ الى ان الله «يحول بين كل شيء ونفسه» بناء على ذلك فان الانسان الحكيم والواعي الذي يرى كلا من البحر والصحراء آفاق وآيات إلهية، بنظره الى هذه الموجودات يرى الله تعالى المقارن لها في وجودها بلا ممازجة، ويقول: «ما رأيت شيئاً الا ورأيت الله قبله ومعه وبعده» ومفاد هذه العبارة على حق سواء كانت مسندة أو مرسلة. لكن الشخص الذي لا يشاهد أعماق ذاته، سوف يعجز أيضاً عن مشاهدة الواقع الخارجي، ولا يمكنه ان يشاهد أبداً تلك الحقيقة التي هي «في الأشياء على غير ممازجة».

(١) سورة ق، الآية (١٦).

وقد ورد في حق هذه الفئة ما يلي :

﴿ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك﴾^(١) هؤلاء من الفئة التي أغلقت بصيرتها الداخلية عن مشاهدة الحق بصورة عمدية. ﴿لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾^(٢) اذا فقد أحد الأشخاص بصيرته يمكن له ان يتبين طريقه لأن النظر الظاهري لا يصلح لمشاهدة الحق أساساً. ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار﴾^(٣) ومع انسداد بصره الباطني وسمعه الباطني واستشمامه الباطني أيضاً كيف يمكنه الاهتداء، وهذا الانسداد ينشأ عن توغل الانسان بالطبيعة واستغراقه بالماديات وذلك لأن الانسان يمتلك حواساً داخلية أيضاً فضلاً عن حواسه الخارجية، كما قال نبي الله يعقوب عليه السلام ﴿اني لأجد ريح يوسف لولا ان تفندون﴾^(٤).

على هذا الأساس فانه يترتب على الاشتغال باللذة الجسمانية خسارة غير قابلة للتعويض وليست هناك خسارة أسوأ من خسارة نسيان النفس لأنها تستلزم نسيان القيامة والمبدأ والوحي والرسالة أيضاً غير انه لن يطرأ التبديل المخالف اطلاقاً على فطرة معرفة الله وطلب الله وارادته وان كانت مكتتفة بالنسيان لكن لا يطرأ عليها التبذل ابداً ويعتبر العامل القابل لهذا النسيان هو الانسان والعامل الفاعل له هو الله تعالى الذي قال ﴿فأنساهم انفسهم﴾ وكما سبق بيانه مفصلاً وهذا الانسواء انساء حقيقي لا كنائي او مجازي لأن الاحاطة

(١) سورة البقرة، الآية (١٤٥).

(٢) سورة الحج، الآية (٤٦).

(٣) سورة الأنعام، الآية (١٠٣).

(٤) سورة يوسف، الآية (٩٤).

العلمية لله تعالى تقع فاصلة وتحول بين الانسان وحقيقة ذاته لذلك لا يفسح الله المجال للانسان الذي نسي ربه بان ينصرف الى حقيقة ذاته، لأن الله تعالى ليس منفصلاً عن باطن الانسان حتى يقول إن باستطاعتي ان أنصرف وأتوجه الى باطن نفسي متى ما شئت سواء شاء الله او لم يشاء وذلك لأن باطن الانسان صمد وأجوف غير ممتلئ حتى يكون مانعاً من احاطة الحق به، لهذا السبب فالانسان المنحرف وعلى أثر نسيانه لله تعالى لا يمكنه أيضاً ان يشاهد ذاته ليس من السهولة له تصوّر هذا الطلب بأن الانسان لا يمكنه ان يشاهد واقع ذاته كيف يمكن ان نتصور موجوداً لا يملك اختيار نفسه بيده، وانما اختيارها بيد الموجود الذي هو «في الأشياء على غير ممازجة».

على هذا الأساس لا يبقى شيئاً يملكه الانسان لأن كل ابعاده الوجودية يحيط بها تلك الحقيقة اللامحدودة بدون امتزاج، واذا كان الانسان من أهل الفكر والنظر الصحيح: فلا يشاهد شيئاً الا ويجده محاطاً ومحفوظاً بشهود الحق، كما انه لم يكن على جانب من النظر العميق لا يشاهد شيئاً غير السراب، واذا لم يشاهد الله فانه لم يشاهد شيئاً آخر غير الله أيضاً، لأن كل شيء غير الحق تعالى يعتبر متلاشياً والمتلاشي بمعنى اللاشيء، لأن المتلاشي مشتق من اللاشيء، لا أنه اذا لم يرى الله فانه سوف يشاهد حقيقة أخرى، بالامكان ان يخطر في مخيلته انه يشاهد شيئاً ولكن في واقع الأمر لا يرى شيئاً غير السراب.

نأمل من الله تعالى ان يجعل قلوبنا ظرفاً ملائماً لتلقي معارف القرآن وأحاديث المعصومين عليهم السلام ببركة محمد وآل محمد عليهم أفضل صلوات المصلين، وان يمنّ بالنصر والظفر على الاسلام والقوات الاسلامية ببركة القرآن الكريم وان يشع نور الأمل في قلوب القوات الاسلامية، وان يلقي

الخوف والرعب في قلوب أعداء الاسلام، وان يؤيد ويوفق وينصر القائد العظيم للثورة الاسلامية في ظل عنايات صاحب العصر والزمان - ارواحنا فداه - وأن يحشر أرواح المؤمنين عامة والعلماء وكتاب العلوم الالهية والمعلمين وشهداء الثورة الاسلامية خاصة يحشرهم جميعاً مع أرواح الأنبياء والأولياء، وان يتفضل على ذوي الشهداء بالصبر والأجر وعلى مرضى المسلمين عامة ومعوقى الثورة خاصة بالشفاء العاجل، وان لا يبعد بيننا وبين القرآن والعترة في الدنيا والآخرة وان يجمع قلوب مسلمي العالم على الاتحاد والالفة، وان يردّ كيد المستكبرين الى نحورهم وان يديم ظل الثورة الاسلامية العظيمة لايران حتى الظهور الكامل لطلعة خاتم الأوصياء عليه السلام.

غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

تحليل آية الميثاق

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله وصلى الله على جميع الأنبياء والمرسلين والأئمة الهداة المهديين سيما خاتم الأنبياء وخاتم الأوصياء عليهما آلاف التحية والثناء.

كان حديثنا عن فطرية الدين وخاصة قضية توحيد الله، وكنا قد قسمنا آيات القرآن الكريم التي تبين فطرية الدين الى عدة مجاميع، وأوضحنا طريقة كل مجموعة منها في الدلالة على أن النزوع الى الله والبحث عنه مكنون في دخيلة كل انسان، وكان مفادها جميعاً أن الانسان وبفطرته يعرف الله سبحانه ويتقبل عبادته.

وقد استخلصنا من تلك الآيات أن مصدر الكفر بالله ومعصية أحكامه هو الميل الى الغرائز الحيوانية والانتفاع من لذائذها، ولولا تلك الميول المادية، لكان التوحيد الفطري مزدهراً دائماً ولكان الاندفاع العبادي ظاهراً كما هو حال الملائكة التي ما برحت تعرف الله وتوحده وتعبده. لأن اقتضاء

شهود الحق وعبادته متوفرة لديهم، في حين لا سبيل لموانع فعلية هذا الاقتضاء. من هنا فان علمهم لا يتبدل جهلاً ولا نسياناً ولا غفلة، ولا عملهم يتحوّل ركوداً وتعطياً.

وحين نجد البشر مصابين بالجهل والنسيان على صعيد المعرفة وبالتمرد والعصيان على صعيد العبادة، فليس سبب هذا ان اقتضاء النظرة الشهودية والميل العبادي غير موجود في داخلهم، بل ان الابتلاء بلذائذ الطبيعة يمنع ظهور آثار هذه النظرة.

كلما قلت الميول المادية، ازدهرت المعرفة الفطرية وبرزت العبادة الخفية الباطنية، وكلما زاد استثمار اللذائذ الطبيعية، اختفت واحتجبت تلك الرؤية الفطرية والميول الداخلية. تشير احدى الآيات التي تتضمن قضية التوحيد الفطري، الى ان الانسان قد شهد وحدانية الله في إحدى المواطن، وشاهد ربوبية الله بشكل لا يقبل الغفلة والنسيان، وهذه الآية الكريمة هي ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين * أو تقولوا إنما أشرك آبائنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون﴾^(١).

تعتبر هاتان الآيتان من جملة الآيات الدالة على فطرية الأصول الكلية للدين، ومفاد هذه الآية ان الله عرض على الانسان حقيقة الانسان في موطن ما وفي تلك الحالة التي شاهد فيها الانسان حقيقته، شاهد أيضاً ربوبية الباري تعالى وعبوديته للباري. وقد أخذ الله ميثاقاً من البشر في ذلك الموطن

(١) سورة الأعراف، الآيتين (١٧٢ و١٧٣).

الشهودي وأخذ منهم اعترافاً بأن: ألسنت خالقكم؟ فأجابه الجميع: بلى أنت ربنا.

في ذلك الموطن العلمي، قبل جميع البشر بربوبية الله، فكان الله آخذ الميثاق وكان الانسان معطيه، والشاهد على هذا الميثاق هو الانسان نفسه ﴿وأشهدهم على أنفسهم﴾ جعل الله الانسان شاهداً على نفس الانسان، وقال له أنظر فانك تعترف بربوبية الله وأنظر فانك تعطي ميثاقاً لله على عبادتك إياه. أي أن مشاهدة حقيقة النفس، هو شهود الارتباط الوجودي وهو عين الاطلاع على الشيء المرتبط بالله سبحانه في جميع ذاته.

عليه، فحين رأى الانسان حقيقة نفسه في ذلك الموطن وجد أن حقيقته إنما هي عبودية الله، ومن الواضح ان مشاهدة حقيقة العبد غير ممكنة من دون مشاهدة ربوبية الله. لأن الانسان اذا كان عبداً فليس له حقيقة الآ الربط بالله والفقر والحاجة اليه. اذا كانت حقيقة الانسان في وجوده الخارجي مرتبطة بالله، فان الذي يشاهد هذه الحقيقة بالعلم الحضورى، أي الذي يكون ذلك الوجود الخارجي مشهوداً له سيرى الله بعين فؤاده قطعاً. لأن هذه الحقيقة مرتبطة ومتعلقة بالله. واذا كانت متعلقة ومرتبطة بالله، فان رؤية هذه الحقيقة والاعتراف بعبوديتها لله، شيء واحد. لأنه لا ذات لباطن الانسان سوى الربط الى الله، وحقيقة الله هي القيومية على الانسان.

إذن، فالانسان أعطى ميثاقاً في ذلك الموطن على ربوبية الله وعبوديته وكان الشاهد على أخذ الميثاق هو الانسان نفسه، أما السبب في أخذ الله لهذا الميثاق من الانسان وإشهاد انسانيته على هذا الميثاق، فتشرحه الآية الثانية، يقول عز وجل في الآية الثانية أننا أخذنا منكم هذا الميثاق لكيلا تقولوا يوم القيامة حين تسألون عن كفركم، اننا كنا غافلين او أن آبائنا كانوا كفرة وقد

ورثنا عنهم كفرهم وإلحادهم .

ان الفائدة المهمة لهذا العهد والميثاق هي ؛ أنه لو لم يأخذ الله ميثاقاً من أحد ولم يعرفهم بحقيقتهم ، وكفروا في الدنيا ، فسيقولون يوم القيامة عند الاحتجاج ؛ إلهي لقد غفلنا عن ربوبيتك وعبوديتنا ، وقد حال الإحساس بعالم الطبيعة والابتعاد عن الغيب ، دون أن نشاهد ذاتك ونعلم بربوبيتك وعبوديتنا أو اذا كان الله قد أخذ الميثاق من جماعة معينة ولم يأخذه من الباقين ، فسيقول الذين لم يعاهدوا الله ؛ يا إلهي إننا لم نعطك ميثاقاً ولم نشاهد حقيقتك ولم نعلم بعبوديتنا وكان آباؤنا وسلفنا مشركين وقد ورثنا عنهم شركهم ، فلا ذنب لنا .

فمن أجل أن لا يترك الله لأحد حجة ، أطلع الجميع على حقيقتهم لكيلا يعتذر أحد بالغفلة أو الشرك الموروث . لهذا قال أننا أشهدنا حقيقة الانسان على نفسه في احدى المواطن ، وقد شاهد الانسان في ذلك المواطن ربوبية الله بعين قلبه ، وقبل بعبوديته وأعطى ميثاقاً عليها .

وعلى هذا الأساس ، فاذا حلّ العذاب بالانسان ، فانه انما سيأتي بعد اتمام الحجة عليه ، وقد قال تعالى ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة﴾^(١) وإذا كان هلاك الملحدين بعد اتمام الحجة والدليل عليهم فلن يستطيع أحد أن يقول ﴿أفتهلكنا بما فعل المبطلون﴾ لأن كل ملحد هو مبطل ولا يهلك الا بفعل بطلانه وليس سبب هلاكه بطلان غيره .

والنتيجة هي : أن الله أحضر جميع البشر في ذلك الموضع فأسلم كلهم لربوبية الله وعبوديتهم وأعطوا ميثاقاً على ذلك وكانوا أنفسهم الشهود على

(١) سورة الأنفال، الآية (٤٢) .

هذا الميثاق . حتى هنا ذكرنا مجملًا لظاهر الآية . أما تفاصيل البحث كالسؤال عن مكان أخذ الميثاق ففي أي مكان أسلم الانسان لربوبية الله وعبوديته، فهي معركة الآراء وقد طرحت نظريات مختلفة من قبل المتقدمين والمتأخرين حول هذا الموضوع .

يقول البعض أن أرواح البشر وقبل ان تتعلق بأجسامهم، تعلقت بذرات صغيرة وبسبب هذا التعلق استطاعت هذه الذرات أن تدرك وتعي، فأخذ الله منها الميثاق .

ويرى آخرون أن التعبير المذكور في الآية إنما هو تمثيل، فكأن الله قد أخذ ميثاقاً من البشر، أما ساحة الميثاق وأخذ العهد وإعطاء الميثاق فهذه أمور لم تحصل واقعاً .

ويعتقد البعض : أن مراد الآية ذكر واقعة خارجية وليس مجرد تمثيل وذلك أن الله أخذ عهداً من البشر على لسان الأنبياء، وموطن الوحي والرسالة هو نفسه موطن أخذ الميثاق . كما انه قد جاء في بعض الآيات أن يا بني آدم أننا قد أخذنا منكم ميثاقاً، أي أخذ منكم وبواسطة الوحي والرسالة عهداً أن لا تعبدوا الشيطان .

يقول المرحوم الأستاذ العلامة الطباطبائي (رض) أن ليس مراد الآية أيًا من هذه المعاني المذكورة، بل المراد أن الجانب الملكوتي من الانسان هو موطن الميثاق ومحل الشهود والأشهاد .

رأي الجماعة الأولى هو : أن هذه الآية ترمي الى «عالم الذر»، فالله تعالى وقبل أن يخلق البشر استخرج ذرات صغيرة من صلب آدم تمثل الأجيال الانسانية واحدة تلو الأخرى الى يوم القيامة، ثم جعلها تتعلق

بالأرواح فتعلقت كل روح باحدى تلك الذرات التي خرجت من صلب آدم ﷺ فصارت تلك الذرات حية وأخذ الله منها الميثاق .

ان هذا المعنى وكما أشار المحققون من أهل التفسير، يخالف ظاهر الآية الكريمة، فضلاً عن مخالفته للأدلة العقلية والنقلية . فالآية تقول أن الله أخرج من ظهور بني آدم ذريتهم وليس من ظهر آدم فلم يقل تعالى «وإذ أخذ ربك من آدم من ظهره ذريته» بل قال ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم﴾ إذن فالله أخرج ذرية الناس من أصلابهم ولم يخرج ذرات صغيرة من صلب آدم . من هنا فهذا المعنى لا يوافق ظاهر الآية الكريمة، كما أنه لا يوافق الأدلة العقلية والنقلية . فلو كانت أرواح البشر وقبل أن تتحد بأبدانهم قد اتحدت بذرات مادية صغيرة وأخذت هذه الأرواح مهمة الولاية على تلك الذرات بصفتها الأرواح المدبرة ثم فارقت الذرات واتحدت بهذه الأبدان وصارت النفوس المدبرة لها، فان هذا يستلزم التناسخ .

ليس التناسخ مجرد أن تتحد الروح بجسم انسان كامل أو حيوان كامل ثم تتحد بجسم انسان أو حيوان آخر، بل متى ما اتحدت الروح بوجود مادي وكانت له بمنزلة نفسه وكان لها بمنزلة جسدها وشكلاً بمجموعهما وحدة حقيقية، فاذا فارقت هذه الروح الجسم الأول واتحدت بجسم مادي آخر بحيث تكون له بمثابة المدبر وتشكل معه وحدة حقيقية، فان هذا تناسخ أيضاً، أي التناسخ بمعناه الجامع لأنواعه المختلفة، سواء التناسخ النزولي أو التناسخ الصعودي .

والخلاصة هي أن هذا المعنى لعالم الذر يؤدي الى القول بالتناسخ، ولهذا رد المرحوم الشيخ الطوسي على هذا المعنى في التبيان واعتبر مقتضيات التحقيق مخالفة له، أما المرحوم أمين الاسلام الطبرسي فقد كرر

في مجمع البيان ما ذكره المرحوم الشيخ الطوسي في التبيان تحت نظام خاص وقال ان المحققين رفضوا هذا المعنى . وقد رده أيضاً سيدنا الأستاذ العلامة الطباطبائي (رض).

أما النظرية الثانية القائلة أن الآية تعني التمثيل ، فيجب قبل الدخول فيها أن نتناول قضية التمثيل وفرقه عن التخيل إذ يعبر الزمخشري في الكشف بـ«التخيل والتمثيل» أي أن محتوى الآية ذو طابع تمثيلي وتخيلي . طبعاً يجب الالتفات الى أن التخيل والمحاكاة الخيالية الموجودة في الشعر لا سبيل لها الى حريم القرآن . من هنا ورد انتقاد على عبارة الزمخشري في الكشف حين قال بأن الآية تخيل .

أما ان كان القصد هو التمثيل وليس التخيل الشعري ، فان عدد مثل هذه التمثيلات في القرآن الكريم ليس قليلاً وقد وافق بعض العلماء على هذا التفسير وهو أن مفاد الآية تمثيل يشبه ما جاء في سورة الحشر ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون﴾^(١) .

فليس القرآن هنا ينزل على الجبل بشكل واقعي وخارج حدود التمثيل بل المراد هو تجسيم المعنى العقلي على صورة حسية بحيث أنه لو أراد القرآن أن ينزل على جبل لما استطاع الجبل أن يتحمل المعارف القرآنية، وهذا مثل يضرب على عظمة القرآن، أراد البعض أن يقول أن آية سورة الأعراف ليست أكثر من مثل، فالله لم يأخذ بشكل واقعي اعترافاً وعهداً من ذرية بني آدم، بل القصد هو: كأنَّ الله قد أخذ منهم ميثاقاً، لأن ربوبية الله

(١) سورة الحشر، الآية (٢١).

وعبودية الانسان واضحة الى درجة كأن الناس قد أعطت الله ميثاقاً عليها . وهذا يشبه ما ورد في سورة فصلت من أن ﴿فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين﴾^(١) فظاهر هذه الآية هو أن الله كلم السماوات والأرض وقال لهما ائتيا سواء شئتما ام أبيتما فقلتا ﴿أتينا طائعين﴾ مع أن السماوات والأرض لم تتكلم .

ان الذين يحملون آية سورة الأعراف على التمثيل يشبهونها بآية سورة فصلت التي لا تتضمن في الحقيقة كلاماً لفظياً فلم يقل الله تعالى ولم تجيبا ﴿أتينا طائعين﴾ بل ان هذا ليس أكثر من تمثيل ولأن السماوات والأرض تتبع الأوامر الالهية فكأن الله قد قال لهما أطيعا وأجابا أننا طائعون .

وفي الصحيفة السجادية جاء هذا المعنى «فهي بمشيئتك دون أمرك مؤتمرة»^(٢) أي أن الأشياء والعينات الخارجية مؤتمرة لمجرد إرادتك وليس من الضروري أن تأمرها «وبكراحتك دون نهيك منزجرة»^(٣) أي أنها تمتنع عن الأعمال بمجرد كراحتك لتلك الأعمال .

وعلى كل حال فأفعال وعدم أفعال الأشياء تحصل بمحض ارادتك وكراحتك ، بدون أن يكون هناك أمر أو نهى لفظي ، ولكن جاء التعبير عن هذا المعنى على شكل قول وصيغة الأمر الحاضر ، وهو في الحقيقة ليس أكثر من تمثيل يروي المحقق الداماد هذا المعنى في شرح أصول الكافي عن بعض كبار أهل التفسير ينقل وجه التفسير هذا وكأنه يوافق عليه ويرضى به ، فهو لا يرده لسان النقل لسان تأييد وقبول وقد شرح هذا المعنى أيضاً

(١) سورة فصلت ، الآية (١١) .

(٢) الصحيفة السجادية ، الدعاء السابع .

(٣) الصحيفة السجادية ، الدعاء السابع .

المرحوم السيد شرف الدين العاملي (رض) في رسالة يشرح فيها هذه الآية المباركة اسمها «فلسفة الميثاق والولاية» ويقول في هذه الرسالة الشريفة أن توحيد الله وولاية أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام هما الميثاق المعني في موطن العهد والميثاق.

والتول الآخر في القضية هو أن الله تعالى قد أخذ ميثاق الناس بلسان العقل والوحي، بمعنى أن الله أخذ من الناس عهداً بالمعارف الدينية طبقاً لادراكهم العقلي وهو حجة الله الباطنية المطابقة لمحتوى الوحي الذي هو حجة الله الظاهرية، ويقول الله تعالى يوم القيامة أنني أبين ربوبيتي وعبوديتك (أيها الانسان) بحجتين. فلا تستطيعون يومئذ أن تقولوا أننا كنا غافلين عن التوحيد وباقي المعارف الدينية أو أننا ورثة لشرك آبائنا. لأن العقل من داخلكم والأنبياء عليهم السلام من الخارج يثبتان ربوبية الله وعبوديتكم، بحيث كان نصاب المقتضي تاماً عليكم كما كان كل نوع من الموانع مرتفعاً من البين.

يرفض المرحوم الأستاذ العلامة الطباطبائي (رض) كل هذه الوجوه، فهو يقول أن ظاهر الآية ﴿وإذ أخذ﴾ أي «إذكر» إذكر ذلك الموطن الذي أخذ الله فيه ميثاق بني آدم، مما يدل على وجود موطن آخر سابق لهذا الموطن الظاهري المحسوس، وفي ذلك الموطن قدم الجميع ميثاقاً بأن الله هو الرب وأنهم عباده وظاهر العبارة «إذ أخذ» هو أن حادثة أخذ الميثاق سابقة لهذه النشأة (الدنيا) كما إن ظاهر الآية هو التحقق والواقع وليس التمثيل، مع انه من الممكن حملها على التمثيل، ولكن لا يمكن حمل الآية على مجرد امكانها العقلي، بل لا بد من دليل لفظي أو قرينة عقلية تشهد لهذا الحمل بالصحة، وليس مجرد امكان التمثيل دليلاً يستلزم حمل الآية عليه. صحيح أن مضمون بعض الآيات جاء على شكل تمثيل ولكن ليس في هذا ما يثبت، أن

الآية المنظورة تمثيل أيضاً.

ولا يمكن للسان الوحي والرسالة أن يكون مراد الآية لأن عالم الطبيعة والدنيا هو نفسه العالم الذي تضمن الوحي والعقل وليس مقدماً عليهما، والحال أن مفاد الآية أن حادثة أخذ الميثاق والعهد سابقة على العالم الحالي، لهذا كان عليك (أيها النبي) أن تتذكرها. لو كان قصد الآية هو لسان الوحي لأمرت الرسول ﷺ كباقي الأحكام والدرساتير بأن يبلغ لا أن يتذكر.

والخلاصة هي أن ظاهر ﴿إذ أخذ ربك﴾ يفيد الأمر بالتذكر لحادثة سابقة، ويدل على أن زمان أخذ الميثاق سابق لزمان الطبيعة والحس. ولو كان مراد الآية هو لسان الوحي لاستوجب ذلك أن يكون السابق عين اللاحق!!

بعد أن اتضح لدينا أن المراد من موطن أخذ العهد ليس الدليل العقلي أو رسالة الوحي، يقول المرحوم العلامة الطباطبائي أن للانسان موطين وجوديين أو جانبيين وهذين الموطين أو الجانبيين ليسا متباينين بل هما متحدان رغم أنهما ليسا واحداً، أي أنهما ليسا شيئاً واحداً ولكنهما مع بعضهما والموطنان هما موطن الملكوت وموطن الملك وموطن الملكوت متقدم على موطن الملك وليس تقدمه تقدماً زمنياً لأن الملكوت خارج نطاق الزمان. ان الانسان وفي موطن ملكوته يشاهد الله بصفته رباً ويشاهد حقيقة نفسه بصفتها عبداً. ومضمون الآية المعنية هو تذكر موطن الملكوت ذاك وذكر الجميع بنشأتهم الملكوتية. ولأن نشأة الملكوت خالية من الحجب فالحقيقة فيها مكشوفة وواضحة سواء ربوبية الله أو عبودية الانسان، ولأنها متقدمة وجودياً على نشأة وموطن الملك، اذن فهي سابقة عليها أيضاً.

يمكن من عدة آيات انتزاع هذا المعنى وهو أن للانسان جانبين، ملكوتي وملكي وأن الجانب الملكوتي متقدم على الجانب الملكي. فمثلاً يقول تعالى في سورة الحجر ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾^(١) أي لا يوجد شيء إلا وله خزائن كثيرة وكل هذه الخزائن بيد الله .

إن الفرق بين الوجود المادي للأشياء والوجود المجرد لها والموجود في الخزائن الالهية، هو (وطبقاً لما جاء في سورة النحل) أن ما عند الناس يفنى وما عند الله مصون من التحول والزوال ﴿وما عندكم ينفد وما عند الله باق﴾^(٢) إذن فما عندنا هو القدر القابل للتغير وما عند الله هو القضاء والثابت، ولأنه باق فهو منزّه عن السيلان والحركة والتغير والزوال ولا تدرج هناك أيضاً.

كما انه لا يوجد لكل حقيقة في ذلك الموطن أكثر من مصداق، مع ان كل الفيض الالهي المنبسط ليس أكثر من وحدة حقيقية ﴿وما أمرنا إلاّ واحداً﴾^(٣) فليس هناك تعدد ولا تحول ولا حجاب ولا ما شاكل ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾^(٤) . إذن فالجانب الملكوتي من الانسان ثابت لا سيّال وواحد لا كثير. مفاد مجموع الآيات المذكورة هو أن للانسان وجه ملكوتي ووجه ملكي، ففي الوجه الملكوتي يرى ربوبية الله وعبوديته، وذلك الموطن متقدم على الموطن الملكي والدينيوي للانسان، ولأن هذين

(١) سورة الحجر، الآية (٢١).

(٢) سورة النحل، الآية (٩٦).

(٣) سورة القمر، الآية (٥٠).

(٤) سورة يس، الآية (٨٢).

المواطنين متحدان وغير منفصلين عن بعضهما فان لسان الوحي يقول: تذكر ذلك الموطن وحين تذكرون ذلك الموطن فانكم تحافظون على هذا الموطن أيضاً. هذه زبدة البيانات المفصلة والواسعة للأستاذ العلامة الطباطبائي (رض).

- إن هذا الرأي العميق ومع انه يتضمن الكثير من الدقائق القرآنية ويحل الكثير من القضايا الأخرى، ولكنه موضع تأمل من عدة جهات.

- أولاً: صحيح أن للانسان وجهان أو جانبان، ولكن وكما يظهر من اطلاق الأدلة وعمومها ان ذلك لا تخص الانسان فقط، بل إن لكل موجود وجهان، لأن كل تلك الأدلة المذكورة تشمل غير الانسان أيضاً. فاذا كانت آية سورة الحجر تقول: ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه﴾ فهي تعني الانسان وغير الانسان. وان كانت آية سورة القمر ﴿وما أمرنا الا واحدة﴾ فهي تشمل كل ما يصدق عليه الأمر الالهي. واذا كانت آية سورة يس ﴿إنما أمره اذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾ فهي تستوعب الجنبية الأمرية للانسان وغير الانسان، لأن لكل موجود جنبية أمرية وثابتة وليس ثم شيء لا يملك جنبية أمرية وملكوية، لأن كل موجود ممكن مرتبط بواجب الوجود. وملكوت أي شيء عبارة عن ارتباطه بالله تعالى.

ولكن من الآيات محل البحث يستفاد أن للانسان خصوصية أعطى بموجبها ميثاقاً لله بعبادته والقبول بربوبيته. واذا كانت الآيات المذكورة تفيد أن للانسان جانباً ملكوتياً، لا يمكن الاستنتاج أن الآيات المعنية ترمي الى ذلك الجانب الملكوتي، كما رد هو (العلامة الطباطبائي) الرأي القائل بالتمثيل، مع ان التمثيل ممكن وقد وردت عدة تعابير على هذا النمط ولكن هذه التعابير لا تدل على أن الآيات المنظورة يجب أن تحمل على التمثيل. بالاضافة

الى ان هذا المطلب لا يخص الانسان فقط . كل الأشياء وبطابعها الملكوتي تشهد بربوبية الله عليها وبخضوعها وتسبيحها وعبوديتها لله ، لأن الكل بلحاظ موطنهم الملكوتي مسبحون للحق . ووفقاً للآية : ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾^(١) فإن الكل يشاهد ومن جنبته الملكوتية عجزه وخضوعه وقدرة الله وربوبيته الكاملة . ولهذا فلن يعود ثمّ امتياز للانسان . والحال أن ظاهر الآية كما ذكرنا يبين خصوصية للانسان .

ثانياً: مفاد الآية أن الله أخذ عهداً من أولاد آدم وجعلهم شهداء على الميثاق الذي أعطوه لكيلا تكون لهم حجة يوم القيامة ويقولوا الله اننا كنا غافلين عن وحدانيتك وكنا ورثة لشرك آبائنا، أي أن الهدف من أخذ الميثاق هو اتمام الحجة عليهم وسلبها منهم في القيامة . يتضح من هذا أن أخذ الميثاق إنما هو حجة إلهية بالغة فحين لا توجد في كل القرآن حسب ما في ذهني القاصر ، آية تدل على أن موطن الملكوت هو موطن أخذ الميثاق ، وأن أخذ الميثاق هذا هو حجة إلهية بالغة .

في كل آيات القرآن الكريم ، حين يحتج الله سبحانه سواء في الدنيا أو في الآخرة ، يقول اننا بعثنا الأنبياء لكيلا تكون للناس على الله حجة وأننا وهبناكم العقل لكيلا تكون لكم علينا حجة . في سورة النساء وبعد أن يذكر الباري أسماء الكثير من الأنبياء ﷺ ويبين دور الرسالة العامة بهذه العبارة ﴿رسلاً مبشرين ومنذرين﴾^(٢) ، بعد هذا ، يشرح هدف النبوة العامة بهذه العبارة ﴿لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾^(٣) . فلا يقولوا كنا

(١) سورة الاسراء ، الآية (٤٤) .

(٢) سورة النساء ، الآية (١٦٥) .

(٣) سورة النساء ، الآية (١٦٥) .

غافلين .

ويقول في سورة طه : اننا بعثنا الأنبياء لثلاثا تقول الناس ﴿لولا أرسلت
إلينا رسولا فلتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى﴾^(١) أو يقول ﴿وما كنا
معذبين حتى نبعث رسولا﴾^(٢) وفي يوم القيامة يسأل خزنة الجحيم أهلها
﴿ألم يأتكم رسل منكم﴾^(٣) و﴿ألم يأتكم نذير﴾^(٤) .

والخلاصة هي أن الله أتم حجته في الدنيا وفي الآخرة بالوحي والرسالة
ولا يوجد في أي موضع من القرآن باستثناء الآية المنظورة، أن الملائكة يوم
القيامة ستخاطب أهل الجحيم، أو لم تتعهدوا بربوبية الله بواسطة الجنة
الملكوية فيكم؟ أو لم تشاهدوا عبوديتكم في الجنة الأمرية من أنفسكم؟
هنالك احتجاجات متنوعة في القرآن الكريم حول اتمام الحجة على
الملحدين واتباع النحل الباطلة ولا يوجد في أي منها كلام عن أن الله سبحانه
جعل الموطن الملكوية للانسان شاهد صدق على التوحيد وما شاكل .

ثالثاً: إن موطن الملكوت هو نفسه موطن الشهود وعلاقة الملكوت
بالمملك كعلاقة الایجاد بالوجود، لذا هما متحدان، أي أن الشيء الواحد من
حيث علاقته بالله تسمى هذه العلاقة بالله ملكوتاً، ومن حيث أنها موقفه
الوجودي تسمى ملكاً والفرق بين هاتين الجهتين هو أن موطن الملكوت
موطن الشهود والحضور واليقظة والتذكر والعبودية، ولا محل فيه لحجب
النوم والغفلة والجهل والنسيان والعصيان والفساد. أما موطن الملك وهو

(١) سورة طه، الآية (١٣٤) .

(٢) سورة الاسراء، الآية (١٥) .

(٣) سورة الانعام، الآية (١٣٠) .

(٤) سورة الملك، الآية (٨) .

نشأة الدنيا، فهو دار الحجب والغرور والنوم والغفلة والجهل والنسيان والعصيان وسائر النواقص .

إذن، فثمة فرق كبير بين هذين المواطنين . فكيف يمكن لموطن الشهود والحضور المصون عن الغفلة والنسيان والجهل أن يكون موطن أخذ الميثاق وإتمام الحجة لموطن الغرور والغفلة . فكما انه لا يمكن اعتبار شهود ووعي زمان اليقظة ميثاقاً وحجة تامة لزمان النوم، كذلك لا يمكن جعل وعي موطن الملكوت دليلاً وبرهاناً على موطن الملك والدنيا . أي لا يمكن أن نقول للانسان اليقظ إنك ما دمت الآن يقظاً وتعرف وترى الأشياء حولك فعليك اذا أخذك النوم أن ترتب على كل واحد من هذه الأشياء أثره وأن لا تخطيء ولا تنسى شيئاً . فخصوصية عالم الطبيعة بالنسبة لأكثر الناس العاديين أنهم ينامون فيه نوم الغفلة «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا»^(١) وعلى كل حال فلأن هذين المواطنين يختلفان عن بعضهما في القوانين العامة، إذن لا يمكن لوعي موطن الملكوت أن يكون حجة على موطن الملك .

رابعاً: اذا كان موطن أخذ الميثاق وموطن الشهود والاشهاد هو نشأة الملكوت، فبما أن جميع الموجودات خاضعة لله من حيث الملكوت، إذن فليس هنالك موجود كافر أو منافق في تلك النشأة، لأنها عين الربط الى الله، ولا يمكن للكفر أو النفاق النفوذ الى ذلك الموطن . والحال أنه ومن الروايات الواردة في ذيل هذه الآية يتضح أن البعض من الناس ورغم قولهم (نعم) في موطن أخذ الميثاق، ولكنهم كانوا في الباطن كفرة، وكانوا يكتفون كفرهم عن نفاق، في حين أن ذلك الموطن ليس موطن الكفر والنفاق والحجب . فكيف لنا أن نعتبر موطن أخذ الميثاق هو موطن

(١) مائة كلمة للملاحظ .

الملكوت ثم نقول أن البعض قالوا (نعم) ازاء العهد الالهي ﴿ألست بربكم﴾ على الظاهر والباطن والبعض قالوا (نعم) على الظاهر وقالوا (لا) على الباطن . أفيمكن للكفر والنفاق ان ينفذ الى موطن الملكوت؟ .

خامساً: إن مبنى التفسير قائم على حفظ الظهور اللفظي، بحيث لا تحمل أية عبارة على ما يخالف ظاهرها بغير القرينة، وهذا ما جاء في آراء المرحوم الأستاذ العلامة . فمن أجل حفظ ظاهر كلمة ﴿إذ أخذ﴾ جعل العلامة نشأة أخذ الميثاق سابقة على النشأة المادية الحالية . ولكن حفظ الظاهر لا يخص كلمة «إذ» بل يجب أن نحفظ ظواهر كل الألفاظ المعنية، والحال أن ظاهر نهاية الآية الأولى وظاهر الآية الثانية أن الهدف من الاشهاد والشهود وأخذ الميثاق على ربوبية الله وعبودية الناس هو أن لا يقول البشر يوم القيامة اننا غفلنا عن التوحيد أو ان آباءنا كانوا مشركين . وظاهر هذه النهاية أنها حصلت في موطن واحد مع تلك البداية (بداية الآية) أي في الموطن الذي أخذ الله فيه الميثاق ﴿ألست بربكم﴾ فأجابوا «بلى» في ذلك الموطن قال الله انني فعلت هذا من أجل أن لا تقولوا يوم القيامة ﴿إننا كنا عن هذا غافلين﴾ * أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا﴾ ومقتضى حفظ ظهور الصدر والذيل أن يكون لذلك الموطن صلاحية احتواء نهاية وبداية هاتين الآيتين في حين أن موطن الملكوت موطن الوحدة وليس الكثرة وموطن التجرد والثبات وليس المادية والتدرج وما شابه وعليه فلن تكون هناك أبوة وبنوة بين الأشخاص كما انه لا أبوة ولا بنوة بين الأشخاص يوم القيامة بالرغم من أن لكل انسان يومئذ جسم وبدن، فالأبوة والبنوة خاصة بالدنيا .

إذن بما أن الأبوة والبنوة غير موجودة في موطن الملكوت فلا يمكن القول في ذلك الموطن ﴿ألست بربكم﴾ بحيث يكون الهدف من أخذ هذا

العهد هو أن لا تقولوا أن آباءنا كانوا مشركين ، فلا سبيل لهذه العناوين
الوضعية والاعتبارية الى ذلك الموطن ، كما انه في يوم القيامة حيث ﴿فإذا
هم من الأجداث الى ربهم ينسلون﴾^(١) أو ﴿إن الأولين والآخرين *
لمجموعون الى ميقات يوم معلوم﴾^(٢) ، لا توجد قضايا التوالد والتوليد .
وإذا قيل أن هذه العبارة تعني عالم الدنيا وليس موطن أخذ العهد . أي أن الله
يخاطبهم في الدنيا وفي نشأة الملك بأنني أخذت منكم ميثاقاً في الموطن
السابق بأن لا تقولوا يوم القيامة أن آباءنا كانوا ملحدين ، فالجواب هو :

أولاً: لا يتذكر الملحدون والكافرون أن الله قد أخذ منهم ميثاقاً في
موطن الملكوت وبهذا فلن تكون الحجة تامة .

وثانياً: ظاهر الآية يدل على أن ذكر الهدف وأخذ الميثاق قد حصلنا في
موطن واحد والتفكيك بين الصدر والذيل تكلف بعيد لا ينسجم مع حفظ
ظواهر الألفاظ ووحدة السياق لأن يكون خلاصة معنى الآية هو أننا أخذنا
منكم ميثاقاً في موطن الملكوت لكيلا تقولوا يوم القيامة أننا كنا في الدنيا
ورثة لشرك آباءنا .

والنتيجة هي أنه طبقاً للأمور المذكورة وأمور أخرى أيضاً يمكن الا
يلتفت اليها ، لا يمكن اعتبار موطن الملكوت عند البشر هو موطن أخذ
الميثاق ، مع ان الروايات تصحح وجود مثل هذا الموطن ولكن هل هو نفسه
الملكوت أولاً؟ هنا محل نقاش والعمدة انه قد جاء في الروايات أن الناس
شاهدت الحق . والسؤال هو أنهم إذا شاهدوا الحق فكيف ستروا الكفر
والنفاق في داخلهم؟

(١) سورة يس ، الآية (٥١) .

(٢) سورة الواقعة ، الآيتين (٤٩ و٥٠) .

وبالطبع فان البحث الروائي على حدة . فنفس تلك الروايات يجب أن تجمع مع بعضها . فقد جاء في بعضها أن البشر شاهدوا ساحة أخذ الميثاق مع الله ولكنهم نسوا ذلك الموقف ولم يبقَ لديهم سوى أصل ذلك الميثاق «ثبتت المعرفة ونسوا الموقف»^(١) . ويجب أن ندرس هذا الأمر وهو أنه كيف ينسجم شهود الحق مع الكفر والنفاق، مع ان مقتضى التسليم تام وموانعه قد ارتفعت خلافاً لنشأة الدنيا التي من الممكن أن لا يقبل فيها الحق رغم اتضاحه بواسطة البرهان والاستدلال كقوله تعالى ﴿وجحدوا واستيقنتها أنفسهم﴾^(٢) لكن موطن الملكوت والذي أسلفنا مزاياه مصون من الحجب والعصيان والنسيان والغرور والجهل وما شابه . من هنا يجب أن نتناول بحث الروايات بشكل مستقل لأهميته البالغة ثم نستنتج النتيجة المستمدة من الثقلين؛ القرآن والعترة .

البحث الحالي خاص بالآية المباركة ، ولا نستطيع أن نبرر وجود الكفر والنفاق في موطن الملكوت بدون تحقيق . وإن كان هناك من يرى الله يوم القيامة رغم كفره فلأن الكفر والنفاق كان ملكة بالنسبة لهم في الدنيا، وقد دخلوا الآخرة على حالهم هذه وشاهدوا الله هناك، ولكن الآخرة ليست محلاً للإيمان والعمل الصالح .

وليس الأمر أن الانسان غير ذي السابقة بإمكانه أن يشاهد الحق ويشاهد عبوديته ثم لا يؤمن .

والخلاصة هي أن كفر الكافرين ونفاق المنافقين يحدث في الدنيا

(١) تفسير الميزان، ج ٨، ص ٣٤٠ .

(٢) سورة النمل، الآية (١٤) .

ويبقى معهم على شكل ملكة لا تقبل الزوال ولا تدعهم في الآخرة فهم يقولون في ذلك العالم ﴿ربنا أبصرنا وسمعنا﴾^(١) أي فهمنا أن عقيدتنا باطلة ولكن طريق الايمان مغلق مع ان طريق الشهود مفتوح، فنشأة العمل قد انتهت وبدأت نشأة الجزاء والقيامة دار الجزاء فقط وليست دار العمل والايمان والتكليف، أما في موطن الملكوت حيث لا يملك الانسان شيئاً من نفسه فليس هنالك كفر ونفاق وحجاب، بل ليس هنالك إلا الشهود. كيف يمكن للكفر والنفاق أن يحصل هناك وكيف يمكن سترهما؟! .

إذن فاذا لم نحمل الآية المعنية على التمثيل كما ذهب الى ذلك عدد من الأعظم، يجب أن تحمل على موطن العقل والرسالة وهو موطن مقدم على التكليف أي أن رسالة الوحي وهي حجة الله الخارجية وكذلك برهان العقل وهو حجة الله الباطنية يمهدان الأرضية مسبقاً، ثم يأتي التكليف الإلهي .

في البداية يأتي الأنبياء ويهيئون مقدمات التسليم، وبعد ذلك يأتي التكليف . كما ان العقل يقيم البرهان أولاً، ثم يثبت التكليف والقبول .

وكما ان تقدم الملكوت على الملك لم يكن بالضرورة سبقاً زمنياً، فالتقدم هنا ليس بالضرورة تقدماً زمنياً، وعلى كل حال ف«الحجة قبل الخلق»^(٢) والعقل قبل التكليف . والوحي والرسالة قبل التكليف . التكليف يخص العاقل ويأتي بعد تنزيل الوحي . وثمة تقدم للعقل والوحي على الايمان أو الكفر .

(١) سورة السجدة، الآية (١٢) .

(٢) أصول الكافي، كتاب الحجة، باب ٤ .

إن هذا المعنى لن يواجه أياً من تلك الاشكالات الخمسة، فهو:
أولاً: يخص الانسان ولا يشمل غير الانسان لأن رسالة الوحي وكذلك
العقل المصحح للتكليف، يخصان الانسان.

وثانياً: نشأة التفكير العقلي وإرسال الرسل ﷺ هي نفسها نشأة
الحس الظاهري فالانسان يفكر في نفس هذه النشأة رغم أن العقل ليس
موجوداً محسوساً ومادياً.

وفي نفس هذا الموطن ينزل الوحي مع ان الوحي ليس أمراً مادياً
ومحسوساً وهذه النشأة نشأة الايمان والكفر والنفاق.

وثالثاً: ان هذا الرأي ينسجم مع كل تلك الآيات القائلة أننا وهبنا
الانسان العقل وأرسلنا الوحي لهدايته لكيلا تكون له حجة يوم القيامة. ففي
نهاية الآية المعنية يقول عز وجل أننا أخذنا الميثاق لثلاث تكون لكم حجة.
وبقية الآيات تقول أيضاً أننا بعثنا الوحي لكيلا تكون لكم على الله حجة.
وخزنة جهنم تقول ﴿ألم يأتكم رسل منكم﴾ و﴿ألم يأتكم نذير﴾ وما شاكل.

ورابعاً: ان هذا الموطن هو موطن الغفلة والغرور وما شابه...
ويمكن منه الاحتجاج على حوادثه. لا أن يعطوا في موطن الشهود واليقظة
ميثاقاً لموطن النوم والغفلة. بل ان الميثاق أخذ من الانسان في هذا الموطن
بألا يزال في نفس الموطن. أي أنه حصل العهد والاتفاق مع الانسان في هذا
الموطن بواسطة البرهان العقلي ودليل الوحي بالأ ينحرف. وينسجم مع
الآيات الأخرى كذلك.

وليس في هذا المعنى اقحام على ظاهر الآية لأن هناك نوع من التقدم

للعقل والوحي ازاء مرحلة التكليف . وبهذا يحفظ لكلمة «إذ» ظاهرها كما ان ظاهر الآية الذي يخص الانسان فقط ينسجم مع نشأة العقل والرسالة الخاصين بالانسان فقط كما ذكرنا . وكذلك فان نشأة الدنيا هي موطن التفكير والتعقل ورسالة الأنبياء وهي موطن الغفلة والكفر والنفاق وما شابه . . وهي أيضاً موطن الأبوة والبنوة والوراثة وأمثالهم . إذن فهذا الرأي موافق لذيل الآية كما انه منسجم مع صدرها .

وعلى كل حال فالاشكالات المذكورة الواردة بشكل واسع على رأي الأستاذ المرحوم الطباطبائي غير واردة على هذا الرأي . كل أو أكثر هذه البحوث طرحت على الأستاذ العلامة الطباطبائي (رض) في محضر درسه . والظاهر أنه لم يكن يعتبر هذه الانتقادات واردة وكان يذهب الى ذلك المعنى الوارد في تفسيره الشريف . ولكنه كان متحرراً من عالم الملك وواصل إلى عالم الملكوت أو ما هو أسمى ، وكان الحق قد اتضح له ، فكل ما توصل اليه حق ، ونحن الذين ما زلنا في ضيق عالم الطبيعة .

أرجو وببركة الأولياء الالهيين أن تتضح المعارف القرآنية لنا جميعاً . وأن تكون نفسه القدسية المحشورة في ذاك العالم مع الأنبياء والأولياء الالهيين ، قناة فيض لكل سالكي درب التحقيق والشهود . أقسم على الله بحق محمد وآل محمد عليهم السلام أن يجعل قلوبنا جميعاً أوعية للمعارف الالهية وكلام المعصومين عليهم السلام ، وأن يحشر أرواح المؤمنين عامة وأرواح العلماء ومؤلفي العلوم الالهية وشهداء الثورة الاسلامية خاصة ، مع أرواح الأنبياء والأولياء الالهيين . وأن يعجل في شفاء مرضى المسلمين ، وأن لا يفصل بيننا وبين القرآن والعترة في

الدنيا والآخرة وأن يستجيب هذه الأدعية بحق كل المؤمنين . ويختم أمور
الجميع بخير وسعادة .

غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

دور التقوى في شهود الحقائق

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله وصلى الله على جميع الأنبياء والمرسلين والأئمة الهداة المهديين سيما خاتم الأنبياء وخاتم الأوصياء .

اتضح في البحث السابق ان التقوى تطلع الانسان على حقائق العالم عن طريق العلم الحضوري كما يطلعه الفكر عليها عن طريق العلم الحصولي ، وان الجمع بين هذين الطريقتين ليس فقط ممكناً بل ومفيداً أيضاً؛ فلو ان سالك طريق الفكر التزم التقوى فان نتائج علمه الحصولي ستكون أفضل وأعمق ، وكذا سالك التقوى لو كان على معرفة بالبراهين فان مشهودات علمه الحضوري ستكون أتم وأوضح .

أما لو لم يتيسر الجمع بينهما ودار الأمر بين اختيار احدهما او بتعبير آخر بين العلم الحصولي والعلم الحضوري فان الأولى هو الثاني اي اختيار العلم الشهودي وسلوك طريق التقوى وتهذيب النفس لأن طي هذا المسير

ممکن دائماً لكل أحد، كما ان نتائج وآثار هذا الطريق اكثر منها في طريق الفكر والعلم الحسولي .

فكما ان الفكر من وجهة نظر القرآن لا يخلو من انه اما ان يكون صحيحا او خاطئاً، وانه ان كان صحيحا اعطى نتائج صحيحة وكان أساساً لتلقي المعارف الالهية، وان لم يكن صحيحا رافقته نتائج باطلة وغير صحيحة وكان سبباً في الحرمان من المعارف الحققة، فكذلك العمل . فهو اما ان يكون صحيحا وصالحا فهو تقوى الله سبحانه واما ان يكون باطلاً وصالحاً فهو الطغيان والضلال، واذا عمل الانسان بالتقوى وكان متقياً فانه يشاهد المعارف الدينية بلا حجاب، كما ان الانسان الذي لا تقوى له هو في حجاب بشكل مستمر ولا يرى اسرار العالم مطلقاً، بل لو أروه جميع الآيات الالهية لما شاهد شيئاً منها اما الانسان المتقي فقد ازال للحجب الظلمانية والنورانية، حتى انه يرى كل أسرار العالم في حد الامكان .

اذا طوى الانسان طريق التقوى وتهذيب النفس فانه - وكما أشرنا في البحث السابق - يرى أسرار العالم، ويعبر الصراط المستقيم بسهولة أيضاً، ولن يكون في طريقه قاطع او مانع، وقد بين الله سبحانه تأثير طهارة الروح وثمره التقوى في قوله: ﴿ان تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً﴾^(١) أي اذا كنتم متقين فان الله يجعلكم قادرين على التفريق بين الحق والباطل، ويقول أيضاً: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً﴾^(٢)، أي ان صاحب التقوى لن يبقى في ضيق أبداً، بل يخرج في النهاية من جميع الصعوبات - علمية كانت أو غيرها - وأما الذي لا تقوى له فلن يميز بين الحق والباطل ولا يمكنه ان يسلك

(١) سورة الأنفال، الآية (٢٩).

(٢) سورة الطلاق، الآية (٢).

الطريق الصحيح وسبواجهه هذان الخطران: الجهل والجمود. فلا هو يعلم ولا هو يتقدم؛ اذ ان هاتين النعمتين (التمييز والحركة) هما من نصيب الانسان المتقي الذي يفهم الحق، كما يسلك الطريق الصحيح.

ويبين الله تعالى خطر عدم التقوى في سورة مريم في قوله: ﴿فخلف من بعدهم خلف اضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا﴾^(١) أي خلف سيدنا ابراهيم عليه السلام ومن تربوا على يديه، جماعة أضاعوا الصلاة، التي هي «قربان كل تقي» وبها يتقرب العبد الى الله تعالى واتبعوا الشهوات مما أبعدهم عن الله تعالى بشكل قهري.

فالمتقربون الى الله في ظل الأعمال العبادية يقرب الله منهم لطفه ورحمته الخاصة، اذ يقول: ﴿فإني قريب﴾^(٢). اما أولئك الذين لا يتقون فهم بعيدون عن الرحمة الخاصة للحق تعالى؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿أولئك ينادون من مكان بعيد﴾^(٣). فالتقوى العبادية توجب تقرب المتقي الى الله. وبما ان الله حق محض، فالتقرب اليه أساس شهود الحق والعصمة من الباطل؛ ولذلك فالمقربون مصونون عن الاشتباه وتناسب مراتبهم بلحاظ الشدة والضعف مع مراتب القرب. اما تارك التقوى فهو بعيد عن الحق، ولما كان بعيداً عن الحق، فهو لا يملك معياراً لتمييز الحق عن الباطل، فلا يرى الحق ويسير في التيه والضلال، ولذا قال: ﴿أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً﴾. اي ان نتيجة اضاعة الصلاة واتباع الشهوات هي مشاهدتهم الغواية والحيرة والضلالة والتي هي تجسم لأعمالهم.

(١) سورة مريم، الآية (٥٩).

(٢) سورة البقرة، الآية (١٨٦).

(٣) سورة فصلت، الآية (٤٤).

والغواية غير الضلالة. السالك والمسافر يحتاج الى معرفة الطريق، وكذلك الى العلم بالهدف الذي يسير اليه، اي لا بد له من تحديد هدفه ومعرفة الطريق الموصلة اليه، فان عرف الطريق فقد اهتدى، اما اذا بلغ الهدف بعد ان عرفه فقد أفلح، كما قال تعالى ﴿قد أفلح المؤمنون﴾. فمن أضاع الطريق فهو ضال ومن كان بلا هدف فهو غاوٍ.

فالضلالة هي اضاعه الطريق، اما الغواية فهي اللاهذية وبالطبع فان كل غاوٍ سيكون ضالاً أيضاً، لأن الطريق فرع عن الهدف، واذا لم يكن ثمة هدف فلن يكون هناك طريق أيضاً. فالذين ساروا بلا هدى سيرون في النهاية أنهم لا يصلون الى الهدف ﴿فسوف يلقون غياً﴾ اي انهم في النهاية سيتعذبون لاكتشافهم عدم وجود المقصد، وعدم وجود طريق العودة أيضاً، لأن رأسمال السعي نحو أي هدف وذخيرة اي سلوك هو العمر الذي قد بددوه.

ولا يخلو تعبير مشاهدة الغواية من الكناية، لأن الغواية أمر عديم وغير قابل للرؤية والمشاهدة، والذي يصحح هذا الاستعمال هو ما تعارف من تعلق الشيء المعدوم - في بعض الأحيان - بحكم وجودي، فيقال مثلاً: رأيت انه لم يكن موجوداً أو شاهدت انه غير موجود، في حين ان عدم الوجود وعدم الكون ليسا قابلين للرؤية او المشاهدة. والتعبير الحقيقي والذي لا عناية فيه عن ذلك هو الاستعمال القرآني في قوله تعالى في سورة النور: ﴿حتى اذا جاءه لم يجده شيئاً﴾ أي عندما وصل الى نهاية الطريق لم يجد شيئاً، لا انه وجد لا شيء.

والخلاصة ان الانسان الفاسق لا هدف له ولا طريق، والانسان المتقي

له هدف وطريق معينان، لأنه يتبع النبي ﷺ الذي قال عنه تعالى ﴿والنجم اذا هوى * ما ضل صاحبكم وما غوى﴾ فهو لديه هدف ويعرف الطريق؛ وبالتالي فان سالكي طريق ذلك النبي العظيم - أيضاً - مصونون عن الضلالة ومحفوظون عن الغواية. فالتقوى، اذن، توصل الانسان السالك الى الهدف، وترك التقوى يصيب الانسان الضال بالغواية.

فكما ان التدبر والتفكر الصحيح - سواء كان في آيات الآفاق او في آيات الأنفس - يوصل الانسان الى مقصوده في ضوء العلم الحسولي، فكذلك العمل الصالح يوصل الانسان الى هدفه في ظل العلم الحضورى. وكما ان التفكير الخاطيء يمنع صاحبه عن الاطلاع الحسولي بالحق تعالى، ولا يمكن لأي مفكر ليست مقدماته دليله او صورة استدلاله صحيحة ان يصل الى مقصوده، فكذلك: العمل اذا كان صالحاً وخاطئاً فانه مانع عن رفع الحجاب، ولا يمكن للانسان الفاسد ان يصل الى الهدف مطلقاً.

والقرآن الكريم، كما يعتبر الطريق الفكري طريقاً للوصول الى المقصد فكذلك يعتبر الطريق العملي، فهو يقول في شأن المراحل العلمية انه سيجعل الرأفة والرحمة في قلوب الذين ساروا خطوات خلف الأنبياء ﷺ، فيما يجعل قلوب الذين ذهبوا في الطريق المنحرف قاسية فالتصرف بالقلب بيد مقلب القلوب.

فاذا كان لدى الانسان عمل صالح جعل الله في قلبه الرأفة والرحمة، اما لو كان عمله صالحاً فانه يجعل قلبه ثقيلاً وقاسياً. وهذه طرق عملية وليست فكرية، فالرأفة والرحمة من الملكات الفاضلة.

يقول تعالى عن متبعي النبي عيسى ﷺ: ﴿وجعلنا في قلوب الذين

اتبعوه رافة ورحمة ﴿١﴾ .

فلئن كان بعضهم يرحم البعض الآخر كأتباع الرسول الأكرم ﷺ :
﴿رحماء بينهم﴾ فتلك بركة إلهية، فهو الذي يقبّل القلوب ويجعل قلوب
سالكي طريق الوحي والرسالة رؤوفة رحيمة، لأن هذه القلوب كالقافلة
المتحركة خلف القائد المتبع الرسول والمسيح سلام الله عليهما .

ولكن قال تعالى عن اليهود: ﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا
قلوبهم قاسية﴾^(١) .

فالائم والفسق يصيران سبباً لأن يجعل الله القلب قاسياً، كما ان العمل
الصالح يصبح وسيلة لتليين القلب من قبل الله تعالى، والقلب الرؤوف يتقبل
النصح خلافاً للقلب القاسي فلا يتعظ ولا ترافقه أية بركة . فلا تترشح عنه
العلوم المفيدة، ولا تنفذ فيه النصائح المؤثرة؛ فهو كالصخرة القاسية التي لا
ينبع منها الماء الصافي ولا تخرقها بذور الزراع، فاذا كان الماء ينبع من قلب
الأرض فانما هو ينبع من الأرض الطرية والسهلة، وكذا حين تغوص مياه
الأمطار الى قلب الأرض فهي انما تخرق الأرض الطرية .

فاذا صدرت بركة من القلب فهي انما تصدر من القلب الرحيم
الرؤوف، واذا أثرت فيه نصيحة فهي انما تؤثر في القلب الرؤوف الرحيم،
واذا أغلق القلب فلن يصل منه خير الى أحد ولا يعود عليه من الغير نفع،
ولهذا قال القرآن عن تلك القلوب ﴿فهي كالحجارة أو أشد قسوة﴾^(٢) إذ
﴿وان منها لما يهبط من خشية الله﴾ أو ﴿لما يشقق فيخرج منه الماء﴾ . اي ان

(١) سورة المائدة، الآية (١٣) .

(٢) سورة البقرة، الآية (٧٤) .

بعض الحجارة تنبع منها المياه وتعود بالبركات على الناس، لكن بعض القلوب لا بركة فيها على أحد اطلاقاً، ولذا فان أمثال هذه القلوب أشد قسوة من الحجارة، فبعض الحجارة قابلة للنفوذ اما بعض القلوب فغير قابل، ولهذا قال تعالى ﴿سواء عليهم أنذرتهم ام لم تنذرهم لا يؤمنون﴾ .

والسر في ان القلب يصير بحيث لا ينبع منه خير ولا تخترقه نصيحة هو ان القلب لو سار فترة بشكل عشوائي وربى في نفسه النوايا السيئة فسوف يشمله الغضب الالهي ويجعله الله سبحانه قاسياً، كما انه اذا سلك الطريق الصحيح مدة وربى في نفسه الاخلاص ونوايا الخير فستشمله الرحمة الالهية، ويظهر الله الرحيم في ذلك القلب، ويصير صاحبه مظهراً للرحمة الالهية، ومنشأ ظهور رحمة الحق هو استقامة الانسان السالك ولهذا يقول تعالى في سورة الحديد ﴿وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة﴾ .

فيتضح أن أتباع النبي ﷺ والقيام بالعمل الصالح يشكل أرضية لأن يجعل الله تعالى القلب من خلالها رؤوفاً ورحيماً، كما ان نقض العهد وعدم اتباع النبي ﷺ يشكل الأرضية التي يجعل الله تعالى ذلك القلب بسببها متحجراً ويغلق بابه، واذا أغلق على قلب احد فلن يرى الطريق؛ وعلى فرض رؤيته لن يقطعه، على عكس ما تقدم في موضوع التقوى، وهو ان الانسان التقي يرى الطريق كما يطويه بسهولة أيضاً، فقد قال تعالى: ﴿ان تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً﴾ وقال أيضاً ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً﴾ .

فالانسان المتقي يفرق بين الحق والباطل، وهذه فضيلة علمية، كما انه لا يتلى باعاقه مضيق بل يعبر طريق الجنة بسهولة، وهذه موهبة عملية . اما عديم التقوى فلا هو يفهم ولا هو يخطو، كالصخرة الصلبة التي تقف في وسط النهر لا تشرب الماء ولا تسير معه، لا كالماء المتدفق يموج كي يروي

العطاشى في طريقه ؛ ولهذا فهو يتحرك من مكان الى آخر .

وفي حديث مروي عن رسول الله ﷺ انه قال : «لولا ان الشياطين يحومون حول قلب ابن آدم لنظر الى الملكوت»^(١) أي لولا الوسواس ، ولولا وصول التخيلات الشيطانية الساذجة الى أطراف القلب لرأى الانسان روح وباطن العالم . أي لولا الخواطر الباطلة والأعمال الفاسدة لتعرف الانسان على أسرار العالم ، ولكنه لا يرى روح العالم لغرقه في دوامة الوسوسة وابتلائه بالأوهام .

يقول القرآن الكريم ان من لم يكن نزيهاً فانه يعيش في محور الوهم والخداع لا في محور الحق والحقيقة : ﴿ان الكافرون إلا في غرور﴾^(٢) أي ان الكفار يقضون حياتهم في وهم وخداع ، فيتخيلون شيئاً انه الواقع ، ثم يتخبطون في خيالاتهم التي صنعوها بأنفسهم ، فهم لا يرون ما هو حق وما يرونه بأبصارهم الحولاء لا واقعية له .

وبناء على هذا ، فالكفار في محور السراب والوهم ولا علاقة لهم بالحقيقة ولذلك وردت الآية بصيغة الحصر «ان هم الا في غرور» .

لقد لخص القرآن الكريم الدنيا في خمس مراحل واعتبرها بأجمعها خداعاً وغروراً - كما تقدم في الفصول السابقة ؛ فهو يقول في سورة الحديد : ﴿اعلموا انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة ونفاخر بينكم في الأموال والأولاد﴾^(٣) و خلاصة هذه الأدوار الخمسة هي :

(١) غوالي اللثالي ح ٤ ص ١١٣ .

(٢) سورة الملك ، الآية (٢٠) .

(٣) سورة الحديد ، الآية (٢٠) .

ان الانسان من حيث بدنه وقوته المادية اما طفل أو مراهق وأما شاب أو كهل أو شيخ قد بلغ الكبر . وهو في دور الطفولة أسير اللعب، وفي فترة المراهقة أسير اللهو، وفي مرحلة الشباب أسير الزينة وفي عهد الكهولة أسير التفاخر، حتى اذا بلغ مرحلة الشيخوخة وتقادم العمر ابتلى بحب التكاثر .

فلا يزال الانسان يزين نفسه بدنياً ما وسعه ذلك ويتلهى بأنواع الزينة، حتى اذا وصل مرحلة «لن يصلح العطاء ما أفسد الدهر» وفقد القدرة على التفاخر وعلى التزين صار همه التكاثر والتفاخر بما لديه من مال وولد .

فالمراحل المهمة التي يمر بها الانسان منذ الطفولة وحتى الشيخوخة خمسة، وجميعها مصحوبة بالخداع والحيل المتنوعة، والعاقل من لا يخدع نفسه في هذه الأدوار الخمسة، والسفيه من لا يتجاوز حالة المكر والخداع فيها ففي الطفولة ليس لديه سوى اللعب، فاذا صار مراهقاً ابتلى باللهو حتى اذا بلغ مرحلة الشباب ابتلى بالتزين، فان تقدم اكثر في العمر صار يتفاخر بالمنصب والمقام . . اما في فترة الشيخوخة فهمه التكاثر .

فبدلاً من التحرك في صراط الكوثر يطمع بسراب التكاثر، وبدلاً من ان ينال ذلك الخير الكثير يقع في شرك التكاثر .

وعليه وبما ان كل المراحل الدنيوية خداع في خداع لهذا يقول القرآن الكريم: ﴿ان الكافرون الا في غرور﴾ .

والمقصود من الدنيا - كما بيناه في البحوث السابقة - هو هذه الأدوار الخمسة وأشباهها؛ والا فليست الدنيا بمعنى السماء والأرض، البحار واليابسة، وأمثالها لأن هذه آيات إلهية، والقرآن الكريم يذكر هذه الموجودات الكونية بالتعظيم ويدعو الانسان الى التدبر فيها كي يتعرفوا من

خلالها على خالقها، يقول تعالى ﴿أحسن كل شيء خلقه﴾^(١).

اذن، ليس المراد من الدنيا الغرارة والمذمومة موجودات الكون كالسما والارض والبحار والصحاري، بل المراد منها هو ذلك الجانب الاعتباري والجعلي. وعلى أساس هذا التحليل فليست حياة الناس واحدة لأن بعضهم يعيش في محور الدنيا فقط، أي يمضي أيامه في الغرور والخذاع. وبعضهم ليس في الدنيا أصلاً، فهو لا يكثر بالوهم والخذاع أبداً. وبعضهم تارة في الدنيا وتارة في الآخرة أي انه وان كان يتلى بخذاع الدنيا وأوهامها أحياناً، الا انه يحاول التخلص منها، وكما يقول تعالى ﴿خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً﴾^(٢).

وينبغي التأمل في قول أمير المؤمنين علي عليه السلام حيث يقول: «يا دنيا غري غري.. . قد طلقتك ثلاثاً»^(٣) فما الذي طلقه الامام؟ هل طلق السماء والارض؟ ام طلق الأكل والشرب؟ ام ابتعد عن البحث والتدريس؟ ام تخلى عن الجهاد ومقاتلة الطواغيت؟.

من المؤكد ان الامام لم يترك أيأ من هذه الأمور وأمثالها. بل ان الامام تخلى عن تلك الاعتبارات التي لا وجود لها الا في دائرة الوهم والخيال.

وبناء على ما تقدم، فالمراد من الدنيا هو ما بيناه. أي تلك العناوين والاعتبارات كالمال والجاه المركز الاجتماعي واقبال الناس وادبارهم وامثالها والا فليس من الممكن ان تكون الموجودات الخارجية أموراً اعتبارية وأساساً للغرور، اذ الموجودات الخارجية كالارض مثلاً والتي تشهد

(١) سورة السجدة، الآية (٧).

(٢) سورة التوبة، الآية (١٠٢).

(٣) نهج البلاغة/ الحكمة ٧٤.

كل أفعال الناس اليوم وتحديث بها غداً ﴿يومئذٍ تحدث أخبارها﴾^(١) .

اذن، فليس الوجود التكويني للأرض غروراً أو خداعاً، وان الذي يكون أساساً للخداع هو ذلك العنوان الاعتباري المتعلق بالأرض وأمثاله من أن هذه الأرض لزيد او عمرو، وهذا الكرسي والمقام لبكر او خالد .

فتنظيم امثال هذه الامور الاعتبارية هو من أجل تأمين المقاصد النهائية فقط، ولا ينبغي ابدأ أن تكون الوسيلة مانعة عن بلوغ الهدف وبناء على هذا فان ما طلقه الامام عليه السلام وما تركه سائر الأئمة المعصومون، وذهب الى ذلك السائرون على طريق تعلم الزهد منهم . . هو ذلك الوجه الاعتباري لعالم الطبيعة لا الجانب التكويني له .

فليس أصل الأكل من أجل الاستمرار في الحياة، من الدنيا المذمومة، لكن اكل الحرام او الاسراف في الأكل وتجاوز الحد اللازم، وتلبية الأهواء الساذجة للنفس وأمثالها هي الدنيا التي ينبغي تركها، والا فقيام البدن بوظائفه الطبيعية يعتبر جزءاً من قوانين النظام الأحسن، ولذلك يقول الله سبحانه ﴿وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام﴾^(٢) أي أننا لم نخلق الأنبياء بحيث لا يأكلون الطعام .

والآن، وبعد ان اتضح مرادنا من الدنيا وجانبها المذموم يمكننا ان نقول ان الامام أمير المؤمنين عليه السلام لم يكن في الدنيا (في الأساس) بل كان يعيش في الآخرة، كما ان الكافر ليس في الآخرة بل هو منغمس دائماً في الدنيا .

(١) سورة الزلزلة، الآية (٤) .

(٢) سورة الأنبياء، الآية (٨) .

من المسلم طبعاً ان اولئك الذين يوفقون أحياناً للعمل الصالح ويتلون
أحياناً أخرى بأعمال طالحة ﴿خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً﴾^(١) يغوصون
تارة في الدنيا ويسرون بوقار تارة أخرى في الآخرة .

فما قاله الامام أمير المؤمنين عليه السلام : «لكل واحد من الدنيا والآخرة
بنون فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا»^(٢) ناظر الى هذا
الأصل . اي اسعوا لتهيئة ما يكون خيراً حقيقياً وغير قابل للزوال واتركوا
الشيء الفاني الذي هو من جعل الوهم .

إذا ابتلي احد بمجغولات الوهم عبر عنه القرآن الكريم بالمختال
والمختال هو الذي يعيش في حدود الخيال الخفيفة لا في دائرة العقل المتزنة
و﴿ان الله لا يحب كل مختال فخور﴾^(٣) .

ومن كان يمضي أيامه بالمكر والخداع فهو مختال في نفسه وفخور
بالنسبة للآخرين . وبما ان لكل أمر باطل ما يقابله من حق وصدق، وبما ان
يوم القيامة هو يوم ظهور الحق، لذلك فسوف تتضح - في الآخرة - بطلان كل
الأمر الجعلية، ويفنى اختيال المختالين وتفاجر المتفاجرين .

اما الطريق الذي يسلكه أصحاب القلوب، فلأنه حق وصدق، فسيظهر
يوم القيامة ويقوم البرهان على ديمومته .

وخلاصة البحث ان نتيجة سلوك طريق التزكية مشاهدة أسرار عالم
الوجود الى حد ما، فيتضح الطريق كما يتضح الهدف من الخلقة ويتيسر

(١) سورة التوبة، الآية (١٠٢) .

(٢) خطبة / ٤٣ .

(٣) سورة لقمان، الآية (١٨) .

سلوك الطريق ونيل ذلك الهدف أيضا. اما الجزاء المر للمفسد فهو الحرمان من أسرار الوجود، فلا هو يعلم الطريق الأصيل ولا الهدف الأصيل ولا يسهل عليه سلوك ذلك الطريق والوصول الى الهدف .

فليس المقصود من قوله: ﴿لو تعلمون علم اليقين * لترون الجحيم﴾^(١) اي نوع من العلم الحسولي، بل مراده العلم الشهودي الذي يكون من نصيب المتقين عن طريق تهذيب النفس. والوعد الالهي ان اذا اطلعتم على العلم الواقعي للسالكين فسترون جهنم اليوم وأنتم تعيشون في هذه الدنيا، مثل حارثة بن زيد وبعض تلامذة الأئمة المعصومين عليهم السلام الذين كانوا يرون علامات القيامة .

وبعد الموت ورفع كل الحجب سترونها اكثر وضوحاً ﴿ثم لترونها عين اليقين﴾ لأن جهنم والجنة موجودان الآن، وأهل المعنى يرون الجنة وأهلها ويرون جهنم وأهلها أيضاً .

ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دخل الجنة أيضاً في معراجهِ ورآها عن قرب كما نظر الى جهنم أيضاً .

ان علم اليقين هذا الذي هو أساس شهود الآخرة ليس علماً حصولياً وفكرياً محضاً بل هو حتماً ممتزج بالعمل الصالح ولا ينفصل عن تهذيب الروح، فذاك الطريق العملي الذي نهايته اليقين، وذاك اليقين المستمد من السير والسلوك باعثنان على مشاهدة ملكوت العالم، والذي من مصاديقه البارزة احداث القيامة والجنة وجهنم أيضاً . ولذا قال تعالى ﴿واعبد ربك حتى يأتيك

(١) سورة التكاثر، الآيتين (٦و٥) .

اليقين ﴿^(١)﴾ وحصول اليقين فائدة العبادة لا غايتها اذ ليس المقصود انه اذا وصلت الى اليقين فاترك العبادة، نظير قوله تعالى ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر﴾ ﴿^(٢)﴾ لأن اليقين نتيجة العبادة وتابع لها في أصل وجوده وعدمه وحدوثه وبقائه. واذا تركت العبادة تبدل اليقين بالجهل.

اذن، فالمقصود ان إحدى منافع وفوائد عبادة الله تعالى اليقين بمعارفه كما يقولون: اصعد السلم حتى تصل يدك الى السقف، فليس غرضهم ان اذا صعدت درجات السلم ووصلت يدك الى السقف فاترك السلم؛ لأن الوصول الى السقف تابع للصعود على السلم والاعتماد عليه في جميع الشؤون اي انه تابع له في اصل الوجود والعدم وتابع له في الحدوث، والبقاء، فاذا ترك السلم لحظة فان السقوط قطعي.

اذن فليس معنى الآية المذكورة ان آخر العبادة وحدها النهائي حصول اليقين، بحيث لا تكون العبادة لازمة اذا حصل اليقين، بل المقصود كما تبين من مثال السلم والوصول الى السقف ان ثمرة اليقين المستمد من العمل الصالح هي ان السالك المتيقن يرى جهنم والجنة ويطلع على خفايا الناس باذن الله تعالى، وهذا طريق العمل لا طريق الفكر، لأن الأفكار الذهنية لا تمنح اطلاعاً للانسان لكي يرى الغيب كالشهادة ويرى الجنة جهنم كما يرى مشهوداته، وان كانت موجبة للجزم المنطقي ومهيئة لأرضية الايمان.

واذا كان القرآن الكريم يعتبر مشاهدة أسرار الغيب كالجنة والنار من آثار اليقين فانه يعتبر أيضاً ان الطريق لتحصيل اليقين هو عبادة الله تعالى،

(١) سورة الحجر، الآية (٩٩).

(٢) سورة البقرة، الآية (١٨٧).

والعبادات البدنية وان كانت لا تخلو من التأثير في حصول اليقين ولكن العبادات الروحية هي الأساس، اي مراقبة الخواطر والابتعاد عن الهواجس النفسانية والدسائس الشيطانية والأنس بالخطرات الملكية والاستيحاء من الخواطر الربانية، والا فصورة العبادة وهيكل الصلاة والصيام والحج والزكاة وغيرها لا توجد ذلك الشهود الرفيع .

ان القرآن الكريم فضلاً عن انه يحث على العبادة البدنية ويدعو لها فهو يولي أهمية خاصة للعبادة الروحية، وينبه على الجهات المتعددة للعبادات الروحية، كما يذكر شعباً متنوعاً للعبادات البدنية، ويعرفنا على طريق تغلغل الخواطر المضرة ويذكر لنا كيفية التحفظ منها أيضاً كقوله تعالى ﴿وان الشياطين ليوحون الي أوليائهم﴾^(١) وقوله: ﴿ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون﴾^(٢) .

وبناء على ذلك، فسلك طريق العمل الصالح وتهذيب الروح هو الذي يجعل الانسان شاهداً يرى أسرار العالم، ومن لا يملك عملاً صالحاً لا يرى أسرار الوجود ويبقى في وهم دائم .

وينقسم الناس من جهة امكان النظر الى أسرار عالم الوجود وعدمه الى عدة أقسام، فأما ان يعيش الانسان كل عمره في سراب الوهم كالكافرين ﴿ان الكافرون الا في غرور﴾ لأن هذه الطائفة لا تعرف الا الاختيال والغرور ولذلك فهم محصورون فيهما، واما ان يمضي جميع عمره في العقل والشهود ولا يصاب أصلاً بالاختيال او بالغرور او التفاخر كالامام علي عليه السلام الذي قال: «طلقتك ثلاثاً لا رجعة لي فيك أبداً» وبقية

(١) سورة الأنعام، الآية (١٢١).

(٢) سورة الأعراف، الآية (٢٠١).

المعصومين عليهم السلام ، واما أن يمضي بعض عمره في نور العقل والشهود ويفني البعض الآخر في سراب الوهم والدنيا، كالمتموسطين من أهل الايمان الذين نزلت في حقهم ﴿خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً﴾ .

وبناء على هذا، فمن لا ينحرف عن الطريق المستقيم ولا يسير في ضلال، فانه سيرى الحقيقة، واذ اختار طريق الفساد فانه سيحرم من مشاهدة الحقيقة. قال تعالى ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾^(١) .

اذ تبين لنا فوائد العمل الصالح ومضار العمل الطالح، وان الأولى تهىء الأرضية لمشاهدة أسرار الوجود، والأخرى تنسج خيوط الحجاب. وكما ان نتيجة الفكر السيء خاطئة ونتيجة الفكر الجيد صحيحة، فللعمل الجيد والعمل السيء أيضاً نتيجة حقة او باطلة؛ ولذلك قال الله في حق المفسدين ﴿فسوف يلقون غياً﴾ اي أنهم سيلقون الغواية ولا يصلون الهدف.

وقال أيضاً في حق المستكبرين ﴿سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق﴾ اي ان الذين يواجهون ما اتى به الأنبياء عليهم السلام بالتكبر سنصرفهم عن تذوق المعارف، لذلك يصيرون محرومين عن ادراك الحقائق، ولا يكون لهم اي انتباه الى الآيات الالهية، ولا يتفكرون ابداً في الآيات الحقة التي تملأ اقطار السماوات والأرض، كما انهم لا يتوجهون الى أنفسهم عن طريق معرفة النفس التي ليست الا علامة للحق تعالى. وقد ورد في حقهم قوله تعالى ﴿وكأين من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون﴾^(٢) .

(١) سورة المطففين، الآية (١٤).

(٢) سورة يوسف، الآية (١٠٥).

ان جميع انحاء الخليقة آيات الالهية ولا وجود لشيء ليس آية للحق تعالى . فكل موجود وفي كل شؤونه وظروفه وحالاته آية الالهية . اذن ، فالعالم مليء ومشحون بالآيات الالهية - سواء كانت آيات آفاقية أو آيات أنفسية ، لكن المتكبر العنيد غارق في الآيات الالهية دون ان يرى منها شيئاً .

لقد بين القرآن الكريم بشكل مفصل المواضع المتنوعة للآيات الالهية ، فيقول احياناً ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين ﴾ * وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ فان الآيات الالهية ليست منحصرة في موضوع او مكان واحد محدد بحيث لا يراها الكفار ، فما من موجود في عالم الامكان الا وهو آية للحق تعالى حتى الليل المظلم . قال تعالى : ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة ﴾ .

والعجيب ان الكافر غارق في بحر الآيات الالهية دون ان يستفيد منها ، وقد نوّه القرآن الكريم الى حجاب الاستكبار وحرمان المستكبرين ، كما نوه الى صفاء المتقين وتنعمهم بمشاهدة أسرار العالم ؛ فقد جاء في حق المستكبرين المعاندين قوله تعالى : ﴿ سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق ﴾ . وجاء في حق المتقين قوله ﴿ ان تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ﴾ ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ . وكل هذه المزايا نتاج تهذيب الروح ، والا فليس التفكير المجرد والافكار الحصولية سبباً لمشاهدة عالم الغيب .

وعليه ، فان كان القلب يقسو كقلوب اليهود فمن أثر العمل الطالح والمعصية كنفق الميثاق والتمرد على نبي الله تعالى ؛ يقول تعالى ﴿ فيما نفضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية ﴾ واذا صار القلب رحيماً

كقلوب اتباع عيسى المسيح ﷺ فهو بسبب العمل الصالح واتباع المسيح ﷺ، يقول تعالى: ﴿وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة﴾.

وكذا اذا استطاع القلب ان يفرق بين الحق والباطل فهذا من أثر التقوى والعمل الصحيح. يقول تعالى: ﴿ان تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً﴾ واذا حرم القلب من ادراك الآيات الالهية فهذا من أثر العمل الطالح والفساد، اي ان لأعمال البشر تأثيراً بالغاً في المراحل العلمية والكشف والشهود او الاحتجاب والحرمان من المعرفة، كما ان لها تأثيراً في المسائل الاخلاقية والأوصاف النفسانية كقساوة القلب او رأفته.

وبناء على هذا فالترقي أو التدني في الجوانب الادراكية للانسان مرهون بالعمل الصالح والطالح، كما ان ارتقائه او سقوطه في الجوانب الاخلاقية أيضاً مرهون بالسلوك الحسن او القبيح، ولذا فان أهم شيء في برنامج الأنبياء هو التزكية الى جانب التعليم. يقول تعالى: ﴿ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم﴾^(١).

وقد بين القرآن الكريم طريق التزكية جيداً؛ ففي سورة التوبة - مثلاً - يأمر الرسول بأخذ الزكاة كي يطهرهم بها ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾^(٢) فيصير عدم دفع الزكاة ومنع حق بيت المال بصورة أوساخ وادران يتوسخ بها صاحب المال المتمكن. فهو كماء الغسيل الذي يكون وسخاً وملوثاً قبل التطهير وازالة الدرن عن القماش، لكنه بعد العصر وخروج ماء الغسالة يصبح القماش نظيفاً، وهكذا المكلف يتطهر بمجرد

(١) سورة البقرة، الآية (١٢٩).

(٢) سورة التوبة، الآية (١٠٣).

اخراج حق الفقراء والمحرومين .

اتضح ان الانسان الذي لا يدفع الزكاة ملوث ، والمال غير المزكى ملوث أيضاً ولن يصل الملوث الى رحاب الله الطيب أبداً؛ لأنه كما يقول: ﴿اليه يصعد الكلم الطيب﴾^(١) فلما كان الله سبحانه وتعالى طيباً فإنه تصعد الكلمات الطيبة ، ويساعد العمل الصالح على صعودها . واذا كانت الكلمة الطيبة تصعد الى الله فان الروح الطيبة هي التي تصعد للقاء الله ، لأن الكلمات الطيبة ليست منفصلة عن حقيقة الانسان .

فليست المسألة بحيث تكون روح الانسان واقفة والكلمات والعقائد الطيبة وحدها تصعد ، لأن حقيقة الكلمات الطيبة هي تلك النفس الناطقة التي هي كلمة وجودية ومتمتع بالتجرد والثبات؛ فعندما لا تكون متعلقة بالطبيعة وتكون خالصة عن أرجاس المادة ورجز الظواهر المادية فهي أهل للصعود؛ وبناء على ذلك فطريق العمل الصالح مفتوح الى درجة ان القرآن الكريم لا يعتبر له حداً معيناً؛ والتزكية تعني انفتاح الانسان في جناح العمل في مقابل التعليم الذي عليه تقوية الجناح العلمي للانسان ، وان كان كل واحد منهما مرتبطاً بالآخر ، لأن قوله ﴿يعلمهم﴾ يشتمل على تعليم طريق التقوى ، كما ان ﴿يزكيهم﴾ أيضاً يشمل تزكية الانسان من أوساخ الجهل ، وأي تعليم بدون التزكية ليس له فائدة ، كما ان أية تزكية بدون تعليم لا تنفع . اما عندما يجعل كل منهما مقابل الآخر فان أثر كل منهما سيكون منفصلاً عن الآخر ، فللعمل هذا الأثر ، والأثر الخاص للتزكية هو ذلك الذي يبنيه . واذا أراد الانسان ان يكون قلبه منشأً للبركة بالنسبة للآخرين وقابلاً للخير من المبادئ العالمية أيضاً ، فلا وسيلة له الا اتباع النبي والوحي السماوي .

(١) سورة فاطر ، الآية (١٠) .

لذا فقد ورد في مجامعنا الروائية التبيري من العلم الضار كقول النبي ﷺ «أعوذ بك من علم لا ينفع» كما ورد أيضاً الحث على تهذيب الأخلاق واخلاص النية «من أخلص لله أربعين يوماً فجز الله ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»^(١) وهذا من أثر العمل الصالح وهو جعل القلب نابعاً.

ونحن اليوم في اوائل شهر ذي الحجة التي تعد من أفضل أيام السنة ويحتمل ان تكون العشرة الأولى من هذا الشهر مصداقاً لليالي العشر التي أقسم بها الله تعالى؛ وهي كثيرة الفضل والبركة، فقد نقل ان سيدنا موسى كلّم الله كان ضيفاً على الله سبحانه طيلة شهر ذي العقدة والليالي العشر الأوائل من شهر ذي الحجة، وتلك هي الأربعين ليلة.

وفي تلك الضيافة تجلّى ربه للجبل فجعله دكاً، واندهش سيدنا موسى ﷺ وكان من نصيبه في النهاية نزول التوراة عليه. وهذه خاصية الانقطاع الأربعيني. ولا يعني هذا الانقطاع الانزواء عن الناس بل هو انقطاع عن متعلقات الدنيا، والابتعاد عن رجس التفاخر، وابعاد رجس التكاثر. واذا استطاع الانسان ان ينقطع عن الدنيا التي هي الغرور والاحتياال والمكر لمدة أربعين يوماً وليلة فستنبح عيون الحكمة من قلبه الرؤوف والظاهر. وان نتيجة اخلاص أربعينية واحدة خير من تعب وعناء دراسة أربعين سنة؛ لأن الأول يبقى مرافقاً للهوى واللذائذ، اما الآخر فيبتعد عن كل ما ترغبه النفس وعن عبادة الهوى.

بعد ان بين المولى المرحوم محمد تقي المجلسي (رضوان الله عليه) في شرح من لا يحضره الفقيه - طريق تهذيب النفس والتركية وطريق

(١) بحار الأنوار ج ٧٠ ص ٢٤٩.

الرياضات المشروعة، قال: انني منشغل زهاء اربعين سنة بالتدريس وهداية الناس والخطابة والكتابة وأمثالها، وقمت خلال هذه الفترة بهداية أكثر من مائة ألف شخص، ولكني لم أجد شخصاً واحداً يطوى طريق تزكية النفس.

وقد كان السر في موفقية ذلك العالم الرباني في هداية أكثر من مائة الف انسان هو في زعامته للحوزة العلمية وامامة المصلين وتدريس الطلاب وتأليف الكتب وارشاد العوام وهداية الخواص وغيرها. وبما ان سلوك الطريق العادية سهل او ليس صعباً جداً، فلذلك كان - ولا يزال - سالكوها كثيرون. اما الطريق الآخر (طريق تهذيب النفس) فهو صعب جداً، لذا فسالكوه قليلون لأنه يقتضي الانقطاع عن الحس والوهم والامسك بزمام الخيال، وذلك ميسور للانسان الكامل فقط ان الذي يفهم الكليات الأولية او بعض الكليات النظرية بواسطة العقل النظري فقط لكن خياله ووهمه هما اللذان ينظمان له برنامج العمل من خلال متطلبات الشهوة، والغضب، لن يخرج من دائرة الدنيا المحدودة ولن ينعم بنعمة الفلاح، لأنه كما قال تعالى: ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾^(١).

ومن لم يتخلص من رجز البخل وقذارة الطمع فانه لن يصل الى طهارة الفلاح ولن يكون قلبه ينبوعاً للحكمة. وهكذا يتضح جيداً لماذا يكون طريق التهذيب صعباً، ولماذا يكون الحاصل من اربعينية واحدة من التهذيب اكثر من الحاصل من اربعين سنة من الدراسة والتصنيف والتأليف.

ومن أراد ان يعرف نفسه هل هو من أهل الدنيا ام الآخرة فلينظر الى نفسه ومتى يكون أسعد؟ في حالة حصوله على المال ام عند الايثار

(١) سورة الحشر، الآية (٩).

والاحسان الى الآخرين وانفاق المال . ففي الحالة الأولى يكون من أهل الدنيا، وفي الثانية من أهل الآخرة، حيث يكون قد حفظ فطرته ولم يفقد الصبغة الالهية، وفي النتيجة تفتح ابواب الحكمة امام روحه، كما ان اهل الدنيا يغلقون قلوبهم على رجس المادة ويجعلونها رهناً لرجز الوهم والاختيال ﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾^(١) .

ومن هنا يتضح السر في عناد بعض الأمم امثال اليهود والمشركين تجاه الاسلام والمسلمين، كما يعرف السبب في رافة المسيحيين الحقيقيين وأتباع السيد المسيح ﷺ فان القرآن الكريم وفي تحليله لسر ذلك العناد والقسوة وتلك الرافة والرحمة يبين اثر العمل الصالح والطالح فيقول: ﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وانهم لا يستكبرون﴾^(٢) . فأقرب الناس الى المؤمنين هم الأتباع الواقعيون لعيسى المسيح ﷺ لا المسيحيون الصوريون والنصارى الاسميون الذين هم مسيحيون بالهوية فقط . فالسر في اقبال اولئك على المسلمين ان لهم قادة دينيين كالقسيسين والرهبان وليس في قلوبهم استكبار أيضاً، والعامل الأصلي هو عدم الاستكبار هذا والا فاليهود لهم قادة دينيون حسب الظاهر أيضاً لكنهم متساوين مع المشركين الذين لا يمتلكون لا الدين ولا القادة الدينيين .

وان ما نشاهده اليوم من وقوف المسيحيين الى جانب اليهود في حربهم ضد الاسلام فبدفع من اسرائيل الخبيثة والصهيونية المجرمة . قال

(١) سورة المدثر، الآية (٣٨) .

(٢) سورة المائدة، الآية (٨٢) .

تعالى ﴿ولا تزال تطلع على خائنة منهم﴾ . ولكن اولئك الذين هم أتباع مستقيمون لعيسى المسيح سلام الله عليه بما انهم غير مستكبرين فهم ليسوا أعداء للمسلمين ﴿ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وانهم لا يستكبرون﴾ .

ان الأمة - انما تتحرك صوب الفلاح - على حد تعبير سيدنا العلامة الأستاذ الطباطبائي - رضوان الله عليه - عند توفر ثلاثة عوامل ؛ هي :

العامل الأول : وجود علماء حقيقيين ينشرون المعارف الالهية بين الناس ويطلعون الأمة على الأفكار الدينية العميقة .

والعامل الثاني : وجود وعاظ يطرّون قلوب الناس بالموعظة والنصيحة .

والعامل الثالث : أن تكون قلوب أفراد الأمة متقبلة ورؤوفة .

اذا لم يكن لدى الأمة علماء يبحثون في المسائل الاعتقادية وتحليلها بشكل علمي ، او كانوا ولكنهم افتقدوا الواعظ الذي يخلق روحية الطاعة لدى الناس او ان قلوب الناس لم تكن قابلة للمعارف ، فان تلك الأمة لا تتحرك باتجاه الكمال ولن تكون سائرة في طريق التقوى ، وفي النتيجة فلن تتكشف لها أية حقيقة .

ان القرآن الكريم يمتدح الأمة التي فيها العلماء والوعاظ والناصحون ، وقلوب أفرادها رقيقة ورحيمة أيضاً . واذا لم تكن قلوب افراد الأمة لينة وقابلة للحق فانها لن ترى وجه الفلاح أبداً ، كبنى اسرائيل الذين يعتبرهم القرآن الكريم مبتلين بقساوة القلب ، لذا لا ينفذ فيهم كلام الحق ولا يصل خيرهم الى أحد . ويمكننا أن نعرف أهمية القلب الخاضع وخطر القلب القاسي من خلال دعاء سيدنا رسول الله ﷺ حيث يقول : «أعوذ بك من

قلب لا يخشع». فالقلب الحاوي على النية الخالصة والمبدأ لظهور الأعمال الصالحة يكون خاشعاً، والقلب الخالي من الخشوع يكون قاسياً.

نسأل الله تعالى ان تصير قلوبنا جميعاً ببركة القرآن الكريم والأئمة الأطهار سلام الله عليهم أجمعين وعاءً للقرآن الكريم ولكلام أولياء الله وان ينصر الاسلام ومجاهدي الاسلام في كل بقاع الدنيا وفي كل جبهات الحق ضد الباطل.

اللهم نقسم عليك بحق محمد وآل محمد عليهم الصلاة والسلام ان تفضل علينا بنشر ثواب هذه الأقوال وهذا الاستماع بعد قبولها على أرواح معلمينا والمؤلفين في العلوم الالهية برحمتك. وان تجعل القائد العظيم للشورة الاسلامية مؤيداً ومظفراً وموفقاً ومنصوراً في ظل عناية صاحب العصر والزمان أرواحنا فداه. وان تصل الشورة الاسلامية بظهور إمامنا خاتم الأوصياء عجل الله تعالى فرجه الشريف. وان تجعل كيد مستكبري الشرق والغرب في نحورهم وان تنقذ مستضعفي العالم وتنجيهم من براثن المستكبرين وان تختم للجميع بالخير والسعادة.

غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الدرس الخامس عشر

التزكية وسبل وصولها

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . بسم الله الرحمن الرحيم .

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله وصلى الله على جميع الأنبياء والمرسلين والأئمة الهداة المهديين سيما خاتم الأنبياء وخاتم الأوصياء عليهما آلاف التحية والثناء .

كان كلامنا عن تزكية النفوس الانسانية وتأثيراتها على مشاهدة المعارف، يقول الله سبحانه في معرض شرحه للبرامج التربوية عند الرسول الأكرم ﷺ أن الرسول علاوة على تلاوته للآيات الالهية على الناس وتعليمهم الكتاب والحكمة «ويعلمهم الكتاب والحكمة»^(١) فإنه يزيكهم ويرشدهم أيضاً ويجعل نفوسهم مزدهرة وعامرة .

إن الأهمية التي يخصصها الله تعالى للتزكية تفوق الأهمية التي يخصصها للتعليم . لأن تهذيب النفس وتزكية الروح لها ثمرات تعليمية

(١) سورة البقرة، الآية (٢٢٩).

فضلاً عن نتائجها الاخلاقية النافعة . فكما ان الانسان يفهم الوقائع الموجودة عن طريق الفكر والعلم الحصولي ، فانه عن طريق صفاء الضمير وإزاحة الحجب الطبيعية يستطيع أن يعثر على الحقائق ويراها .

والجزء المهم في الترغيب القرآني لتزكية النفوس انما هو لأجل النواحي العلمية والمشاهدات القلبية . ولأن الانسان وبحكم معيشته في عالم الطبيعة ذو جهات متنوعة ، وكل موجود بعيد عن البساطة والتجرد التام يكون ذا خصوصيات وأوصاف أكثر تعقيداً من الموجود البسيط والمتجرد تماماً والقريب من الله عز وجل ، لهذا فان ثبوت صفة كمالية باسم التزكية بالنسبة للانسان تحتاج الى جهات متعددة ، ومن هنا أسندت تزكية الانسان في القرآن الكريم لنفس الانسان وللرسول الأكرم ﷺ ولذات الله المقدسة أيضاً .

يقول عز من قائل في سورة الشمس ﴿قد أفلح من زكاه﴾^(١) فالتزكية في هذه الآية نسبت الى الانسان وجرى ترغيبه الى الفلاح بصفته مزكٍ لنفسه . ومعنى أن الانسان يزكي نفسه هو أن يعدّل عقله النظري من أوهامه وخياله ، وأن يهد عقله العملي سائر قواه الحركية ، وبعد التعديل وحكومة العقل على القوى الادراكية والحركية يصير الانسان مفلحاً ﴿قد أفلح من تزكى﴾^(٢) إذن فالانسان يستطيع أن يعدّل وينظّم شؤونه الروحية في مجال العلم والعمل .

ونفس هذا المعنى لتزكية النفوس البشرية ينسب كذلك للرسول الأكرم ﷺ ﴿ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾^(٣) كما ان الله عز وجل يأمر رسوله الكريم أن يأخذ الزكاة والضرائب الدينية من أموال

(١) سورة الشمس ، الآية (٩) .

(٢) سورة الأعلى ، الآية (١٤) .

(٣) سورة آل عمران ، الآية (١٦٤) .

الموسرين ويطهرهم بذلك ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾^(١) والتزكية بهذا المعنى منسوبة الى الله سبحانه ﴿بل الله يزكي من يشاء﴾ (سورة النور، الآية ٢١). أي ان الله ووفقاً لارادته الحكيمة يزكي من يشاء. ولأن الارادة الالهية مصونة من الشطط لهذا يقول بخصوص الطالحين ﴿لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم﴾^(٢) يمكن أن نستنتج من هذه الآية أن الله لا يكلم البعض رغم انه يكلم البقية ولا يزكي الفاسدين مع انه يزكي الآخرين.

ان التزكية بالاضافة الى كونها ذات تأثير فاعلي ويجب أن تتم من مصدر متسام الى المراحل الأدنى، فانها وبلحاظ خصوصيات محتواها تستلزم أن يكون مصدرها الفاعلي ذا قدسية متميزة وخاصة. واذا وصل الانسان الى مقام العقل يستطيع أن يزكي القوى الأقل منه. ولن يقع محذور اتحاد الفاعل والقابل لأن النفس الآدمية ذات شؤون متنوعة وفلسفة نسبة التزكية الى المصادر المذكورة هي أن نسبتها الى الانسان تأتي من باب نسبة الفعل الى الفاعل القريب، ونسبتها الى الرسول الأكرم ﷺ تأتي من باب نسبة الفعل الى الفاعل المتوسط ونسبتها الى الذات الالهية المقدسة تأتي من باب نسبة الفعل الى الفاعل البعيد. ومع ان الله سبحانه أقرب الى الانسان من أي موجود وهو الفاعل بالذات وبشكل مستقل ولكن من حيث سير البحث وقوس الصعود فان ترتيب الفاعلية هو ما ذكرناه.

هذه هي العلل الفاعلية للتزكية والتي تقوم بعضها فوق البعض الآخر وبتعبير آخر جميع هذه العلل قنوات ومظاهر للتزكية الالهية.

(١) سورة التوبة، الآية (١٠٣).

(٢) سورة البقرة، الآية (١٧٤).

إذا أراد الله أن يذك شخصاً ما فسيمنحه بواسطة الرسول الأكرم ﷺ صفاء في الضمير وينزه روحه بتوفيقه الخاص . هذا مع العلم أن جميع الفيوضات المادية والمعنوية التي تنهال على موجودات عالم الطبيعة تأتي ببركة الأولياء الالهيين ، ومن المستحيل أن يدرك الانسان فيض لا يكون الأنبياء الالهيون مظهرأله ، لأن الطفرة مستحيلة . وهذا النظام الخاص لا يحد من قدرة الله اللامتناهية . فالأولياء الالهيون لا يملكون من أنفسهم أي استقلال، بل هم مظاهر لفيض الله وحسب . ومن أجل حفظ هذا النظام الخاص نرى القرآن الكريم يذكر أن الله هو المزي تارة والني تارة ونفس الانسان تارة أخرى .

بهذا الحديث القصير اتضحت علاقة التزكية بمصادرها الفاعلية . ويجب أن نعرّج الآن الى تحليلها وسبل الوصول اليها . التزكية هي الترشيد والتنمية وأسلوبها هو حصد الأدغال والحشائش المضرّة من مزرعة الوجود الانساني . وتقليم أغصانها العقيمة غير المثمرة، كما ان رشد المحاصيل ونمو الزهور رهين بقطع الأدغال الطفيلية ورفع الأغصان العقيمة، لأن العضو الزائد يهدر الطاقات ويمنع من نمو الأعضاء الأصلية للجسم .

إن الخواطر النفسية والوساوس الشيطانية المعروف ملاك كل منها، هي أدغال مزرعة العقل . والنوايا الملوثة المشتركة هي الأغصان غير المثمرة لروضة الفؤاد، فمعرفتها واقتلاعها يلعب دوراً مهماً في تزكية النفس .

يطرح القرآن الكريم هذا المعنى اللطيف بصور متعددة . فأول دستور يصدره القرآن هو أن يصون الانسان قلبه من نفوذ الميل الى ما يخالف الأوامر الالهية . وأن يتصدى لكل خاطرة مضرّة كعملية مكافحة الآفات،

وإذا ظهرت في الفؤاد أية نزعة باطلة بسبب الغفلة أو الجهل يجب أن يسعى فوراً لرفعها ويقطع الصلة بكل علاقة توجب الانشداد الى الأرض، فيتحرر بذلك .

الدستور الثاني للقرآن الكريم هو أن يقطع الانسان ما لا يتفق وإرادة الله، فلا يمحق ما خالف الحكم الالهي فقط بل ويبعد ما لا يتفق معه، والفرق بين هاتين الدرجتين هو أن الانسان في الدرجة الأولى لا يرتكب المعاصي وفي الدرجة الثانية لا يقوم الا بما فيه الثواب، أي أنه لا يمارس المباح أيضاً، بل تكون جميع أعماله إما واجبة وإما مستحبة .

ففي المرحلة الأولى تدفع وترفع الرذائل النفسية وتطهر الأرضية القلبية من برائن المحرم والمكروه، وفي المرحلة الثانية تنفصم العلاقة بالأمور التي لا تقرب الانسان من الرحمة الالهية مع انها لا تبعده عنها في نفس الوقت .

والمراد بالافتقار والاجتثاث ليس مجرد ترك العمل الخارجي بالأمور المعنية، بل المراد هو قطع العلاقة بها بحيث تزول الميول القلبية نحوها، فلا يحزن الانسان إذا فارقتها ويكبت نفسه بالزهد والصبر . بل يتجاوز رتبة الزهد ويرتقي فوق درجة الصبر وينال مقام الرضا . لأنه ان لم يحظ بهذا المقام سيواجه الصراع الداخلي دائماً، والانشغال بكبت الميول الداخلية مزاحم يستهلك مقداراً من الطاقة والفرص عند الانسان .

إذن يجب ان نسعى لأسر الهوى والتحكم به، لكيلا يعمل على ارتكاب المعاصي او النزوع اليها داخل روح السالك، ولأن الوعد الالهي هو أنه ييسر سلوك طريق التهذيب لسالكي درب القدس، فانه وان كان اجتياز

المراحل الأولية للتزكية المتمثلة بقطع العلاقات المادية سواء بدفعها أو برفعها أو بالورع عن ممارسة المباح أو بالامتناع عن التمتع بالحلال تكون صعبة، لكن طي مراحلها النهائية سيكون يسيراً فقد قال عز وجل ﴿فأما من أعطى واتقى * وصدق بالحسنى * فسنيسره لليسرى﴾^(١).

والمرحلة النهائية للتزكية هي أن يقطع الانسان علاقته بكل ما سوى الله وان كان من ذوي العبادة فيجب ان لا يرتبط بالعبادة وكذلك بالعابد أي نفسه بل ينبغي أن يبصر المعبود فقط ويطلب ذاته. كما يجب أن لا يرتبط فؤاده بالدرس والبحث والارشاد والهداية وما شاكل. لأن جميع هذه الأمور مجرد وسائل ولا بد أن يكون محبوبه الله وحسب.

ان أرفع مراحل التزكية هي أن لا يكون ثمة محبوب في مسرح القلب سوى الله، وقد طلب صاحب النفس الزكية ومزكّي النفوس البشرية الامام أمير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام ان يجعل «وقلبي بحبك متيماً»^(٢) وكذلك طلب الامام علي بن الحسين السجاد عليه السلام في دعاء ابي حمزة الثمالي «اللهم اني أسألك أن تملأ قلبي حباً لك» إن ملأ حب الله سبحانه وعاء الفؤاد لم يبق محل لمحبة غير الله.

وعلى هذا الأساس فقد طرح القرآن مراحل تهذيب النفس من ابسطها وأقلها الى أعقدها وآخرها، ولا يقتصر أسلوب طرحها القرآني بالتذكير بخطوطها الكلية وأصولها العلمية، فالى جانب ذلك تطرح النماذج والأسوة العملية واعلام مذهب التزكية أيضاً، ليعرف كل سالك أسوته في تهذيب الروح ويقتدى به. ويضع القرآن كذلك سبل الوصول الى طهارة الروح في

(١) سورة الليل، الآيتين (٥-٧).

(٢) مفاتيح الجنان، دعاء كميل.

القضايا المختلفة وفيما يلي نماذج منها:

أ - يقول القرآن الكريم حول بعض القضايا العائلية بعد وقوع الطلاق: ﴿فلا تعضلوهن ان ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ذلكم أزكى لكم وأطهر والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾^(١) أي أن اعطاء الحرية للمرأة في اختيار زوجها الثاني بتراضي الطرفين أزكى وأطهر لكم.

ب - يقول في خصوص بعض القضايا الاجتماعية: ﴿فان لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم﴾^(٢).

لا تدخلوا بيوت غيركم بلا موعده مسبق وإذن من أصحابها مطلقاً، واتركوا هذه اللامبالاة، وان أردتم الذهاب للقاء شخص ما واعتذر ذلك الشخص عن استقبالكم فاقبلوا عذره وارجعوا، فخفض الجناح وسحق الغرور يمهد الأرضية لتربية الروح، لذلك قيل ﴿هو أزكى لكم﴾ والعلاقة الكاذبة بالمقام والجاه في مثل هذه الأحوال تفسر تفسيراً سلبياً، بينما العلاقة الصادقة بكمال الروح تعبد الطريق للامتثال لأوامر الله سبحانه.

ان مثل هذه المحن العائلية والاجتماعية وسيلة لتزكية النفس والله عليم بكل ما يخطر على ساحة الروح في مثل هذه المواقع. ان الفرق بين حب الذات وحب الله دقيق جداً ويجب على سالكي درب التزكية أن يشخصوا هذه الدقائق بمعيار دقيق. لأن معرفة الروح صعبة بالوسائل

(١) سورة البقرة، الآية (٢٣٢).

(٢) سورة النور، الآية (٢٨).

القليلة، وأصعب منها تربية الروح، ولكن اجتياز الطريق الصعب يسهل بالاستعانة بلطف الله سبحانه.

ج- يقول الله على صعيد الالتزام بالحجاب وحفظ حرمان بيت الرسول الأكرم ﷺ: ﴿وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن﴾^(١). أي أن حفظ العفاف والحرمة عامل مؤثر في توفير طهارة القلب. واللقاء وجهاً لوجه ربما يبعث على سواد الفؤاد وقدارة النفس أو يحول دون قدسها.

إن أراد الرجل أن يسأل من المرأة الأجنبية شيئاً فيحسن أن لا يكلمها وجهاً لوجه. كما أمرت نساء النبي ﷺ أن لا يرفعن أصواتهن في الكلام ﴿فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولاً معروفاً﴾^(٢).

ورد تحذير لمرضى القلوب في هذه الآية ليعلموا أن الطمع في الأجنيبات علامة القلب المريض، وأوضح سبيل علاج ودفع أو رفع مثل هذه الأمراض، فليل للانسان السالك أن إذا طمع قلبك في الأجنيبات نتيجة رؤية أو سماع ما يثير الشهوة فاعلم أن قلبك ليس بسليم. وطريق تطهيره هو العفاف. فالانسان العفيف مزكى وطاهر والانسان الطامع ملوث.

وعلى كل حال، أمر الله ومن أجل تزكية المجتمع أن لا يكون للرجال ارتباط مباشر بنساء الرسول الأكرم ﷺ وأن يكون حديثهم معهن من وراء حجاب وأمر النساء أيضاً أن مجرد تغطية الوجه والحديث غير المباشر لا يكفي، بل يجب أن لا يكون أسلوب كلامهن مائعا ورقيقاً ومثيراً للشهوة لكي

(١) سورة الأحزاب، الآية (٥٣).

(٢) سورة الأحزاب، الآية (٣٢).

لا يطمع الذي في قلبه مرض .

إذا تمرد شخص على حفظ الظواهر ورعاية أوامر الحجاب والعفاف بحجة أن القلب هو الذي يجب أن يكون سليماً وعفيفاً، فجوابه أن طهارة القلب لا تحصل الا بالطرق التي وضعها الله للتزكية . وبذلك تستطيع النساء أن يقمن بشؤونهن الفردية والاجتماعية على أفضل وجه، وكذلك الرجال، ولكن كل من الفريقين في مجاله الخاص . وإذا كانت ثمة حاجة للأسئلة والأجوبة بين الرجال والنساء فيحبذ عدم التواجه وعدم الميوعة والاثارة في كلام النساء، وعلى الجميع أن يعلموا أن رعاية هذه الآداب الاخلاقية سبب في تزكية نفوس الرجال والنساء على السواء ﴿ذلكم أظهر لقلوبكم وقلوبهن﴾ .

ان بعض هذه النماذج المذكورة جاءت لتعديل غريزة حب الذات والتكبر وما شاكل كآلية في سورة النور . وبعضها الآخر جاء للتعديل من الغريزة الجنسية كآلية في سورة الأحزاب . وجميع هذه الميول النفسية أدغال طفيلية لا بد أن تتخلص منها مزرعة الفؤاد لتتھيا الأرضية لنمو شجرة طوبى .

د - يقول الله سبحانه وتعالى حول قضية المال وصيانة حقوق المحرومين والايثار: ﴿وسيجنبها الأتقى * الذي يؤتي ماله يتزكى﴾^(١) أي أن الميول المالية بدورها حشائش مضرّة يجب أن ترفع من ساحة القلب . فالذي ينفق من ماله الحلال لأجل التزكية وطهارة الروح يعتبر أتقى وأورع من الآخرين وبالنتيجة فهو أكرم من باقي أصحاب الكرامة، لأن الكرامة تنبع

(١) سورة الليل، الآيتين (١٧ و١٨).

من التقوى ومن كان اتقى كان أكرم والذي يؤثر من ماله الحلال بقصد تزكية الروح لا بد أن ينجو من النار التي يصلها الأشقياء والملحدون الفسدة .

﴿لا يصلها الا الأشقى * الذي كذب وتولى﴾^(١) ان المراد عن الحصر في هذه الآية أما الخلود أو نوع خاص من العذاب يبتلي به من تورط بالكذب والانكار على صعيد الاعتقاد بأصول الدين وتملص من القيام بالتكاليف الالهية على صعيد الأعمال العبادية .

والمراد بانفاق المال أن يكون الانفاق عن نية خالصة من جانب المنفق كما أسلفنا ويجب ان يكون المال حلالاً أيضاً، لأن كل انفاق سواء كان واجباً أو مستحباً لا بد أن يكون من المال الحلال فالمال الحرام لا تشمله الزكاة وما شابه بل ينبغي ارجاعه الى صاحبه . وقد قال الله عن أموال الربا مثلاً ﴿فلكم رؤوس أموالكم﴾^(٢) بمعنى أن رأس المال يعود لكم فقط ويجب أن تعود فوائده الربوية الى من دفعها، بحيث ﴿لا تظلمون ولا تُظلمون﴾^(٣) .

ومع ان المال سبب في نهوض الفرد والمجتمع ولا قوام للحياة الا به ولكن المال الحرام كالفقرة الظهرية الخشبية لا يمكن أن تحل محل الفقرة الطبيعية ولا تستطيع أن تنهض بالجسم، لذلك قال الباري ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾^(٤) .

إن علاقة تزكية الروح بالمسائل المالية هو أن لا يخرج اكتساب المال

(١) سورة الليل، الآيتين (١٥ و١٦) .

(٢) سورة البقرة، الآية (٢٧٩) .

(٣) سورة البقرة، الآية (٢٧٩) .

(٤) سورة التغابن، الآية (١٥) .

عن حدود الحلال وأن لا يضر جمعها واختزانها بالايثار والانفاق الواجب والمستحب . ويجب كذلك الحذر من الوقوع في الاسراف وبسط اليد بشكل تام ﴿ولا تبسطها كل البسط﴾^(١) ومعرفة هذه الأحكام هو تعليم الكتاب والحكمة ، ولكن العمل الخالص بها هو التزكية فمثلاً تعتبر الآية ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين﴾^(٢) تعليماً لحكم الله ، أما الآية ﴿وسيجنبها الأتقى * الذي يؤتي ماله يتزكى﴾ والآية ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾^(٣) فانهما تفيدان تزكية النفوس .

حين يكون الحديث عن التبليغ والكلام والاستماع فتلك منطقة التعليم وحين يكون عن الايثار والانفاق والتجاوز والاحسان والعفو والعفة وحفظ الحريات وما شاكل فتلك منطقة التزكية ومملكة تهذيب النفس . ولأن التزكية هي غرز بذور الروح الطاهرة والرسول الأكرم ﷺ هو مزكي النفوس ، لذا أمر الله عز وجل الرسول أن يأخذ الصدقات من الناس ويزكيهم بها . كما إن الله سبحانه وتعالى يعتبر المزكي الأصلي للنفوس وهو الذي رسم طرق تهذيب الروح في مختلف المجالات من أجل تربية غرسة الوجود الانساني ، لتنشأ ونمو الأرواح البشرية بصورة صحيحة ﴿والله أنبتكم من الأرض نباتاً﴾^(٤) .

ولأن الله هو الفلاح الحقيقي لحديقة الانسانية . فهو أعلم وأدرى بأفضل تربية للبذرة الآدمية وأنجح السبل لنيل هذا الهدف المقدس ، وقد أبلغ هذه السبل عن طريق الوحي والرسالة للمجتمعات البشرية .

(١) سورة الاسراء، الآية (٢٩) .

(٢) سورة التوبة، الآية (٦٠) .

(٣) سورة التوبة، الآية (١٠٣) .

(٤) سورة نوح، الآية (١٧) .

ولأن كل علاقة وميل يحول دون قدس وطهارة الروح يعتبر نباتاً طفيلياً يجب اجتثاثه بارشاد وتوجيه من قبل الفلاح، لذلك قال الله سبحانه ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾^(١) منتمية الارتباطات المختلفة تقطع الطريق على نيل محبة الله وتفرد بالنفس الآدمية واذا اسودت الروح بكثرة الارتباطات فلن تحرم من شهادة الحقائق الغيبية وحسب بل ستعجز عن فهم معاني هذه الحقائق أيضاً، ولن تصل الى شيء يذكر أبداً.

على هذا الأساس، إذا كنا قد أثبتنا في المقال السابق أن التقوى سبب في نيل الأنوار الغيبية التي تمكن المرء من التفريق بين الجمال وقبح الباطل ﴿إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً﴾^(٢) فقد علمنا في هذا المقال أن للتقوى المالية نصيب وافر في طهارة الروح ومثلما يكون الأتقى اكرماً فان الأتقى أعلم أيضاً، ولكن طبعاً في خصوص العلم الشهودي الذي تكون التقوى مصدره الأساسي وليس العلم الحسولي الذي يمكن أن يحصل بعض الأحيان بعيداً عن التقوى. وقد نزلت عدة آيات قرآنية بهذا المعنى.

جاء في آخر سورة العنكبوت ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾^(٣) أي أن الذين جاهدوا فينا وقمعوا غرائزهم المختلفة وكتبوا الشيطان الداخلي وهي النفس فاننا سنهديهم الى الكثير من سبل الغيب.

ليس المقصود من الهداية في هذه الآية تلك الهداية التشريعية والابتدائية، بل الهداية هنا هي الوصول الى المطلوب الذي سيمنح للمجاهدين الحقيقيين في الله كثواب لهم. وبما أن الطرق الفرعية التي تنتهي

(١) سورة آل عمران، الآية (٩٢).

(٢) سورة الأنفال، الآية (٢٩).

(٣) سورة العنكبوت، الآية (٦٩).

الى الصراط المستقيم كثيرة لذلك جاءت كلمة سبيل بصيغة الجمع .
والحقيقة أن هذه السبل المختلفة هي شؤون ذلك الصراط الواحد، ومثلها
مثل الشارع العريض الخالي من الزحام والذي يمكن السير فيه من عدة
أماكن .

وجاء في أول سورة العنكبوت ﴿ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه ان الله
لغني عن العالمين﴾^(١) .

إن الله وبصفته حكيمًا، تترتب على أفعاله منافع كثيرة وبصفته غنيًا لا
تعود أي من هذه المنافع اليه، لهذا فان هذه المنافع غاية للفعل لا هدف
للفاعل . ولأنه قادر محض فقد يسر الطريق الصعب لتهديب النفس على
سالكي درب القدس ليتمكنوا باجتياز مراحلها التي ذكرنا بعضها في هذه
المحاضرة أن ينالوا المرحلة النهائية المتمثلة بالنزاهة من كل ما سوى الله
والطهارة من مشاهدة أي شيء عدا لقائه عز وجل .

ومن هنا جاء بحق السالكين الواصلين لتلك الغاية القصوى :
﴿وسقاهم ربهم شراباً طهوراً﴾^(٢) يقول المرحوم أمين الاسلام الطبرسي
(رض) في التعقيب على هذه الآية : «وقيل : يطهرهم عن كل شيء سوى الله
إذ لا طاهر من تدنس بشيء من الأكوان الا الله . رووه عن جعفر بن
محمد عليه السلام»^(٣) .

وقد ذكر هذا المعنى قبل المرحوم الطبرسي ، الشيخ ابو الفتوح الرازي
فقد قال : «روي عن الامام الصادق عليه السلام انه قال : الشراب الذي يطهر

(١) سورة العنكبوت، الآية (٦) .

(٢) سورة الانسان، الآية (٢١) .

(٣) تفسير مجمع البيان، ج ١٠، ص ٤١٢ .

قلوبهم عن كل ما سوى الله لكيلا يدنسوا بالاغيار»^(١) .

وعليه، إذا نقل كلام في هذا الخصوص عن عارف واصل، أو أعرب الآخرون عن جانب منه كما أورد الامام الفخر الرازي في تفسيره الكبير «... فإذا وصل الى ذلك المقام وشرب من ذلك الشراب انهضمت تلك الأشربة المتقدمة، بل فנית، لأن نور ما سوى الله تعالى يضمحل في مقابلة نور الله وكبريائه وعظمته، وذلك هو آخر سير الصديقين، ومنتهى درجاتهم في الارتقاء والكمال، فلهذا السبب ختم الله تعالى ذكر ثواب الأبرار على قوله ﴿وسقاهم ربهم شراباً طهوراً﴾^(٢) فان مثل هذه المعارف وصلت لهؤلاء بواسطة الامام الصادق عليه السلام وبقية أهل بيت الوحي عليهم السلام .

وليس المراد من الفناء هو الفناء المحض والعدم الصرف للانسان السالك، لأن العدم شر ونقص، والحال أن الفناء من أكمل مراتب السير والسلوك. بل المراد هو فناء حب الذات وزوال مشاهدة ما سوى الله وما شاكل هذه الأمور.

واحدى جهات تسهيل طريق السالكين أن جميع مراحل نور، والعبور من خلال النور ليس سهلاً فقط، بل ان النور بذاته ييسر سبيل السفر والجواز بشكل جيد، والقرآن الكريم يذكر كل الأمور التي تساعد في السير الروحاني كونها نوراً وعامل إشراف.

فعلى سبيل المثال يعتبر الله الرسول صلى الله عليه وآله وسلم نوراً وسلوكه منوراً لأرواح البشر. والله كذلك هو ﴿نور السماوات والأرض﴾ . وكذلك الملائكة

(١) تفسير أبي الفتوح، ج ٥، ص ٤٥١ .

(٢) التفسير الكبير، ج ٨، ص ٤٠١ .

المعصومون وهم المظاهر النيرة لله سبحانه، فهم يصلّون وحسب قول القرآن الكريم، على السالكين الحقيقيين لدرب جهاد وتهذيب النفس لينورونهم.

﴿هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات الى النور وإن الله بكم لرؤوف رحيم﴾^(١).

إذن فوجود النبي الأكرم ﷺ هو الفاعل القريب لعملية اشراق القلوب، والله سبحانه هو الفاعل البعيد وبالذات لها. ومن المحتمل أن يكون القصد من «الآيات بينات» الأعم من الآيات التدوينية والتكوينية والمراد بالتنزيل كذلك الأعم من التنزيل التشريعي والتكويني. ولا بد أن يكون المراد بالعبد في الآية المذكورة هو الرسول ﷺ وغير الرسول من السالكين، وبهذا يكون ما ترمي اليه الآية بصورة عامة هو أن الله سبحانه ينزل آيات بينات على قلوب خاصة عبده، ليخرجكم أتم العباد من الظلمات الى النور.

والسبب في أن المفسرين ذوي المقامات العالية غالباً ما يميلون الى المعنى الأول هو أنه ورد في سورة ابراهيم ﴿الر كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم﴾^(٢). وعليه يكون الرسول الأكرم ﷺ أداة لاشراق القلوب، كما ان الله يأمر نبيه موسى ﷺ في نفس هذه السورة ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات الى النور وذكرهم بأيام الله ان في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾^(٣).

فآيات سورة ابراهيم المباركة تدل على ان المراد بالعبد الذي تنزل

(١) سورة الحديد، الآية (٩).

(٢) سورة ابراهيم، الآية (١).

(٣) سورة ابراهيم، الآية (٥).

عليه آيات الله البينة ليخرج الناس من الظلمات الى النور هو الرسول لا غيره من البشر. ووفقاً لآيات سورة ابراهيم تتضح الآية في سورة الحديد.

أما ما يحتمله صدر المتألهين (رض) فهو أن المقصود بالعبء أعم من الرسول وغيره بحيث ينزل الله تعالى من فيضه الخاص والمباشر فيوضات على الانسان المؤمن، لينتقل به من كل عتمة وظلام الى النور، ويمكن دعم هذا الاحتمال بشهادة الآية في سورة الأحزاب ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً * وسبحوه بكرة وأصيلاً * هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات الى النور وكان بالمؤمنين رحيماً﴾^(١).

ان الله والملائكة يصلون على النبي ويأمرنا الله بدورنا أن نصلي ونسلم عليه، فالصلاة هي العطف والميل والانجذاب. ان الله يصلي على المؤمن أي أن ألطافه تصل المؤمن. وملائكة الله تصلي على المؤمنين بمعنى أن ألطافهم ودعاءهم وفيوضاتهم الأخرى تشمل المؤمنين وتنزل عليهم. ان الصلوات التي نهديها للأنبياء والأولياء الالهيين لها وضع خاص والصلوات التي تبعثها الملائكة للمؤمنين لها وضع خاص آخر.

تقول الآية المذكورة، ان الله هو المصدر الفياض الذي يصلي عليكم وتصلي عليكم الملائكة أيضاً. يستطيع الانسان أن يصل مرتبة يصلي الله فيها عليه. لأن صلاة الله من صفات أفعال ذاته المقدسة وتتنزع من الاهتمام الفعلي. اذا عم اللطف الالهي انساناً ما فيمكن أن تستفاد الصلاة من هذا الاهتمام والعطف والميل ولا تستفاد الصلاة من مقام الذات. لأن صفات الفعل تنتزع من الفعل لا من مقام الذات الالهية. والمؤمن الصادق قد يصل

(١) سورة الأحزاب، الآيات (٤١-٤٣).

مراتب تشمله بها صلوات المبدأ المتعالي (الله).

جاء في روضات الجنات أن المرحوم نصير الدين الطوسي (رض) وأثناء الدرس ذكر اسم الشريف السيد المرتضى وصلى عليه، ثم قال من أجل أن تزول دهشة التلامذة «فكيف لا يصلّي على المرتضى؟» أي كيف لا نصلي على الانسان القويم الذي ارتضى الله دينه وكان مقبولاً لديه .

ولأن حقيقة الصلاة هي الاشراق كما قال الله ﴿ليخرجكم من الظلمات الى النور﴾ والفرق بين الاشراق والشروق كالفرق بين الایجاد والوجود، فالشيء الواحد اذا نسب الى الفاعل كان الایجاد والاشراق واذا نسب الى القابل كان الوجود والشروق، وهذان لا ينفصلان عن بعضهما، إذن فصلاة الله سبحانه وهي تنوير وإشراق قلوب الرجال الالهيين، لا بد أن يرافقها شروق وتنور هذه القلوب .

في بعض الأحيان، يظهر إشراق الباري عز وجل على شكل تشريع للأحكام النافعة، ويكون الفيض تاماً وكاملاً من قبل الشارع ولكن الانسان الفاسد يعرض عنه ولا يستجيب له ﴿فنبذوه وراء ظهورهم﴾^(١) ولكن الاشراق التكويني لله لا يمكن أن ينفصل عن الشروق الخارجي والتحقق العيني . ففي الفيض التكويني ترتبط إرادة الله بفعله، بينما في الفيض التشريعي ترتبط إرادة الله بفعل الفاعل المختار أي الانسان المكلف . لهذا يجوز فصل المراد عن الارادة التشريعية ولكن لا يجوز انفكاكه عن الارادة التكوينية ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾^(٢) .

(١) سورة آل عمران، الآية (١٨٧).

(٢) سورة يس، الآية (٨٢).

وخلص القول هي أن الله سبحانه يصلي على المؤمنين لينورهم وكذلك الملائكة فهي تصلي على المؤمنين لتنورهم . يتلقى الأنبياء عليهم السلام ، الآيات البينات عن الله ويقرأونها على المؤمنين ويعلمونهم إياها ويزكونهم ليدخلونهم الى النور . إذن فكل فيوض الله من أجل ان يتنور الانسان ، ويصير مصداقاً بارزاً لهذه الآية ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس﴾ (١) .

يعتبر القرآن الكريم الرجال الالهيين كالكوكب السماوية منورين ومشرقين ، وسيرتهم القيّمة مناراً ينير درب حياة الآخرين وكلامهم الحكمي كسلوكهم معياراً للحكمة .

فيقول مثلاً ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة﴾ (٢) ثم يذكر كلامه الحكمي لابنه ﴿يا بني . . . واقصد في مشيك﴾ (٣) أي كن معتدلاً ومتوسطاً في حياتك لأن التوسط والاعتدال في شؤون الحياة هي النورانية ذاتها . فالاعتدال إذا جاء بعد الأخذ بالنظرية التوحيدية واداء الفرائض العبادية وتقويم المجتمع بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، سوف يظهر على شكل نور متجسد .

وبما أن القيامة هي الوعاء الذي تظهر فيه حقائق الأشياء وسرائر البشر ، وسريرة الانسان العالم العادل سريرة نيرة وحقيقة العلم الصحيح والعمل الصالح هي النور ، لذا سيظهر نور الرجال الأتقياء في ساحة القيامة وينير ذلك الموطن ، والا فالشمس والنجوم المضيئة لا تقوم بإضاءة الفضاء الأخروي . كما ان الأنوار الاصطناعية لا ظهور لها في ذلك الموطن ﴿لا

(١) سورة الأنعام، الآية (١٢٢) .

(٢) سورة لقمان، الآية (١٢) .

(٣) سورة لقمان، الآيات (١٧-١٩) .

يرون فيها شمساً ولا زمهريراً^(١) فالنظام الدنيوي سيتبدل أساساً الى نظام آخر يوم القيامة وستضطرب الاجرام السماوية والأجسام الأرضية آنذاك ﴿إذا الشمس كورت * وإذا النجوم انكدرت * وإذا الجبال سيرت﴾^(٢) وستطوى المجاميع السماوية والأرضية بأجمعها ﴿والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه﴾^(٣) وسيظهر نظام جديد لا يكون نوره سوى العلم والعمل الصالح الذي اكتسب في الدار الدنيا.

إن سالك درب التهذيب انسان متنور. وبإمكانه أن يرى أجواء حياته وطريقه وهدفه المتمثل بالجنة. أما الكافر السائر نحو هاوية السقوط والضياح فانه انسان مظلم ولا يستطيع أن يبصر الأجواء الصالحة للحياة ولا طريقه الصحيح، وسيضل الطريق الى جهنم يوم القيامة أيضاً وهذه الحيرة بدورها ستبعث على عذابه.

وكل هذه المعاناة الظاهرية والباطنية تنضوي تحت غطاء التعذيب الالهي الفريد. فهو القائل ﴿لا يعذب عذابه أحد﴾^(٤) أي أن الله سبحانه يعذب الانسان الفاسد عذاباً لا يستطيع غيره أن يعذب أحداً بمثله، فمن جانب عذاب بدني فالعذاب واسع وغير زائل ﴿كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها﴾^(٥) وهناك العذاب الروحي من جانب آخر ﴿نار الله الموقدة * التي تطلع على الأفئدة﴾^(٦) وبهذا تحيطه أنواع العذاب القاتلة

(١) سورة الانسان، الآية (١٣).

(٢) سورة التكوير، الآيات (٣-١).

(٣) سورة الزمر، الآية (٦٧).

(٤) سورة الفجر، الآية (٢٥).

(٥) سورة النساء، الآية (٥٦).

(٦) سورة الهمزة، الآيتين (٧٦) و(٧٧).

والمرؤعة من كل الجهات، ولكنه لا يموت بها ﴿ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت﴾^(١).

يمكن أن نتدارس حالة الرؤيا لتوضيح حقيقة أن تهذيب اليوم نور الغد. فكيف يستطيع الانسان في حالة المنام أن يبصر الجو مضيئاً ويشاهد الأشياء والأشخاص بكل وضوح مع أن عيونه مغلقة؟! أي نور يضيء للانسان مشاهداته وعيونه مغلقة؟.

حين تذكر سورة الحديد وسورة التحريم أموراً عن نور الرجال الالهيين الذي يسعى بين أيديهم وأمامهم ويخطف بسرعة، في ذلك اشارة الى ذلك النور الذي يصدر عن الأنقياء بفعل علمهم وعملهم في الدنيا فيضيئون به مجتمعهم ﴿وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس﴾^(٢) أو ﴿ويجعل لكم نوراً تمشون به﴾^(٣). وعند الكلام عن هذا النور لا يراد أن مصدره وأصله سيحصل يوم القيامة، بل ان مصدره يظهر في الدنيا أما هو فيظهر يوم القيامة. والا فالمستفاد مما جاء في سورة الحديد وسورة الأنعام هو أن منهج حياة البعض في الدنيا نير. إذن فالقيامة ليست ساحةً لحدوث هذه الأنوار، بل ساحة لظهورها والتي ستظهر على أشكال مختلفة.

وبالطبع فان التمثل يختص بالتجرد الخيالي والوهمي، والواصلون الى التجرد العقلي الكامل يكون تمثل نورهم بعد النزول الى موطن الأوهام والخيال. والا فالمعارف الدائرة حول محور التجرد العقلي التام واخلاص وتهذيب نفوس العقلاء المتحررين من حدود الخيال والوهم والواصلين الى

(١) سورة ابراهيم، الآية (١٧).

(٢) سورة الأنعام، الآية (١٢٢).

(٣) سورة الحديد، الآية (٢٨).

قدس العقل، تكون جميعها فوق التمثل، رغم أنهم وبسبب امتلاكهم مراتب الحس والخيال والوهم يظهرون بصورة التمثل في المراتب الدنيا.

والخلاصة ان الله سبحانه وتعالى وملائكة الرحمة يصلون على المؤمنين لينيروهم كما انهم يصلون على الرسول ﷺ، ولكن أسلوب التعبير عن هاتين العمليتين مختلف. فقد جاء بحق رسول الله ﷺ وهو أسوة الأزكياء ﴿ان الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً﴾^(١). أما بحق المؤمنين فقد قال سبحانه ﴿هو الذي يصلي عليكم وملائكته﴾ وقد ذكر الله كلمة الملائكة هنا بعد انتهاء العبارة مما يعني انفصال صلاة الله عن صلاة الملائكة. أما عن النبي الأكرم ﷺ فقد قال ان الله وملائكته يصلون على النبي دفعة واحدة وبصورة جماعية وذلك لتكريم مقام الرسول ﷺ.

فهنا جاءت كلمة الملائكة قبل أن تنتهي الجملة، ثم أمر الله المؤمنين أن يقتدوا بالله وملائكته في هذا العمل ويصلوا ويسلموا على النبي ويطيعوا أوامره وتوجيهاته.

وقد ذكر الله طريقة الانقياد والتسليم للنبي وقال ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾^(٢). يبدو من الآية التي تأمر بالصلاة على الرسول ﷺ أن الله سبحانه نسب فعلاً الى نفسه، ثم وصف الملائكة بهذا الفعل، ثم أمر المؤمنين أن يتخلقوا بالأخلاق الالهية في هذا الفعل وهذه الصفة الكمالية، مثلما جاء عن الشهادة بالتوحيد حيث ذكر الله اسم الملائكة

(١) سورة الأحزاب، الآية (٥٦).

(٢) سورة النساء، الآية (٦٥).

والعلماء الالهيين كشهداء على توحيده بعد ذكر اسمه العظيم ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم﴾^(١) ومفاد هذه الآية هو أن الله شهد على توحيده أولاً، ثم قال ان الملائكة والعلماء الربانيين شهداء على وحدانيته أيضاً، واقتران الملائكة والعلماء الربانيين مؤشر على سمو مقام علم التوحيد.

إن النظر في مثل هذه الآداب والسنن يدل على ان التعاليم الدينية تحاول أن ترتقي بالانسان الى مرتبة الملائكة، ومن الواضح أن التساوي بين الانسان والملك لا يتيسر بغير تهذيب الروح الآدمية، لأن الانسان غير المهذب لا يمكن أن يقترن بالملائكة الطاهرين المطهرين.

في ختام هذه المحاضرة نروي حديثاً عن الامام أمير المؤمنين عليه السلام يناسب البحث ويتممه ويعلم آداب التضرع وطرق استجابة الدعاء، يقول عليه السلام : «إذا كانت لك الى الله حاجة فابدأ بمسألة الصلاة على رسوله ثم سل حاجتك فان الله أكرم من أن يسأل حاجتين فيقضي أحدهما ويمنع الأخرى»^(٢).

ولأن أدب الدعاء يقتضي الصلاة على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم نجد الامام السجاد عليه السلام في الصحيفة السجادية يصلي على الرسول وأهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام في جميع الأدعية.

ونحن بدورنا نسأل الله سبحانه أن ينزل خير صلواته على الرسول الكريم والأئمة الأطهار والصديقة الطاهرة. ويوفق الجميع لتهذيب الروح

(١) سورة آل عمران، الآية (١٨).

(٢) نهج البلاغة، الحكمة ٣٥٣.

وتركية النفس وينصر الاسلام وجنوده ويمد قائد الثورة الاسلامية العظيم
بمدده الغيبي تحت ظل إمام العصر الوارف . وأن يحشر أرواح المؤمنين
عموماً وعلماء وشهداء الاسلام خصوصاً مع أوليائه الصالحين . ويشيب ذوي
الشهداء ويمنحهم الصبر ويختم أمور الجميع بالخير والسعادة .
غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

النية الخالصة وعلاقتها بالتزكية

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . بسم الله الرحمن الرحيم .

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله وصلى الله على جميع الأنبياء والمرسلين والأئمة الهداة المهديين سيما خاتم الأنبياء وخاتم الأوصياء عليهما آلاف التحية والثناء .

كان بحثنا حول أن الله سبحانه جعل أهم برامج الأنبياء تعليم الكتاب والحكمة وتزكية نفوس البشر، وأعطى الأهمية لتزكية وتهذيب الأرواح أكثر من تعليم الأفكار، وقد ذكرنا مبرر هذا الاهتمام في البحث السابق .

كما أشير في معرض تبين معنى التزكية أنها الطريق العملي للنفس قبل التعليم وهو الطريق الفكري للعقل . فالروح الانسانية متى ما سارت على صراط الأحكام الالهية المستقيم فقد بدأت بتزكية نفسها . وما لم تسع في المجال العملي فانها لن تنمو، وليس هناك سبيل غير العمل بأوامر الشرع، يؤدي الى نزاهة الروح من النواقص وبراءتها من العيوب .

كما إن الأفكار العلمية تزكية للعقل النظري وأداة لازدهاره ونشاطه في التفكير الصحيح، فإن الامتثال للأحكام الالهية تزكية للعقل العملي وسبب لازدهاره في العزم الراسخ والنية الصادقة الخالصة. وبما ان العقل العملي للروح غير منفصل عن العقل النظري فيها، بل ان كليهما مظاهر لحقيقة واحدة، بحيث تفهم من جانب وتؤثر في الجسم والطبيعة من جانب آخر، إذن فحين يتزكى ويزدهر الانسان على صعيد العقل العملي أي اطاعة الوحي والرسالة، فانه سيزدهر أيضاً على صعيد عقله النظري وسيفكر بصورة أكمل في حقائق الوجود، وسيدركها بشك أوضح، ومن الممكن أن يستحكم الارتباط بين العقل النظري والعقل العملي الى درجة يستطيع معها العقل العملي أن يشاهد الحقائق ولن يكون له في ذلك المواطن مهمة وعمل سوى المشاهدة. كما ان العقل النظري سيكون بدوره المصدر الفاعلي لكثير من أعمال الخير، لأن مجرد العلم عند بعض النفوس المتعالية رصيد لتحقيق العمل، ومثل هذه القابلية يأتي نتيجة الانسجام بل الاتحاد الوثيق.

والنتيجة النهائية لامتثال الأحكام الالهية، هي مشاهدة الحقائق العينية وسبيلها كما اتضح في البحث الماضي هو قطع كل ارتباط يضرّ بالسير على الصراط المستقيم. وترتيب الارتباطات المضرة كما يلي:

أولاً: التعلق بالأمور المنافية للأوامر الالهية كالتعلق بالحرام والمكروه.

ثانياً: التعلق بالأمور التي لا تتفق والأوامر الالهية ولكنها لا تتنافى معها. كالتعلق بالأعمال المباحة والاستئناس بالمسائل التي لا هي محرمة ولا مكروهة ولكن لا رجحان فيها كالمباحات. فانصراف الروح الى هذه

الأُمور يتجه بالروح من الأُنس بالحق الى الأُنس بالنفس . والشيطان المتخندق على الصراط المستقيم ﴿لأفعدن لهم صراطك المستقيم﴾^(١) يحاول أن يمنع السالك من مواصلة الطريق في كل المراحل . وإذا لم يستطع أن يوقع به بواسطة الحرام أو المكروه، فسيسعى لايقاعه في مصيدة المباحات .

ثالثاً: التعلق بالأُمور المستحبة التي تتزاحم مع الاهتمام بالواجبات، أو التعلق بالواجب المهم الذي يمانع من اداء الواجب الأهم .

رابعاً: التعلق بالواجب الأهم والأُنس به والاهتمام بادائه بحيث يحرم الانسان من التعلق بالذات الالهية المقدسة .

خامساً: التعلق بذات العابد . ومع ان هذا التعلق يأتي من أجل التزوّد بالقوة لمواصلة العبادة وصرفها في سبيل رضا المعبود، ولكن التعلق بذات العابد كالتعلق بالعبادة وسائر الأعمال الخيرة العلمية أو العملية، يمنع من حصر المحبة لله وتوظيفها للذات الالهية فحسب . عليه فجميع هذه العلاقات مضرة لسالك درب التهذيب، وبدون التخلص منها لا يتيسر اجتياز طريق التزكية .

ولأجل نيل هذا الهدف الرفيع، اشترطت نية القربة في صحة كل الأعمال العبادية . وللقرب درجات بدوره وبالترقي في هذه الدرجات يمكن الترتيبي في مراتب تزكية الروح . ومن أهم العوامل المؤثرة في تهذيب النفس هو أن يكون العمل العبادي بقصد الظفر برضا الله فقط، لا من أجل الوصول الى المصالح المترتبة على ذلك العمل . لأن هذه المصالح والمنافع تطرح

(١) سورة الأعراف، الآية (١٦) .

بصفتها فوائد الأعمال العبادية لا كونها العلة الغائية والهدف النهائي للأعمال . فبتجلي الفرق الكبير بين منافع العمل وعلته الغائية يمكن التحرر من قيد فائدة العمل والظفر بعلمته الغائية الا وهي لقاء الله عز وجل .

ان التروّض على هذا المسلك ومواصلة هذا الطريق يؤديان الى ظهور السعي نحو الهدف في كل شؤون الجذب والدفع عند الانسان السالك ، اي انه سيأخذ بنظر الاعتبار العلة الغائية للأعمال في تركه للمحرمات وزهده في المباحات وهيامه بالواجبات والمستحبات واهتمامه بالواجب الأهم وترجيحه على الواجب المهم وما شاكل ذلك من التكاليف الدينية ولا ينظر الى منافع وفوائد الأعمال ، وعندها سيقول بشرائر وجوده: ﴿إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين﴾^(١) .

وعلى ضوء هذا التحول الروحي سيؤدي الانسان أبسط أعماله الحياتية بقصد إرضاء الله ويطبعها جميعاً بطابع العبادة ، ناهيك عن الأعمال الحياتية المعقدة كما انه يعتقد وينظرته التوحيدية أن المصدر الفاعلي لأبسط الأعمال هو الله سبحانه وهي (أي الأعمال البسيطة) لا تختلف في ذلك عن أعمق وأعقد الأعمال في أسرار الخلقة ، فكلاهما من مخلوقات إله العالم .

وعلى سبيل المثال فان النبي ابراهيم عليه السلام كما يعتبر النظام الكوني من صنع الله ويقول: ﴿وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين﴾^(٢) فانه يرى الارواء من العطش والاشباع من الجوع وهي من الأعمال الأولية من صنع الله أيضاً ويقول ﴿والذي هو يطعمني ويسقيني * وإذا مرضت فهو

(١) سورة الأنعام، الآية (١٦٢) .

(٢) سورة الأنعام، الآية (٧٩) .

يشفين ﴿١﴾ .

والخلاصة انه وفي جميع شؤونه العلمية والعملية البسيط منها والمعقد، ينظر الى المبدأ الفاعلي الأصيل والى المبدأ الغائي الذاتي، ولأنه يقوم بجميع أعماله لله وباسم الله فانها جميعاً تتمتع بالحسن الفعلي والحسن الفاعلي .

يكون الفعل حسناً وكاملاً حين لا تترتب عليه أية مفسدة، ويكون الفاعل حسناً وكاملاً حين لا تدخل عزمه ونيته الأهواء . إذن يجب ابعاد كل علاقة تدعو الى لذة النفس، وهذا هو الاخلاص في النية . فليس المراد بالنية وهي أساس العمل العبادي ورصيد الثواب والتي يحشر كل انسان على أساسها ويثاب على قدرها، هو التصور الذهني للعبادة والادراك الحسولي لمعنى القيام بها وبه الى الله فمن الممكن ان تعتبر مثل هذه النشاطات الذهنية نية على أساس الحمل الأولي، ولكن على أساس الحمل الاصطلاحي الشائع لا تعتبر الا غفلة لا يقصد بها القرب الى الله . والمقصود بالنية هو الانبعاث الروحي والسير من الخلق الى الحق والتحرك من الطبيعة الى ما وراء الطبيعة .

ان التقرب الى الخالق لا ينسجم مع الارتباط بالأرض، وفي بعض الأحيان المصلي الذي قصد القربة في بداية صلاته ولم يطرأ عليه تحوّل من حيث الخشوع والخضوع القلبي، فانه في هذه الحالة لا يحرم القربة فحسب بل سيناله القهر والغضب الالهي ﴿فويل للمصلين * الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾ ﴿٢﴾ .

(١) سورة الشعراء، الآيتين (٧٩ - ٨٠) .

(٢) سورة الماعون، الآيتين (٥ و٤) .

إن جميع العبادات يمكن أن تؤدي الى القرب الالهي . ولكنها حين ترفق بالحسن الفاعلي ستنتقل آثارها من القوة الى الفعل ومثلما تسبب الصلاة قرب المصلي المتقي «الصلاة قربان كل تقي»^(١) فان الزكاة وسيلة لقرب المزكي المستقيم «إن الزكاة جعلت مع الصلاة قرباناً»^(٢) .

والآن وقد اتضح معنى النية وفرقها عن النشاط والخطور الذهني وصعوبتها التي تفوق صعوبة العمل ذاته، سيتضح تفسير العبارة المعروفة «نية المؤمن خير من عمله»^(٣) ويتضح الجمع بينها وبين العبارة «أحمز الأعمال أفضلها»^(٤) . فلا أصعب من الاخلاص في النية وتطهيرها من كل ألوان الهوى والرياء لأن الروح الثقيلة لا تستطيع أن تأتي بالنية الحقيقية «نجا المخفون»^(٥) بل أن الخطوة بمقام الاخلاص والنية الصحيحة من نصيب المتخفين الزاهدين «تخففوا تلحقوا»^(٦) .

إن لم تكن العبادة بنية مخلصه فستبعث على البعد من الله ، وهذا المعنى لا يخص الصلاة فقط التي نزل فيها ﴿فويل للمصلين﴾ بل ان باقي العبادات هكذا أيضاً.

والانسان يحشر على أساس هذه النية يوم القيامة وعلى أساسها يثاب . إن النية التي تعني الانبعاث من عالم المادة والتحليق نحو عالم الغيب

(١) من لا يحضره الفقيه، ج ١، الحديث رقم ٦٣٧ .

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ١٩٠ .

(٣) وسائل الشيعة، ج ١، ص ٣٥ .

(٤) جاء في كتاب النهاية لابن الأثير، ج ١، ص ٤٤٠ : في الحديث عن ابن عباس «سئل رسول الله ﷺ : أي الأعمال أفضل؟ فقال: أحمزها» .

(٥) مجمع البحرين، مادة (خفف) .

(٦) نهج البلاغة، الخطبة ٢١ .

والتجرد، تزكي الانسان من كل ضياع وظلام، لأن كل تعلق بعالم الطبيعة بمثابة الأدغال الطفيلية التي تنمو في مزرعة القلب فتمنع يقظته ونموه. والانسان المزكي يعمل دائما على حصد هذه الأدغال. ففي الزهد عن هذه الحشائش الدخيلة وتطهير أرض الفؤاد من هذه التلوثات تتوفر أرضية انبعث الروح الانسانية الى ما وراء الطبيعة. وهذه هي النية الحقيقية. واذا رافقت مثل هذه النوايا الأعمال الصالحة، فستزكي الانسان.

إذن فمجرد الخطور الذهني وتصور مفهوم العمل لا يعتبر نية لذلك العمل. يقول القرآن الكريم عن الذين لا يفرقون بين «النية» و«الأمنية» أنهم بالرغم من أمنيتهم الجهاد في سبيل الله الا أنهم لا يمتلكون نية الجهاد، لأنهم ينزويون في بيوتهم منذ اليوم الأول للحرب وكأنهم لا يحملون حتى أمنية الجهاد أصلاً ﴿ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون﴾^(١).

فيبدو أنكم لم تنووا الشهادة في حال الرخاء بل كنتم تحملون رغبتها الساذجة في نفوسكم فقط. فاعلموا أن الكمال لا يقوم على أساس الأمنية ولا يثاب الانسان على قدر أمانيه ﴿ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب﴾^(٢) ولا يحشر برفقة أمانيه وآماله. بل ان الثواب يأتي على قدر النية وكل انسان يحشر على شكل نيته. «لكل امرء ما نوى»^(٣) و «ان الله يحشر الناس على نياتهم يوم القيامة»^(٤).

(١) سورة آل عمران، الآية (١٤٣).

(٢) سورة النساء، الآية (١٢٣).

(٣) وسائل الشيعة، ج ١، ص ٣٥.

(٤) محاسن البرقي، ج ١، ص ٢٦٢.

والخلاصة هي أن النية غير الأمنية والأمل، لذلك يقول القرآن الكريم لأصحاب الأمانى المقتنعين بالخطور الذهني؛ إنكم لو كانت لكم نية صادقة في الحرب مع الكافرين والمشركين لما انزويتم أثناء الحرب أبداً. ويقول عن المنافقين في صدر الاسلام حيث كانوا يتمنون أن يكونوا مع المقاتلين ويفوزوا معهم فوزاً عظيماً، أنهم لا يتوانون عن تهييط وتفثيت عزائم الزاحفين الى ميادين قتال الكافرين ﴿وإن منكم لمن ليبطئن فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله عليّ إذ لم أكن معهم شهيداً﴾^(١).

أي أن بعضكم كان عائقاً عن سرعة حركة المجاهدين في سبيل الحق وكان عاملاً على بطئهم، وحين ينتصر الكفار وينكسر المسلمون تقول الفئة المنافقة لقد منّ الله علينا إذ لم نشهد الحرب مع المسلمين ولم يلحقنا الأذى، ويقولون للكفار اننا كنا نعمل لصالحكم خلف الجبهات ونرفض تعبئة المقاتلين المسلمين الى الحرب ونحاول إبطاء حركتهم في الزحف الى سوح القتال، لذا لا بد أن يكون لنا نصيب من غنائم النصر على المسلمين. فيحكمون علاقاتهم بالكفار عن هذا الطريق.

أما اذا انتصر المسلمون فان القرآن يروي كلامهم بالصورة التالية «ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً»^(٢) أي ليتنا كنا معكم فنصيب جانباً من الفوز والفيض العظيم وكأنما لم تكن بينكم وبينهم معرفة وصدقة مع انكم كنتم بينهم وكانت الدعوة الى جهاد الكفار علنية وعامة، ولكنهم كانوا يصدونكم عن الزحف المقدس.

(١) سورة النساء الآية (٧٢).

(٢) سورة النساء، الآية (٧٣).

فالظاهر أن الذين كانوا يتمنون الموت في الظروف الاعتيادية ويقولون للمتصرين «يا ليتني كنت معكم فأفوز فوزاً عظيماً» لم تكن لهم النية الحقيقية في مقارعة المفسدين بل كانوا يحملون هذه الرغبة بسذاجة في رؤوسهم وحسب وبالطبع فما من كمال يحصل بالأهواء. ويأتي بالأمنيات.

إذن فقد اتضح أن النية تختلف عن الأمنية. إن روح العمل الذي يلعب دور التزكية في روح العامل هي النية وليست الأمنية. النية تحلّق بالروح الى الأعالي وانبعث الروح هذا يؤدي الى تزكيتها، فالروح الانسانية إذا تحررت من هذه القيود ستكون مزكاة، وعندها سترى أسرار عالم الوجود بوضوح وتطوي طريق الكمال الوجودي بكفاءة، كما إنها ستبصر الطريق الى الجنة وتطويه بسهولة وتجتاز الصراط المستقيم على أفضل وجه.

يقول الله في سورة يونس ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾^(١) والمراد من هذه الهداية هو ايصالهم لمبتغاهم وليس إراءة الطريق والهداية التشريعية العامة فالمؤمنون ذوي الروح العقائدية المؤمنة من حيث الحسن الفاعلي والذين يعملون الصالحات من حيث الحسن الفعلي، هؤلاء سوف يأخذ الله بأيديهم تكوينياً وذلك بواسطة ايمانهم ويصل بهم الى مرادهم ويرفع من أمامهم كل ما يمنع الكمال.

وعليه فلو كان الانسان مؤمناً وذا سلوك صالح ومتحرراً من ضيق الطبيعة لاستطاع أن يزكي نفسه. وبسبب الأهمية التي يعبرها الله سبحانه لتزكية الروح البشرية، لم يجعل برنامج الرسول الأكرم ﷺ مقتصراً على

(١) سورة يونس، الآية (٩).

تلاوة الآيات وتعليم الكتاب والحكمة، بل جعل التزكية من وظائفه المهمة وأسلوب تربية الروح من أبرز برامج السماوية .

تم تزكية الأرواح بأن يجتاز الرسول أولاً طريق ونمط الحياة الانسانية ويعمل بمقتضياتها، ثم يعلمها للآخرين ويقول للناس اتبعوني واعملوا ما أعمل . بالعمل الصالح تزدهر نفوسكم . فانشراح الصدور بالعمل الصالح ومشاهدة أسرار الوجود بالعمل الصالح . وعلى ضوء العقيدة الصحيحة والعمل الصالح تسمو الروح الى علاها الوجودي وكلما كانت الدرجة الوجودية للروح أرفع كانت مشاهدة الأسرار الالهية وقابلية الفيض الغيبي أكثر .

قلنا في المحاضرة الماضية أن هذه الأيام وهي العشرة الأولى من شهر ذي الحجة، من المحتمل أن تكون مصداقاً للآية ﴿والفجر﴾ ولبال عشر^(١) . جعل موسى الكليم عليه السلام من شهر ذي القعدة والعشرة الأولى من شهر ذي الحجة أربعيناً شغل نفسه فيه بالتزكية الروحية وبالإخلاص الخاص لأربعين يوم وليلة فنال التزكية الكاملة . وفي قصة ﴿فلما تجلّى ربه للجبيل﴾^(٢) وصل به الحال الى نزول التوراة عليه ﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين﴾^(٣) .

والسر في أن التعبير عن هذه الأربعين جاء بكلمة (أربعين ليلة) وليس أربعين يوماً، هو أن الجزء المهم من الفيوضات ينزل ليلاً ﴿إن ناشئة الليل

(١) سورة الفجر، الآيتين (٢١ و٢٠) .

(٢) سورة الأعراف، الآية (١٤٣) .

(٣) سورة الأعراف، الآية (١٤٢) .

هي أشد وطئاً وأقوم قبلاً^(١) ففي الليل يكون الانسان اكثر استعداداً
للتحليق نحو الغيب لأن مشاغل النهار الكثيرة تحول دون التوجه التام
للروح .

﴿إن لك في النهار سبحةً طويلاً﴾^(٢) وفي الليل يهجع الجميع ولا تعود
آية مضايقة آنذاك، فتتاح للانسان عاشق الحق فرصة مناسبة للنية الخالصة
والتضرع والمناجاة مما يبعث اللذة . وصف إحياء الليل بأنه سبيل الله كما إن
إسراء النبي الأكرم ﷺ من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى، ثم
عروجه الى السماء ونزول القرآن، كلها حصلت أثناء الليل .

وعلى كل حال فقيام الليل ذو أهمية فائقة في تهذيب الروح لذلك
استخدم الأنبياء الالهيون هذا الأسلوب في تزكية النفس وانتفعوا منه فصاروا
أسوة لبقية السالكين .

والخلاصة هي أن الله سبحانه وتعالى يصل بسالكي درب الايمان
والعمل الصالح الى غاياتهم بالهداية التكوينية الخاصة، وهم بمشاهدة اسرار
عالم الوجود لا يخافون الا من غضب الله ولا يرجون الا رضاه، فالغضب
الالهي ومظاهره هو مدعاة خوفهم الوحيدة، كما ان رضا الله ومظاهر هذا
الرضا هو مداررجائهم الوحيد وبهذا لا تستطيع تقلبات الدهر أن تؤثر عليهم .

﴿لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما أتاكم﴾^(٣) . إن من
خصائص تزكية الروح هي المناعة التي يكتسبها المؤمن بحيث لا يستطيع
شيء أن يؤثر عليه، لا الظفر بمتاع الدنيا ولا خسرانه . فالمؤمن المتزكي

(١) سورة المزمل، الآية (٦) .

(٢) سورة المزمل، الآية (٧) .

(٣) سورة الحديد، الآية (٢٣) .

يعلم أن الظفر بالمتاع الدنيوي ليس كمالاً وجودياً ولا فقداناً سبب في زوال الكمال الوجودي . لأن كلاهما امتحان إلهي ، وعلامة الكمال في الامتحان هي نجاح الانسان في اداء مهامه . ومن أجل الظهور بالمظهر اللائق في مواضع الاختبار والنجاح في تهذيب الروح ، توجد آداب وسنن ورد بعضها في الحديث الذي رواه المرحوم ابن بابويه القمي (رض) في كتاب من لا يحضره الفقيه .

سأل رجلُ الامام السادس عليه السلام أن يعظه ، فقال له الامام في باب مراقبة القلب ومجاهدة النفس و . . . الخ «إجعل قلبك قريباً تزاوله» أي لا تغفل عن قلبك وراقب ما يخطر عليه وما يزول عنه ، لأن لمراقبة ورصد الفؤاد دور مهم في تزكيتة ، واذا أراد قلب أن يتزكى فيجب أن لا تغرس في مزرعة الروح غير بذور التوحيد .

إذا لم يباشر الانسان بنفسه زراعة قلبه فلن يعلم بما ينبت فيه من الأدغال ولهذا يقول الامام الصادق عليه السلام «إجعل قلبك قريباً تزاوله و . . . ونفسك عدواً تجاهده واجعل مالك كعارية تردها . جاهد هواك كما تجاهد عدوك»^(١) . أي أن مراقبة القلب لا تكفي بل يجب جهاد النفس الأمارة ومكافحة الميول الداخلية ومعاداة الأهواء واعتبار المال عارية يجب ردها . إذا علم الانسان أن المال عارية فلن يتعلق به قلبه .

يقول القرآن الكريم إنكم لستم المالكين الحقيقيين والأصليين لما في أيديكم بل اعتبروا أنفسكم خلفاء للمالك الحقيقي ﴿وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه﴾^(٢) أي يجب أن تتصرفوا بما لديكم كما يتصرف ويشرف

(١) من لا يحضره الفقيه ، ج ٤ ، رقم ٥٨٩٢ و٥٨٩٣ .

(٢) سورة الحديد ، الآية (٧) .

الخلافة على ممتلكات الخلافة، لأنكم إما خلفاء لله أو خلفاء للأقوام والأجيال السابقة وفي الحالين أنتم خلفاء وواجب الخلافة والمستعير هو أن لا ينظر لما في يده من الأموال نظرة استقلال وأصالة.

ثم يعود الامام عليه السلام الى قضية جهاد الهوى ويأمر بمكافحته كما يكافح الأعداء.

وخلاصة أصل الكلام هو بما أن العمل الصالح يرافق النية، فدور النية هو صفاء الروح وهذا ما أطلقنا عليه تزكية النفس. وإذا تحررت الروح من قيد الطبيعة فسترى بتجردها أسرار ملكوت العالم ويسهل عليها تنفيذ الأعمال الخيرة باخلاص.

ولأن تهذيب النفس مهمة عسيرة وذات نتائج جمّة، فليست ثمة فضيلة يثاب عليها الانسان لتزكية الروح. ومن هنا يعطي القرآن الكريم التهذيب والتزكية أهمية أكثر من التعليم ويعتبر التعليم مقدمة للتزكية والتزكية مفضّلة على التعليم ويقول: ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً﴾^(١) لأن فضل الله فقط يستطيع أن يدلّكم على هذه السبل وجعل سعادة سلوكها وطبّها من نصيب سالكي درب التهذيب وأخيراً أخذ على عاتقه مهمة الايصال الى الهدف والغاية.

إن منّة الله علينا هي اعطائه الأوامر العملية لنا فقد قال ﴿لا تمنوا علي اسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان﴾^(٢) إن هذه المنّة المتمثلة بالهداية نعمة كبيرة أعطاها الله إياكم، وأساس الهداية من أجل أن ينصرف

(١) سورة النور، الآية (٢١).

(٢) سورة الحجرات، الآية (١٧).

انتباه الانسان من الطبيعة الى ما وراء الطبيعة . لذلك نبّه الله الانسان بأنه مسافر ﴿يا أيها الانسان إنك كادح الى ربك كدحاً فملاقيه﴾^(١) ولا بد أن يلقي ربه .

إن الله أسماء جمال وجلال كثيرة، وانك ان سرت على الصراط المستقيم ستلاقي الله الرحمن، وان سرت على صراط الفساد المنحرف فستلاقي الله المنتقم وستلاقي الله في الحالتين، اما الله الرحمن واما الله القهار والمنتقم، وعلامة عطف الله أو غضبه تكمن في سلوك الطرق المختلفة .

وهذا الطريق طويل جداً، فإذا أراد أحد أن يطوي هذا الطريق الطويل بسهولة يحتاج الى مركب قوي لا يعرف التعب وزاد لا ينفد ورفيق مخلص ودليل وفيّ ولا تتحقق هذه الشروط والأركان الا تحت ظل المحبة الالهية التي هي بمثابة المركب القوي وبفضل التقوى الالهية التي هي بمثابة الزاد الجيد، وقد وعد الله سبحانه: ﴿يهديهم ربهم بايمانهم﴾ فهؤلاء هم السالكون المتخففون والمتخففون في أمان من متاعب السفر ومن التعثر في الطريق .

حين نقرأ لأمير المؤمنين عليه السلام قوله «آه من قلة الزاد وطول الطريق وبعد السفر»^(٢) فإنما أراد بذلك إرشاد بقية السالكين أو أن قصده «السير من الله الى الله» وليس «السير من الخلق الى الله» فمع ان السير من الخلق الى الحق صعب وما لم يتجاوزه الانسان السالك فلن يصل الى مقام الولاية، ولكنه بالنسبة للامام علي عليه السلام القائل «لو كشف لي الغطاء ما ازددت

(١) سورة الانشقاق، الآية (٦) .

(٢) نهج البلاغة، الحكمة ٧٤ .

يقيناً»^(١) والقائل «ما كنت أعبد رباً لم أره»^(٢) ليس بصعب ليثن ويتأوه ويتخوف من صعوبته . ولكن السير في الأسماء الحسنى وهو السفر من الحق الى الحق صعب وثقيل وطويل جداً ولا يمكن طيه بأي مركب كان وأي زاد حصل ولا يصلح له أي رفيق، ومن الصعب جداً الظفر بالهداة الغيبين في هذه المرحلة المهمة . ومن المناسب أن يتحدث سالك كالامام علي عليه السلام عن صعوبة تلك المرحلة . والا فالسفر من سوى الله الى الله سهل على أمثال الامام علي بن أبي طالب عليه السلام لأنهم متخففون والمتخففون يصلون أهدافهم في كل مرحلة من المراحل وقد قال الرسول الأكرم ﷺ «نجا المخففون» وقال الامام علي عليه السلام «تخففوا تلحقوا» .

اتضح من المحاضرة السابقة أن الأولياء الالهيين كالامام علي عليه السلام لم يكونوا في الدنيا أساساً وقد فسرنا معنى الدنيا المذمومة والسكن في الدنيا والأهلية لها فيما سبق . وقلنا أنها أوهام وخيال وعناوين الدنيا الاعتبارية والامام علي عليه السلام لم يكن فيها أصلاً ولم يأنس بها فهو القائل «غري غيري لا حاجة لي فيك قد طلقتك ثلاثاً»^(٣) ولأن الدنيا والآخرة متقابلان فالذي لا يكون في الدنيا لا بد أن يكون في الآخرة .

يكتب الامام الحسين بن علي عليه السلام في رسالته الى أخيه ابن الحنفية عن سفره التاريخي الحماسي «فكأن الدنيا لم تكن وكأن الآخرة لم تنزل والسلام»^(٤) .

(١) مائة كلمة للجاحظ .

(٢) التوحيد للصدوق، ص ٣٠٨ .

(٣) نهج البلاغة، الحكمة ٧٤ .

(٤) كامل الزيارات، ص ٧٥ .

فكما قلنا في الأحاديث السابقة، ليس معنى الدنيا هذه الأرض والسماء والبحار والصحاري وما شابه، فهذه آيات إلهية وجميع الآيات الإلهية بصفتها علامات وآثار لله فهي حق وكمال وجودي. وعندما يقول الامام أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة أن للدنيا أولاد وللآخرة أولاد فكونوا من أولاد الآخرة، معنى هذا القول أن تربوا في حجر المعارف الأزلية ونزاهة الروح، لا في مهد العناوين الاعتبارية التي تشبه السراب.

ولأن الجزء المهم من صعوبة هذا السفر هو الانفصال عن نشأة الطبيعة الذي يعني النية وانبعث الروح، لذا قيل عن النية: «نية المؤمن خير من عمله» وهذا ينطبق على القانون الكلي القائل «أفضل الأعمال أحمرها».

يتحدث القرآن الكريم عن الذين لا حضور لقلوبهم أثناء الصلاة وفي غفلة عن معاني وآثار الصلاة، ويقول ﴿فويل للمصلين﴾ الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴿والسهو والغفلة أمور قلبية تنتج عن ضعف النية. من الممكن أن تكون الأجزاء والأركان الظاهرية للصلاة كاملة، ولكن يحصل فيها السهو عن طريق وهن العزم وضعف النية، بحيث تقل أو ترتفع آثارها الوضعية وهي النهي عن القبيح والمنكر.

وبما ان النية هي التقرب من الله فان الانسان السالك يتقرب الى الله بالنية الخالصة والانبعث الروحي، ولأن التقرب الى الله هو التقرب الى الكمال المحض والمشاهدة الصرفة لذلك يستطيع السالك المتقرب أن يشاهد الكثير من أسرار الوجود وأن يفعل ما يشاء لأن ارادته فانية في ارادة الله، لذلك فهو لا يريد سوى الخير والحق والله لا يفعل الا الخير والحق، من هنا تكون هذه الأعمال قد تمت بارادته حيث ارادته مظهر لارادة الله

الفعلية .

كما ان دعاءه يكون مستجاباً دائماً فقد ورد عن الامام الحسن المجتبي
«أنا الضامن لمن لا يهجس في قلبه الا الرضا أن يدعو الله فيستجاب له»^(١)
فالسالك المتزكي والمنبعث من عالم الطبيعة والمتحرر من حشائش وأدغال
الدنيا والحاصد لكل الطفيليات من حديقة قلبه والذي لا محبوب لديه الا الله
ولم يتعلق فؤاده بأقل ، مثل هذا الانسان لا يرى الا الله ولا يطلب سوى الله
وتكون مشاهدته المحضة فانية في مشاهدة الله اللامتناهية ، وهذا الطلب
الخالص فان في طلب الله اللامتناهي أيضاً ولهذا يكون مقبولاً ومؤثراً لدى
الله سبحانه .

وقد جاء حول قلوب المعصومين عليهم السلام «بل قلوبنا أوعية لمشيئة
الله»^(٢) .

وهذه الارادة هي صفة لفعل الله وهي عين الفعل لا عين الفاعل . ان
الارادة التي تكون عين الفاعل هي الابتهاج الذاتي والارادة الذاتية وتعبير
البعض العلم بالنظام الأصلى . ومع ان الصفات الذاتية لله عين بعضها من
حيث المصداق وعين الذات الالهية في نفس الوقت ولكنها من حيث
المفهوم مفارقة لبعضها ، لذلك فمفهوم الارادة غير مفهوم العلم مع ان
مصداقهما نفس المصداق ، ومفهوم الارادة الذاتية نفس الابتهاج الذاتي .

والقصد هو أن الارادة الذاتية هي عين الذات وهي غير الارادة الفعلية
والارادة الفعلية خارج الذات الالهية وتحتاج الى مظهر ، من هنا كانت قلوب

(١) بحار الأنوار، ج ٧١، باب التوكل و... والرضا، ص ١٥٩ .

(٢) تفسير الصافي، ج ٢، ص ٧٧٥ .

الأولياء الالهيين مظاهر لها. لذلك تكون ارادتهم مقبولة من قبل الله ويكونون مطلعين على ظهور الارادة الفعلية لله. وقد جاء في بعض التعابير ان قلوب اولياء الله «وكر» وعش لارادة الله. بمعنى أن قلب الانسان الكامل مطلع على نزول الارادة الالهية ومطلع على صعودها أيضاً.

إذن بإمكان القلب تحت ظل الصفاء والتهذيب الروحي أن يصل الى حيث لا تحلق فيه ولا يكون مقراً لسوى إرادة الحق (الله) وهذا يأتي نتيجة العمل الصالح والايمان لا عن طريق العلم المجرد والبحوث الأكاديمية. وبالطبع فان العلوم الحصولية تقوي العقل النظري، ولكنها لا تؤدي لأن يرى الانسان أسرار الملكوت وان لا يريد سوى الحق ولا يقوم بسوى ارادة الحق، لأن هذه الصفات من نتائج تزكية الروح.

كان سلوك رسول الله ﷺ مع تلاميذه أنه يعلمهم أولاً الكتاب والحكمة في المسجد والحلقات، وفي حين العمل يأمرهم بالعمل على شاكلته، ليقنتدوا به في أعمالهم وكان يراقب طريقة أعمالهم، ويحفظ في باله كل نقص يشاهده عنهم ليذكرهم به مرة أخرى في المسجد أو الحوزات الأخرى من باب تعليم الكتاب والحكمة، وينبههم الى أسباب فشلهم في الحرب أو غير الحرب ليلبغوا أهدافهم بترك نقاط الضعف.

وكان الصحابة يبلغون غاياتهم عند الأخذ بارشاداته التربوية سواء في الحرب أو في السلم، لهذا يقول القرآن الكريم حين يبين سيرة التهذيب والتزكية والتعليم عند الرسول الأكرم ﷺ ﴿هذا بيان للناس﴾^(١) بمعنى أن الرسول لم يكن يكتفي بالتعليم الفكري، بل كان يقدم السبل العملية

(١) سورة آل عمران، الآية (١٣٨).

بسلوكه وليس بمجرد الكلام . من هنا اعتبر الله تعالى في قرآنه الرسول الأكرم أول مفسر ومبين له وقال ﴿وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم﴾ (١) .

ولأن في القرآن مسائل علمية وأخرى عملية، فانك أيها الرسول الكريم عالج المسائل العلمية للناس بصفتك معلماً وشرح لهم المسائل العملية بصفتك ولياً مرشداً، ليكونوا واعين من حيث النظر وراشدين من حيث العمل . لذا جاء عن اتباع الوحي والمتمردين عليه ﴿من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً﴾ (٢) .

فولاية الله تشمل سالكي درب الحق فقط فهي تجمعهم تحت ظلها وتخرجهم من كل أنواع الظلام ﴿يخرجهم من الظلمات الى النور﴾ (٣) كما ان الرسول الأكرم ﷺ كان لهم ولياً ومرشداً . وكان ينور أتباعه .

لم يكن النبي ﷺ ليكتف بتعليم الكتاب والحكمة، لأن أهم رسالة له هي تبين القرآن الكريم، ومن الواضح أن تبيان المواضيع النظرية يكون بالشرح والكلام وتبيان المسائل العملية بالسلوك والأعمال . ومن المستحيل أن تحل القضايا العملية الخاصة لتزكية الروح بمجرد الكلام، كما ان كونه ﷺ أسوة شاهد آخر على أن برامجه لا تقتصر على التعليم والاملاء والكلام .

بما ان تعليم كل شيء يتناسب وذلك الشيء، فان للأخلاق وتهذيب النفس وهما من أبرز البرامج التربوية الاسلامية قسمان : الأول قسم النظر

(١) سورة النحل، الآية (٤٤) .

(٢) سورة الكهف، الآية (١٧) .

(٣) سورة البقرة، الآية (٢٥٧) .

وإراءة الطريق الفكري، والثاني قسم العمل وإراءة طريقة تربية واصلاح الروح و... الخ ولا يمكن في حدود القسم الأول أن تتم كل القضايا المتعلقة بتعليم الحكمة، فصفاء الضمير لا يحصل بمجرد التعرف على أصول التزكية وأسس تهذيب الروح. فهو كعلم الطب الذي لا ينفع شيئاً بدون التجربة العملية والتمرين السلوكي مع انه من الممكن أن يحتوي مجرد التعليم على بعض منافع الحكمة العملية ولكن ذلك لن يثمر عن شيء بدون القدوة العملية للمعلم الحكيم.

كان الوجود المبارك لرسول الله ﷺ هو المبين لكل أبعاد القرآن سواء في القسم النظري أو في القسم العملي. فقد كان ﷺ معلماً في القسم النظري وصار بطرفة عين من تلميذ الى ما يعادل مائة مدرس كما يقول الشاعر، وفي المجال العملي كان معلماً أيضاً وسلوك واحد يؤدي الى زكاة مئات العارفين الواصلين. كان عالماً لم يدخل المدارس ولكنه بطرفة عين غدا معلماً لمئات المعلمين وكان أنيساً لم يهتد الطريق بواسطة الآخرين ولم يتبع أحداً بل فهم ووصل بنفسه وسحب خلفه مئات الألوف من السالكين الواصلين. فكان يعلم بغمزة ويهدي بنظرة. وان كان بغمزة واحدة يدفع الحكماء والعلماء والفقهاء الى البحث الفكري فانه بنظرة واحدة يجذب العرفاء والأولياء والزهاد والنسك والعباد الى الابتهاج القلبي.

ومع ان أساليب دعوته ﷺ الى الله تكون تارة بالحكمة وتارة بالموعظة وأخرى بالجدال بالأحسن، ولكن هذه الدعوات لا تأخذ دائماً شكلاً واحداً، لأن الدعوة العملية وتطبيق برامج تهذيب النفس ليست في مقدور الألفاظ ولا في استطاعة المفاهيم والتصورات والتصديق الذهني. واذا كان علم وتعليم العلماء وهم ورثة الأنبياء، ممتزجاً بالعمل والتزكية،

لأخذوا إرثاً كاملاً من موروثيهم . وأهم عوامل الارث هو الارتباط الخارجي بالموروث وأفضل طريق لاقامة هذا الارتباط الوجودي هو مزج العلم بالعمل ليكون كل علم مقدمة لعمل وكل عمل أرضية لظهور علم جديد وبهذا يصل السالك تابع الوحي شيئاً فشيئاً الى حيث يستطيع ان يرى الكثير من المعارف بمشاهدة الفؤاد ثم يراها ويسمعها بعينه وأذنه الظاهرية .

كما ان أسوة السالكين الحقيقيين الرسول الأكرم ﷺ كان هكذا، أي كان قلبه المبارك يرى أولاً ﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾^(١) ثم ترى العين، بمعنى أن المعارف الغيبية كانت تنزل من الأعلى، وتصل مرحلة التمثل والتجسد والتجسم وما شاكل عن طريق القلب والعقل وبعد العبور من نشأة التجرد التام ﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾^(٢) .

ومثلما كان الرسول الأكرم ﷺ معلماً ومورثاً للكتاب والحكمة وكان يأتي بالمعارف والعلوم على لسانه من قلبه ، كان لسانه تبعاً لفؤاده بحيث كانا منسجمين تمام الانسجام، فيجب على تلاميذه ووارثيه أن يرقوا الى حيث تتبع قلوبهم قلب معلمهم ومورثهم وتقتدي ألسنتهم بلسان معلمهم التربوي .

ولأن أساس وجود كل انسان قلبه «أصل الانسان لبه»^(٣) فإذا لم يكن قلب ولسان الانسان منسجمين فلن يحرم من وراثة النبي ﷺ وحسب بل سيزول اسم النبي المبارك من ذهنه وسيصلى العذاب يوم القيامة وبعد أحقاب من العذاب لا يتذكر من هو نبيّه؟ .

(١) سورة النجم، الآية (١١) .

(٢) سورة النجم، الآية (١٧) .

(٣) أمالي الصدوق، المجلس ٤٢، الحديث ٩ .

فان لم تنفذ العقائد الدينية الى قلب الانسان ولم ترسخ فيه ولم تصبح ملكة فستغادر ذهنه تحت وطأة آلام الموت وهو الطامة الكبرى . وحين يسأل في عالم البرزخ من هو نبيك؟ وما هو كتابك؟ لن يستطيع الاجابة بسبب أن زمام الكلام يومئذ بيد الملكات النفسية لا بيد الشخص نفسه ليقول ما يشاء . وما لم ترسخ العقائد كملكات نفسية فلن يصدر من المرء سوى النسيان والسكوت ازاء أسئلة القيامة .

وبعد أحقاب وسنين متمادية من العذاب والتطهير سيتذكر ويقول أن نبيي هو الذي أنزل عليه القرآن ولكنه لا يتذكر لحد الآن الاسم المبارك لرسول الله ﷺ . ان الذي لا يذكر اسم رسول الله في الصلاة لأنه ليس من أهل الصلاة ولا يذكره في الاقامة والاذان لأنه ليس من أهل الاقامة والاذان وليس كذلك من أهل الذكر والصلوات وحب وولاية أهل البيت ﷺ ولم يحفظ أسماءهم الا في حدود التصور الذهني والذكر اللفظي فسوف تنسيه ضغوط الموت كل ذلك .

والخلاصة هي أن الرسول الأكرم يريد تلاميذ منسجمة قلوبهم مع أسنتهم ومتحدة جوارحهم وجوانحهم ، وهذه هي التزكية التي تصل بالانسان الى مقام وراثه النبي الأكرم ﷺ . وللاقتداء والاتباع درجات يذكرها الله على النحو الآتي : أولاً يأمر بالتأسي بالنبي ابراهيم عليه السلام ومن معه ﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في ابراهيم والذين معه﴾^(١) ثم يقول ان نبي الاسلام أسوة حسنة لكم ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾^(٢) وأحسن أسلوب للتأسي هو تهذيب الروح عن طريق الايمان والعمل الصالح وتكراره وتمرينه وترسيخه في القلب بحيث لا تزيله أية حادثة .

فسر ابن سينا (رض) توزيع العبادات على أوقات الصباح والظهر

(١) سورة الممتحنة، الآية (٤) .

(٢) سورة الأحزاب، الآية (٢١) .

والعصر والليل ومنتصف الليل بأنه من أجل أن لا نغفل أبداً لذا لم نؤمر بأن نصلي سبعة عشر ركعة في وقت واحد، بل جاء الأمر الالهي أن ﴿أقم الصلاة لدلوك الشمس الى غسق الليل وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهوداً﴾^(١) ومن أجل الصيانة الكاملة للقلب من هجوم كل أنواع الخواطر المضرة والتحرر من كل الوسوس نزل الأمر الالهي أن ﴿واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والابكار﴾^(٢) .

ومثلما تكون صحبة سالكي درب الحق مؤثرة في تهذيب الروح فان مرافقة الغافلين ومجالسة الساهين والاستئناس بذوي القلوب السوداء تؤدي جميعها الى سواد الفؤاد، لذلك لم يكتفِ الله سبحانه بالارشاد لشروط التزكية بل ذكر بموانعها أيضاً ونهى عنها ﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً﴾^(٣) .

أسأل الله أن يجعل قلوب الجميع مزكاة ومهذبة وأن ينصر الاسلام وجنوده ببركة القرآن الكريم، وأن يرد كيد القوى العظمى الشرقية والغربية الى نحورها. وان يوفق مسلمي العالم للوحدة الاسلامية كأفضل نعمة سماوية، ويمد القائد العظيم للثورة الاسلامية بامداداته الغيبية تحت ظل الامام بقية الله ارواحنا فداء. وأن يوصل ثواب هذه البحوث بعد قبولها كأفضل هدية لأرواح علماء الاسلام ومؤلفينا ومعلمينا وعلى الخصوص شهداء الاسلام، ويختم عواقب أمورنا بالخير والسعادة.

غفر الله لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

(١) سورة الاسراء، الآية (٧٨).

(٢) سورة آل عمران، الآية (٤١).

الفهرس

٥	مقدمة الترجمة
٧	الدرس الأول: فضل تلاوة القرآن
٢٩	الدرس الثاني: النزوع الى المبدأ نزوع فطري
٤٩	الدرس الثالث: الفطرة من وجهة نظر القرآن
٧٥	الدرس الرابع: البرهان العام للفطرة على التوحيد الربوبي
٩٩	الدرس الخامس: معارف الدين معارف فطرية
١٢٣	الدرس السادس: فطرة الانسان تطلب الدين الالهي
١٤٧	الدرس السابع: برهان الفطرة في احتجاج النبي ابراهيم(ع)
١٦٧	الدرس الثامن: الميول الصادقة والميول الكاذبة من وجهة نظر القرآن الكريم
١٨٩	الدرس التاسع: نسيان النفس ونسيان الله
٢٠٩	الدرس العاشر: الفطرة ارتباط وجودي واع بالعلة الغائية
٢٢٩	الدرس الحادي عشر: معرفة النفس، أساس معرفة المبدأ والمعاد
٢٥١	الدرس الثاني عشر: البيان القرآني لشهود النفس ونسيانها
٢٧٥	الدرس الثالث عشر: تحليل آية الميثاق
٢٩٧	الدرس الرابع عشر: دور التقوى في شهود الحقائق
٣٢١	الدرس الخامس عشر: التزكية وسبل وصولها
٣٤٥	الدرس السادس عشر: النية الخالصة وعلاقتها بالتزكية

